اقاصيص
من
تاجكستان السوفييتية

Telegram:@qbooks2018

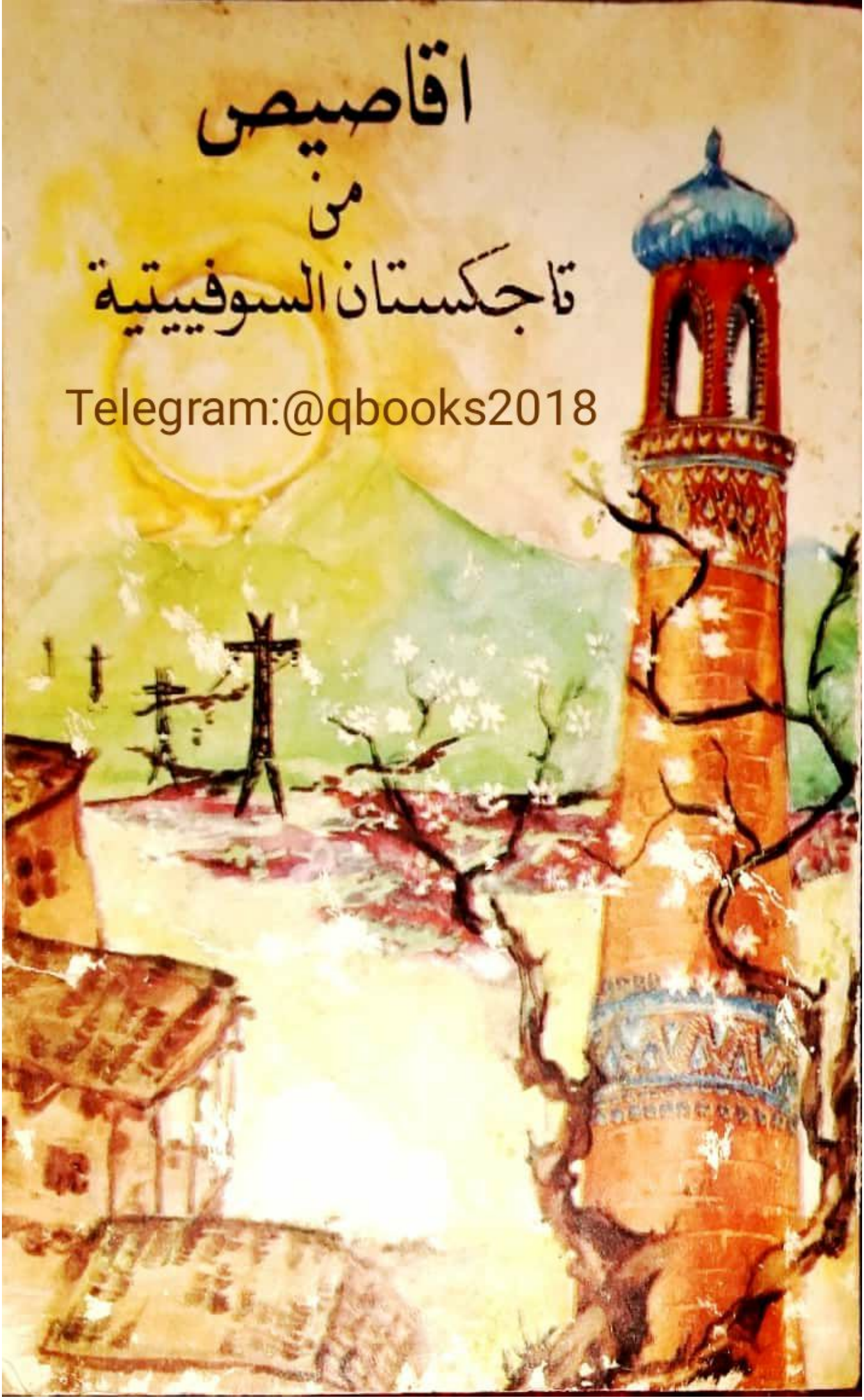

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترجمة برهان الخطيب

ЗА ТЮЛЬПАНАМИ

Рассказы таджикских писателей

На арабском языке

Telegram:@qbooks2018

$3\frac{70500-293}{031(01)-83}$ 180 — 83 4702500200

© طبع في الاتحاد السوفييتي الترجمة الى اللغة العربية، دار «رادوغا» — فرع طشقند، ١٩٨٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلال اكرامي. ولد عام ١٩٠٩ في عائلة قاض ببخارى. أنهى المعهد التربوي. ونشر أول أشعاره وقصصه في منتصف العشرينات. نشر العديد من الروايات والقصص والمجاميع القصصية والمسرحيات والسيناريوهات. أبرز مؤلفاته ثلاثيته الروائية «بوابات بخارى الاثنتا عشرة» (١٩٦٢-١٩٧٤) التي حازت على جائزة الدولة لجمهورية تاجيكستان السوفييتية المسماة باسم ردكي. وهي تتناول أحداث الفترة الممتدة بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتصور نهاية حكم امارة بخارى واقامة السلطة السوفييتية في آسيا الوسطى. وهو كاتب تاجيكستان الشعبي.

سن الرشد

بعد أعوام عديدة عاشها الجد عاقل في سعادة، بنت الفجيعة من جديد عشاً أسود لها في قلبه.

كان بامكان الناس أن يعتقدوا ان الهرم انما أحنى ظهره، فهو بالطبع لم يعد فتياً، أما زوجته بيبي زينب فقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تبدو أكثر منه كبراً ربما. الا أن الأمراض لم تقترب منهما والعوز لم يحل في بيتهما طيلة خمسة وثلاثين عاماً عاشاها سوية. فماذا حدث اذن؟ ولم غالباً ما تشخص نظرة الجد عاقل؟

ها هو يعود من عمله الى بيته. لم تعد في مشيته تلك الحيوية القديمة، فيما أنزل رأسه مطأطئا نحو الأرض، كما لو أنه لا يمضي الى بيته، بل الى مكان مجهول.

والغيوم الزرقاء الكامدة تحجب السماء، فكأنها أنداد روحه، مخفية أعالي الجبال، فيما البروق تلصف بعيداً، وهزيم الرعد تردد السفوح اصداء، اصداءه فيتزايد القلق والهواجس في أعماق الجد عاقل.

وتمتمت شفتا الحائك العجوز:

— جو غريب هذا العام. وأمور أغرب تحدث على الأرض. ليس ذلك حسناً. اوخ، ليس ذلك حسناً!

انه حتى لا يريد أن يعترف لنفسه بأن مصدر قلقه انما هو أمر آخر. اذ ليست الغيوم، ولا الرعد، ولا الريح ما يعبث في سعادته. والرعود في تموز شيء سيء، والمثل الشعبي يقول: «الأفضل أن تسقط السماء على الأرض من أن يسقط المطر في تموز». ولكن الأسوأ هو الرعد حين يجعجع في بيتك الخاص...

يفتح العجوز عاقل باب السياج ببطء، ويرهف السمع. الهدوء يعم الباحة، هدوء غير معتاد. ان صوت ولده المرح الصادح وكلام زوجته المعتنى لا يتناهيان اليه. الباحة خالية، حالها حال أمس، وحال أول أمس.

يغلق الجد عاقل باب السياج متمهلا، متنهداً من الأعماق، وقبل أن يدخل البيت يلقي نظرة في الباحة، في كل زاوية منها، فكأنه يأمل أن يبرز له من تحت أغصان الورد، أو من وراء الدنان اليابسة، الصغير سانغين جان* ضاحكاً مرحاً، جامحاً للقائه.

---

* جان — معناها عزيزي، روحي وهي تضاف الى الأسماء تحبباً — **الناشر.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبتسم الجد عاقل لما يمر في خاطره بمرارة، فسانغين‌جان لم يعد صغيراً، وقد استلم ورقة تشهد له ببلوغه سن الرشد، وتعطيه الحق أن يعتبر نفسه رجلا راشداً مستقلا بنفسه. انه يستطيع ان يفعل كل شيء، ويستطيع أن لايفعل شيئاً على الاطلاق. ويهز الجد عاقل رأسه، منحنياً الى حوض الأزهار، فيزيح بعض الاعشاب الضارة، وفجأة يلقي بها تحت قدميه ويتكتك عليها، بحقد غير مألوف بالنسبة اليه، ويفكر:

«أعشاب ضارة، أيعقل أننا ننبت أعشاباً ضارة؟!»

ينادي زوجته. وبالطبع فان بيبي زينب عند الجيران. الأمر بالنسبة للنساء أهون، فهن قد اعتدن على سفح مصائبهن أمام الصديقات والجارات... وها هي تخرج، وتلقي بدورها نظرة على الباحة. ذلك يعني، ان الأمل ساور روحها أيضاً في ان العجوز لم يعد بمفرده الى البيت، وان ولدها قد عاد الى البيت أيضاً...

يأكل العجوزان البلوف بصمت، يشربان الشاي بصمت، ويفكران ربما في أمر واحد.

انهما لا يشعران بعوز، فراتب الحائك العجوز أعطاه امكانية بناء بيت، وتأثيثه بالمطلوب من الموبيليا. بينما جعلت يدا الزوجة البيت نظيفاً مريحاً، لم يرزقا بطفل فترة طويلة، غير أن السعادة دهمتهما قبل ثمانية عشر عاماً، فقد جاءهما ولد، نما ممراحاً صحيح الجسم، انه سانغين‌جان. لم يمنعا عنه شيئاً. فعندما كان صغيراً استطاع الحصول على كل ما طلبه من أبيه وأمه، من الكرات وسيارات المكوك والدراجات والمسدسات الى الخيول الخشب. وعندما ذهب بعد ذلك الى المدرسة لم يبخلا عليه بشيء أبداً، فقد كان يلبس أفضل من زملائه، واشتروا له كتباً غالية مزينة بالصور، وأعطوه دون تردد نقوداً لدخول السينما وشراء الشوكلاتة و الجميدة.

أنهى سانغين‌جان الصف السابع كما اتفق له، وبالطبع فقد واجهته صعوبات، لأن أمه وأباه لم يعيناه في حل واجباته، فقد كانا غير متعلمين أكثر من اللازم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلى، لقد واجه سانغين جان صعوبات في دراسته، حتى أنه لم يحب المدرسة. فماذا كان يحب اذن؟ أنه السينما والجميدة. والأكثر، كان يحب النقود، ويحب خشخشة الأوراق النقدية الجديدة، ورنين المعدنية منها في جيبه! لقد عرف سانغين جان في وقت مبكر جداً متعة صرف النقود: وكلما كان يصرف منها أكثر كلما شعر بمتعة أكبر.

عندما أنهى سانغين جان الصف السابع لم يعد يرغب في مواصلة الدراسة بعد. أليس الأفضل الانخراط في عمل واستلام المعلوم كل أسبوعين؟ وهكذا عثر لنفسه على مكان سراً عن والديه. وقد أعتقد أن المكان الجيد هو المكان الذي تستطيع الحصول فيه كل يوم، علاوة على راتبك على معين آخر دون بذل كثير من الجهد. لم يرغب أطلاع والديه على هذا المكان، ولكن الجد عاقل استطاع بطرقه الخاصة. معرفة أن ابنه يطمح للعمل ساقياً في مشرب شاي.

احس الجد عاقل بكثير من القلق، وليس من دون باعث لذلك، وقد تكلم مع ولده طويلا، و بجد:

– ما الذي يعوزك يا بني؟ هل ينقصك طعام أم شراب؟ أم أن عليك أطعام عائلة في سنك الخامسة عشرة هذه؟ ما الذي يدفعك لتكون ساقياً وتكسب الخبز من عجوز جاهل؟ اترى: لم أعد أنا شاباً، ولكني أرفض العمل ساقياً في شايخانة. عندي صنعة، وأنا أفخر بهذا. وأنا أريد الافتخار بابني أيضاً! فما دامت عندي قوى أدرس يابني، فقد تستطيع أن تصبح مهندساً، طبيباً، واذا رغبت بامكانك ان تصبح قبطاناً على باخرة فتطوف حول الدنيا كلها!

هكذا كان الجد عاقل يتحدث مع ابنه الوحيد، وزوجته تهز رأسها علامة الموافقة على كلامه...

– ما أن تنهي الصف العاشر حتى تفتح لك الأبواب كلها. ولسوف تختار المهنة التي تريد. فاذا كنت ترغب في التجارة تقدمت الى المدرسة الكبيرة التي تعد مدراء المخازن الكبيرة أو المطاعم...

وهكذا كان الجد عاقل يغري ابنه للدراسة، بينما العمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زينب ترغبه هي الأخرى للدرس، سافحة الدمع على رأس ابنها الوحيد:

– أدرس يابني أدرس، ولسوف نفعل كل ما في وسعنا من أجلك!

– أريد دراجة سباق!

أعلن سانغين جان رداً على ما سمعه، وكان صوته قد اخشوشن كصوت رجل أعتاد استهلاك علبة من السكائر في اليوم.

ورغم ذلك، كانت روح سانغين جان في ذلك الوقت ما تزال رقيقة ذات نخوة، فما أن استلم من والديه دراجة سباق حتى انكفأ فعلا على درسه دون موازبة او خداع. وسرعان ما تقدم للانتماء الى الكومسومول، وهذا ما نفح فيه روحاً جديدة. وأما في العام الأخير فقد حدث أن جلست الى جانبه، على نفس الرحلة منورة – ذات الضفيرة الطويلة، افضل تلميذة في الفصل، وأجمل فتاة، والأكثر اجتهاداً. ولم يرغب سانغين أن يتأخر بمسافة عنها في الدرس، وخجل من أن لايستطيع الاجابة على أسئلة المعلم.

وهكذا استطاع الانتهاء من الصف العاشر، وحصل على شهادة الاعتراف ببلوغه سن الرشد. وكانت حفلة التخرج من المدرسة عيداً ليس له وحده حسب، فقد فرح والداه العجوزان بذلك لا أقل منه، وقدما لابنهما الحبيب الكثير من الهدايا. وفي الوقت الذي كان سانغين فيه يرقص ببدلته الحديثة الجديدة في قاعة الاحتفالات بالمدرسة، كان والداه يحتفلان بدورهما بهذه المناسبة في البيت: لقد دعيا اليهما الأصدقاء والجيران، فهنأهما الجميع في ذلك المساء بما تقر به الأعين.

الا أن كل شيء قد تغير تماماً بعد مرور بضعة أيام.

فكأن ابنهما قد أصيب بمس، فاذا كان يسلك على أفضل مايرام طيلة العام الاخير، ويجهد كما ينبغي، فأنه الآن أصبح متبطلا، وهو الذي كان يقول قبل فترة وجيزة أنه سيأخذ سبيله الى موسكو للتقديم الى معهد فني ليصبح فناناً، أما الآن فقد أعلن فجأة: كفى، لقد مللت الدراسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو الآن راشد، مستقل، عنده ورقة تفصح بوضوح عن ذلك، والمدرسة العليا ليست سهلة المنال، هنالك مباراة، فليجرب الآخرون حظوظهم اذن...

لم يستطع الجد عاقل التغلب على عناد ابنه، وكانت كلماته الجميلة قد نفد معينها. واذن، ليس بامكان الجميع ان يصبحوا مهندسين وفنانين، هذا مافكر به العجوز مستسلماً لأمره، وهل هم قلائل الشباب والشابات الذين ينخرطون في العمل بعد الانتهاء من الدراسة الثانوية. فليتقدم سانغين‌جان الى المكان الذي يرغب، ولكن ليس الى شايخانة. يمكنه التقدم الى ورشة من ورش السكك الحديد، فقد يستطيع مع مرور الزمن أن يصبح أسطى يملؤ العين، بل أن الجد عاقل لما كان يعترض ليعمل ابنه كاتباً في مؤسسة ما... وفي الامكان العثور لحامل شهادة الثانوية على عمل في كلخوز أيضا. فهل هو أمر سيىء أن يصبح المرء مسجل دوام؟ واذا رغب امكنه دراسة علم الزراعة تطبيقا، فيستطيع الارتفاع الى مهنة أرقى...

كان الوالدان يتحدثان كل مساء عن مستقبل ابنهما. ولكن، أفكر سانغين نفسه بذلك؟ كان يستمع الى والده بلا مبالاة ثم يقول بعد ذلك:

— أ أصبحت ثقلا عليكما؟ دعوني أرتاح قليلا. لقد درست عشرة أعوام بالتتالي، فهل كثير علي التنزه اسبوعين، ثلاثة...

كان ذلك صحيحاً. ينبغي الارتياح. وهو يتناول قسطه من ذلك. فهو ينهض من فراشه بعد ثلاث ساعات من مضي ابيه الى العمل. كان يتوجب تكسير الحطب، ولكن أفي هذا ثمة راحة له؟! وهل درس عشرة أعوام ليقوم بعد ذلك بتكسير الحطب للبيت؟ الانسان المتعلم غير مجبر على بذل جهد عضلي. فمثل هذا الجهد ينقص من قدره، ويشتت ذهنه. ان الانسان المفكر، المثقف، يضع أمامه عدداً قديماً من الـ «كروكوديل»* ويقرأ فيه، فهو لا يستطيع حتى الافطار

---

* هي مجلة نقدية ساخرة لاذعة — **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من غير ذلك. اما بعد التوتر الذهني فعليه أن يمضي للتنزه، وهو يتمشى في المدينة، ويمارس الرياضة احيانا، بداعة أن توجد مناضد بليارد في حديقة المدينة...

كم هو عدد المرات الذي بحث فيه الجد عاقل عن ابنه في جميع أرجاء المدينة. وكان يذهب الى اقرانه في المدرسة، ممن كانت لابنه معهم صداقة. فلم يكن يجده هنالك ألآن، ولكنها مرات عديدة كان يعثر عليه بين فتيان مجهولين متجمعين بالقرب من صالات السينما، ومرات أيضاً كان يعود فيها وحيداً الى البيت، فينطرح في فراشه للنوم دون ان يلوح له مقدم. واما العمة العجوز زينب فقد تغذى النار في الموقد كي يستطيع سانغين تناول شيء حار قبل اخلاده الى النوم...

وكانت العمة زينب تقول لزوجها:

– اوخ، كيف لنا أن نفهم شباب هذه الأيام المتعلمين! للولد الكثير من المشاغل، أفكاره غائمة حول مستقبله...

ولكنها لم تكن تبوح لزوجها أن ابنهما لا يستطيع دائماً في عودته تلفظ كلمة «متعلم» بل أنه يتعثر بالتأكيد اذا حاول ذكر كلمة «راشد». فالعجوز زينب تتحايل حتى على نفسها، لاقناعها، بأن ابنها اذا تمايل عند عودته فذلك ليس بسبب الشراب، انما بسبب التعب والاجهاد.

ها هما، الجد عاقل والعمة زينب، جالسان على المصطبة من الطوف في باحتهما الصغيرة، المرصعة بالازهار. صامتان، يفكران، ويرشفان من قدحيهما الشاي. بدأ المطر ينزل، وحباته الجسيمة تضرب في القدحين، فاضطرا الانسحاب الى داخل البيت. يتناول الجد عاقل قدحه ويمضي، وتلملم العمة زينب أغراض الشاي فتضعها بيد مرتجفة في الصينية.. بينما يفتح باب السياج في هذه اللحظة ليطل أحد هم جائراً أو باكياً، والنهار قد اغسق، فلا يبين بوضوح من اقتحم باحتهما جائراً مثل بقرة، ويتمعن الجد عاقل النظر في الغسق الماطر، وتفلت صرخة من العمة زينب، وتهوي أغراض الشاي من يدها... فيتمدد ابنهما سانغين جان

مسربلا ببدلته الجديدة وسط الباحة.. وتهتف العمة زينب وهي تهرع الى الباحة:

– رباه! أي نهار هذا! أي نهار تعس!

أما الجد عاقل فلا يستطيع التغلب على شعوره بالشفقة وهو يرى ابنه الوحيد متمرغاً في الأوحال. فيستجمع قواه، ويرفع سانغين عن الأرض، ويمضي به الى البيت، فيخلع عنه ملابسه المطينة، ويرقده في الفراش. قال له لائما وبصوت مرتعش مشوب بالحدب والحنو:

– آه سانغين جان، آه، كيف تستطيع الظهور بهذا المظهر أمام أبيك وأمك؟

يصعب تصديق أن ابنك، طفلك ذلك نفسه الذي هززته في المهد، وهدهدته على يديك، واقتدته في النزهات، وعلمته بكور الكلمات، قد أصبح متبطلا، شريباً، يحبط الامال، آه، ما أصعب ذلك!

ويدمدم سانغين:

– أنا.. أنا.. لست سكران – يلوح يديه كما لو أنه ينوي احتضان والده العجوز، غير أنه يصيح فجأة وقد تخضب صوته بالدموع: – وداعاً يا منورة، وداعاً! أنني هاجرك الى الأبد يا عزيزتي منورة...

ويعض سانغين يده، ويتململ في فراشه، ويتقلب باكياً. وتظل الدموع مهطالة في عينيه حتى يغلبه نوم أهل الكهف.

ويستعصي النوم على أبيه وأمه طويلا. ويقول الجد عاقل بعد كثير من الفكر:

– اسمعي يازينب! حان لنا أن نفهم أن المذنب في هذا انما نحن! لقد قلنا له فائضاً من معسول الكلام: وحيدنا، حبيبنا، وجعلناه مدللا منذ أول أعوامه، ولم نطعمه الا الحلو. لا تجادليني ولا تبكي، المذنب نحن لا غير. وها نحن الآن نتعذب، ومعنا ابننا يتعذب. لقد قطعنا نحن درب العوز الصعب، أما هو فما الذي رآه؟

وصمتا فترة طويلة مرة أخرى، والعمة زينب لا تستطيع الكف عن سفح الدموع، حتى قالت:

– لقد عذبتني الأفكار أيها الأب، ولعل كلماتي تبدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلا حصافة، غير اني لا أستطيع بعد الاحتفاظ بها في رأسي. الا تعتقد بان النقود هي ما يفسد ابننا؟ واذا كان الأمر هكذا الا تعتقد أن الأفضل أن نحجب عنه ذلك فلا نعطيه روبلا واحداً...

– انني أوافقك الرأي. معلوم منذ أمد بعيد ان النقود تفسد الانسان، اذا جاءته دون بذل كثير من الجهد. ليبدأ ابننا سانغين العمل، فالنقود التي سوف يكسبها ستكون لها قيمة أخرى تماماً في نظره ومن يوم غد لا ينبغي عليك ولا علي اعطاؤه كوبيكاً واحداً! تذكري هذا القرار ولا تدعي اللين يفسده، واقتصدي بكرمك وطيبتك، لنرى ما الذي سوف ينجم عن هذا!

* * *

يجلس في ورشة النسيج أمام الآلات نساجون شباب من كلا الجنسين، فيما النسيج المبرقش، الزاهي، المخطط، المبهج للنظر، يتدفق في عنبر الورشة وافر النور. والبكرات تئز، والانوال تدور، والمكائن تتضارب في ايقاع منغم جميل.

ان هذه الآلات ليست جديدة تماما، وليست في مرتبة متقدمة من الكمال، من تلك التي تعمل في مصانع النسيج الكبيرة. الا انها تنتصب في عنبر نظيف فاره، على الأرضية الخشبية. النساجون لا يقفون الآن كما في الماضي في حفرة للقدمين، ولا يمتد فوق رؤوسهم سقف واطىء طيني. تتردد بين أرجاء العنبر الآن أغان فرحة، فيما ولت الدموع والمصائب مع الماضي. الاصوت الشابة مسموعة ها هنا منذ الصباح الى المساء. اما الآلاجا والبيقاسام* فلم تصبح بعد اغطية وأروابا غير انها هنا منذ الآن تمنح الفرحة لروح العاملين، الذين ينتجونهما في هذه الورشة.

ان الجد عاقل هو النساج الأقدم في هذه الورشة، فلا

---

* نوعان من الأنسجة – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوجد انسان هنا لم يمحضه النساج المجرب نصيحة ذا قيمة. وكم عدد الذين تناولوا اصول المهنة والخبرة بين يديه! جاؤا شباباً وفتيات وجلات فأصبحوا بمعونة الجد عاقل فنانين في هذه الصنعة، ذاع صيتهم في طول المدينة وعرضها.

لهذا السبب يحب الجميع هنا الجد عاقل، ويشعرون بآلامه كما يشعرون بآلامهم الخاصة.

ان رفاقه في العمل يخمنون الأسباب الكامنة وراء تجهم وجهه، هذا الرجل الذي استطاع تربية المئات من العمال لم يلحظ أن ابنه، فلذة كبده،... كلا ... كلا ... لا ينبغي التحدث بهذا... ولكن، أما آن له أن يفهم ان على الصبي أن يعود الى طريق الصواب؟

أعلن الجرس فترة الغداء، فاقترب من الجد عاقل ثلاثة من زملائه الكبار في السن، وراحوا يتحدثون معه عن هذا وذاك من الأمور: دعوه الى الشايخانة القريبة لشرب الشاي ومواصلة الحديث معاً سوية.

وها هو شاكروف، الذي ابيضت لحيته، يتحدث عن ابنه:

— سافر رحمان‌قول الى لينين‌آباد لاداء امتحان القبول في المدرسة العليا. وكنت قد قلت له: ما الداعي للعجلة، لقد درست عشرة أعوام، فخذ لك راحة قليلا من الوقت، تنزه، استجمع قواك، ولسوف أعطيك النقود، فقد ادخرت من المال شيئاً. اذهب الى المسارح، ولكنه لا يرغب: يقول يجب طرق الحديد مازال ساخناً... فهل استطيع أنا النساج مناقشته وهو يتكلم عن الحديد! انه، منذ العاشرة من عمره، يتلاعب مع مختلف أنواع المكائن. استطاع مع زملائه في قصر الطلائع تجميع عصارة للعنب. يريد أن يصبح موصو... كيف يقولونها، ها... مصمم. يصنع مكائن لاغراض متنوعة...

وهنا يشارك في الحديث أمين المستودع نزاروف، وهو عجوز ضئيل مثل فأر:

— اما ابننا فقد وقع في الحب، فقلبه يتلظى بناره،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن لاتظنوا ان الفتاة قد اخضعت لها قلب اكبر. فهو ما ان يسمع في الليل تزمير سيارة حتى يهب ويجرى لرؤية ماركة السيارة. أقول: «أكبر جان، لقد كتبوا في الجرائد بأنهم منعوا في موسكو السواق من التزمير، لسوف نكتب، أنا وأمك، الى مجلس المدينة ليمنعوا التزمير في مدينتنا أيضاً. فقد تنام الليل بعد ذلك وتريحنا معك!» لكنه حقق هدفه مؤخراً: ادى امتحان السياقة، ولسوف يطرق الى خوروغ. انه يسوق السيارة الآن أيضاً، ينقل الى المدينة خيرات من القرية: اعناب، رقي، خضروات... وعندما يمضي بالسيارة ينقبض قلبي: الحمد لله الذي حال دون وقوع حادث له حتى الآن!

صمتوا. فيما تنهد الجد عاقل من أعماقه، فقرر أصدقاؤه انه، وقد استمع الى أحاديث الغير من أبنائهم، سيرغب الآن في التحدث عن ابنه، فيمكن انذاك ابداء التعاطف معه، واذا اقتضت الضرورة اسداء النصح له. ولكن الجد عاقل يتنهد حسب، ويوزع النظر الى الجانبين. فيما رغيفه ما يزال في حاله لم يمس، وربطة الطعام التي هيأتها له بيبي زينب ظلت معقودة كما كانت.

وينخرط صديق الجد عاقل الثالث مصلح آلات النسيج قاسم آغا، في الحديث بدوره، مربتاً على لحيته، قائلا:

— انتهت ابنتنا من المدرسة العام الفائت، كانت تفكر أن تصبح فنانة، أغاني الراديو لم تدعها تخلد لراحة. والحقيقة أن الجميع في عائلتنا شغفوا بالموسيقى والغناء، أنا نفسي كنت أعزف في شبابي على الدومبرة*، وكان لامها صوت حسن، وهكذا ادخلت البنت في رأسها ان لها الموهبة، فلسوف تغني وترقص مدى الحياة. وفي العام الماضي فشلت في الامتحان، فظلت تعاني من ذلك شهراً بأكمله... ثم شاركت في حلقة الغناء التابعة لنادي الثقافة. هم يمتدحونها هنالك، درست الدفاتر المخططة حيث الخطاطيف والاعواد، التي تصور مختلف الأصوات، طويلا.

---

* آلة موسيقة وترية — **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تغني في البداية بدون كلمات، وكنا، زوجتي وأنا، على وشك البكاء بسبب هذا الغناء، فقد قررنا ان ابنتنا رقية قد نست لفظ الكلمات يا للأسف. بينما كانت هي تضحك منا! أتضح انه ذلك ما كان المطلوب، ذلك ما كانت تعلم... فعلا، رقية الآن تغني بكلمات، بل وبطريقة تحسدها عليها البلابل... هذا العام تذهب من جديد الى المدرسة التي، كما يقولون «تعد الأصوات»، بلى، بلى، أيها المحترمون. اعتقدت في البدء أن رقية تمزح. ثم اتضح أن الصوت يمكن اعداده حاله حال صندوق او سلم طويل... كلا، لا ينبغي لنا الدخول في جدال مع أبنائنا: انهم يعرفون أفضل منا ما يصلح لهم... ذلك حال ابنكم أيضاً أيها الجد عاقل ربما...

فاستفسر النساج العجوز مستيقظاً من عميق أفكاره:

— ما به ابني؟

— ربما شغف بأمر ما هو الآخر؟

فيجيب الجد عاقل أصدقاءه بحزن:

— كلا. ابني لم يرغب التقدم لدخول مدرسة عليا. ولم يشغف بالمكائن، وصوته لا يصلح أبداً لغناء. لكنه ينصب الزجاجة لأصحابه من حسابي بكل سرور...

فيسأل شاكروف ذو اللحية البيضاء متعاطفاً معه:

— لربما تراه يقلب الفكر، يبحث عن قرار؟

ويتدخل أمين المستودع قمىء البنية:

— قل لي، ماذا لو ضممنا الولد الى فرقتنا؟ لكان الجميع قدموا له العون راغبين طائعين وأصبح حرفياً ماهراً. وأنت نفسك أيها الجد عاقل تستطيع نقل خبرتك وعلمك اليه...

يهز الجد عاقل رأسه:

— أنتم أيها الأصدقاء لا تعرفون ابني جيداً. مثل هذا العمل لا يناسبه، بل أنه لا يريد حتى الاستماع الى ذلك!

ويقول قاسم آغا:

— ولكن الفتى الشاب يملك الكثير من الامكانات!

— بلى، الامكانات كثيرة. ولكن عندما لا توجد هنالك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاجة لا يجد كل فتى شاب في نفسه قوة الارادة الدافعة للعمل... ولذلك قررت أن لا أعطيه بعد نقوداً.

يوافقه الأصدقاء الرأى. بينما يسأل شاكروف النساج متوجساً:

– ألا تعتقد بأنه يحسن بنا أيضاً التكلم الى ابنكم؟

فيلم الغضب لسبب مجهول بالجد عاقل وينهض من مكانه بسرعة، مدمدما:

– نصائح، نصائح، الا تدركون بأن سانغين قد أصبح رجلا راشداً يمسك رسنه في يده! عنده ورقة تفيد أنه أصبح راشداً. فهل عندنا نحن مثل هذه الورقة؟... كلا؟ فكيف ستستطيعون اذن بذل النصح له؟

فيخرج قاسم آغا آنذاك عن طوره أيضاً:

– كما ترغب، كما ترغب! الا أنه يجب تذكر أمر واحد: بورقة أو بدون ورقة لا يمكن أن يصبح الواحد منا انساناً بالعزلة عن غيره. الثمار الناضجة تسقط، غير أنه لا ينبغي لانسان ناضج السقوط: هذا ما تقوله الحكمة الشعبية.

عاد العجائز الى ورشتهم صامتين، كل يفكر في ما له.

* * *

مرت بضعة أيام، لم يستلم سانغين خلالها مالا، لا من أمه ولا من أبيه. فماذا تبقى له أخيراً كما بدا له؟ الاعتماد على العقل، والبحث عن عمل لنفسه. والانقطاع على العموم عن موائد البلياردو، وكذا المطاعم العامة. لم يصدق الاصدقاء حكاية الواجب هذه كثيراً، ولكن سانغين ظل يعود كالسابق الى بيته في الليل حسب، ومرة عاد في الفجر، تماماً مع شروق الشمس.

كان والده ما يزال نائماً. حاول سانغين المضي الى فراشه دون أن يلحظه أحد، الا أنه وجد أمه قبالته، فقد ظلت تنتظره طيلة الليل، دون أن تغمض جفنا لها. هتفت هامسة وهي تمد له يدها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بني!
- أريد أن أنام، أنني متعب. ماذا تريدين مني؟

قال سانغين ذلك دون أن ينظر لامه، ثم فتح فمه عريضاً. وتثاءب متعمداً.

- أنني لا أسألك أين كنت ياولدي. ولكني أريد أن أعرف، مادام والدك لما يزل بعد نائماً، أين أخفيت الخزانة فانك كنت تمزح بالتأكيد؟

فتضاحك سانغين:

- الخزانة! لم أكن أعرف اننا نملك خزانة فعل الامير!

أوقفته بيبي زينب بحركة من يدها.

- لا تضحك بصوت عال هكذا. والدك تعبان، والسبب انت... فلم تماحك معي؟ أنت تعلم جيداً يا بني اننا اسمينا القطة التي نجمع فيها النقود خزانة... فأين هي؟ لقد بحثت عنها في جميع أرجاء البيت...

تظاهر سانغين بالدهشة.

- قطة؟ يبدو انكما نسيتما أنني لم أعد صغيراً ولا أصدق بعد الحكايات. ومن ذا يصدق أن قطة هربت من بيت وفي جوفها نقود...

- قطة من جبس، ألا تذكر يابني سانغين، لقد جعلناها حصالتنا...

- أنني أذكر الحصالة، ولكن أيستحق الأمر القلق حتى لو كانت قد هربت! انت نفسك قلت في التو أنكما وضعتما فيها عملات صغيرة. أم أن في جوف القطة ذهباً؟

- كان فيها أربعمئة روبل يا سانغين، اربعمئة ورقة... أنني أرى في عينيك أنك تعلم... لقد جمعت ذلك من أجل معطفك الشتوي.

- ماذا؟ أتتهمينني بالسرقة!

ارتبك سانغين بوضوح، وتحركت عيناه متهاربة، فيما نظر الى الستارة التي ينام والده وراءها، وأضاف:

- ذلك يعني أن القطة أغلى عندكما من ابنكما، حسناً اذن!

قال سانغين ذلك بلهجة وعيد، واستأنف:

– انني ذاهب. لسوف أحاول القبض على قطتكما الجبس!

ومضى بخطو متردد عبر الحجرة، واختفى وراء الباب.

أرادت بيبي زينب الاسراع وراء ابنها، غير ان صوت الزوج اوقفها:

– الى أين؟

فانخرطت بيبي زينب في البكاء.

– أسمعت؟ بلى، بلى، لقد أهنت ابننا فمضى عنا...

– اهدأي. أحكي لي ما حدث بالترتيب.

– ضاعت حصالتنا. لعل اللصوص أخذوها. أما أنا فقد اعتقدت...

وخنقتها العبرات فلم تعد تحتمل مزيداً من الكلام.

فقال الجد عاقل:

– كلا. كان اللصوص حملوا معهم شيئاً اغلى. ها هنا معطفك، وها هو معطفي... الساعة. اخشى الاعتراف ان ذلك من صنع يدي سانغين! ها قد حل اليوم الأسود الذي يخشى حلوله كل انسان شريف! لقد فجعنا يا زينب، فجعنا بابننا! أصبح يسرق. لقد شبت وتجاوزت الستين فهل حطت عيني يوماً على خير غيري!

– كل ذلك لأننا لم نعد نعطيه نقوداً.

– ما الذي تقولينه يازينب، تذكري! مرت علينا أيام أول زواجنا لم نجد فيها حتى الخبز، فهل مددنا يدنا الى الحرام! كلا، كلا!

Telegram:@qbooks2018

– أنه مازال صبياً، أحمق!

– اوخ، يا زينب. أي صبي هو. انه مسؤول عما يفعل. يجب أن يكون مسؤولا! ذلك هو القانون والشريعة...

وظل الوالدان العجوزان يتداولان الأمر طويلا مفكرين بما يجب عليهما أن يفعلاه، فيما حان أوان الذهاب الى العمل بالنسبة للجد عاقل، دون أن يستطيعا الوقوف على أمر محدد، فهل يعقل اللجوء الى الميليشيا فيكللا ابنهما، ونفسيهما، بالعار؟ بيد أن السكوت أمرّ وأدهى...

وفي هذه اللحظة رفس أحدهم باب السياج بقوة، فهرع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجوزان الى الباحة، ليريا ابنهما يسير أمامهما متمايلا، أشعث، غائم العينين. قطع بضعة خطوات كما لو أنه لم يرهما أو لم يتعرف عليهما... واذا به يتعثر، فيتهاوى على الأرض. فارتمى الاب والام في اثره، فيما الام تبتهل:

– ما الذي حدث لك يا بني؟

وقف الجد عاقل طويلا دون حراك، ناظراً الى ابنه باستفظاع واشمئزاز.

ثم أجبر نفسه أخيراً على القول:

– هيا يا زينب، أبحثي في جيوبه عل شيئاً تبقى فيها.

عثرت بيبي زينب على كومة من الأوراق النقدية محشورة في جيب البنطلون، ومن بينها واحدة من فئة المئة روبل تعلوها بقعة حبر.

فتمتمت بيبي زينب خلل دموعها:

– انها هي، من الحصالة! أنني أتذكرها... ما الذي علينا أن نفعله؟

داس الجد عاقل على قلبه، وساعد زوجته على انتشال ابنهما الى الحجرة. ثم مضى الى المدخل دون أن ينظر لزوجته.

ولأول مرة خلال أعوام عديدة مضى الجد عاقل الى عمله دون تناول فطوره، سار في طريقه أسرع من المعتاد دون أن ينتبه لملاقيه أو يسلم على معارفه وجيرانه. وشفتاه تتهامسان:

– ياللعار! يا للعار! لن أترك هذا هكذا.. لن أسمح!

* * *

سدرت بيبي زينب في أفكارها.

مضى زوجها الى العمل، وابنها نائم. وجهه شاحب وتحت عينيه كدمات زرقاء، فكيف لا يشفق عليه! الليالي ينامها، والنهارات يهيمها في المدينة، فهو يبحث عن شيء اذن، وروحه لم تطمئن الى أمر...

كانت بيبي زينب قد سمعت من قبل أن الناس يشربون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسبب شعورهم بالتعاسة، وبعضهم يفعل ذلك حتى الانهاك، حتى الجنون. فهل يعقل أن العقل قد فارق ابنهما لسبب من الأسباب؟ فما هو ياترى هذا السبب الذي دفعه الى السكر، بل والى السرقة أيضاً؟

انها تتمعن في ملامح ابنها، فلذة الكبد: جبهته المنحدرة الناعمة، الخالية من أي حز. حاجباه الرهيفان كحواجب الفتيات، لايعقدهما تفكير بأمر الزاد والانفاق في الغد، خداه الشاحبان، ما الذي طرد منهما الحمرة؟ وهل عانى سانغين يوماً ما من الفاقة، أو ساطهما مرة سوط واحد من البايات الاثرياء؟

هكذا فكرت بيبي زينب دون ان تزيح نظرها عن وجه ابنها، فيما ارتسمت على شفتيه في نومه ابتسامة أطفال رقيقة، فبدا لها جد وسيم، فائق الرقة والعذوبة، مما دفعها نفسها الى الابتسام.

الا أنها شعرت بوخزة في قلبها في نفس اللحظة، فقد فهمت ما يدور ويحتدم في روح سانغين.

انها الوسامة، ذلك ما يكدر عليه الصفو، ذلك ما يفسد له الحياة. بلى، بلى، حتى الفتيات قد يصبحن تعيسات بسبب جمالهن، اذا اعتقدن أن ذلك هو الأهم في الحياة ونسين أن الجمال لا يعطي شيئاً ذاته بذاته. فالجمال ليس خالداً، لكن العقل أبداً معك حتى القبر!

ان الجد عاقل لم يولد جداً، ففي طفولته دعي أيضاً عاقل جان، وكان وسيماً جداً، غير أنه فقير، فصرف كل وقته وقواه من أجل اكتساب الرزق، حتى أنه لم ير نفسه في مرآة حتى بلوغه عامه العشرين. وكانت أول مرآة له انما هي عينا الشابة زينب.

ورث سانغين عن أبيه وسامة الرجال، والافضل لو أنه ورث عنه حبه للعمل، وأما الطفل اللطيف فقد كان يدلل لا من قبل والديه حسب، بل ومن قبل الجميع أيضاً. حتى أن عابري السبيل كانوا يرفعون أيديهم انبهاراً، ويمسدون على رأسه، ممتدحين وسامته دون مواربة.

كان ذلك جالباً للسرور لقلبي العمة زينب والجد عاقل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فافتخرا بابنهما، واستطابا بمنظر خديه الورديين، وحاجبيه الرهيفين، دون أن يخمنا انهما سيجعلاه بذلك ينمو محباً لذاته، تياهاً بها. وهكذا نشأ وترعرع خائر الارادة، خامل الحمية، سروره الوحيد التباهي بوسامته. فقد اعتاد على الانبهار بها...

ولكن، أ قيمة كبيرة لرجل لايمتدح الا لوسامته؟ وفكرت أمه مكلومة: «أيعقل أنه ما من سبب آخر بعد يستدعي المديح لابننا؟ كلا، كلا. هذا لا يمكن أبداً!»

فهي تعرف أن سانغين جان كان في صغره رقيقاً نبيهاً. ما أن يطلب أحد والديه منه شيئاً حتى يؤديه في الحال دون تذمر... اوخ، كان ذلك منذ أمد بعيد! وهل يحسن الآن الاعجاب من رجل ناضج لطاعته ورقته!

كانت بيبي زينب تتذكر وتشحذ ذاكراتها. عندما كان سانغين في الصف الخامس قال المعلم عنه أنه يرسم بصورة حسنة. «لكنه ينقص ابنكما مثابرة فهو يتعجل الانتهاء من رسمه لحمله وعرضه والتباهي به أمام جميع الصف!»

سانغين مرح، والفتيات في مجموعته يضحكن كثيراً، فملحه تعجبهن. فهو ليس أخرق اذن.

مسكينة بيبي زينب، أنها لراغبة جدا في العثور على فضيلة لابنها.

استطاعت أن تتذكر أن ابنها جلب الى البيت في العام الماضي شهادة تقدير لعمله الحسن بعد ذهاب كمسومولي صفه الى الكلخوز لجني القطن. مثل هذه الشهادة لم تمنح للكثيرين، بل لولدين حسب، وفتاة واحدة... ماذا كان اسم تلك الفتاة؟ أتكون تلك التي أحبها سانغين؟

فقد كان يحاول بذل أقصى جهده أمامها، وكان يفلح في مسعاه.

وهتفت بيبي زينب: «لقد فهمت الآن كل شيء! انه يعاني من حب خائب. فالفتاة رفضته لأنها لاترى فيه غير وسامته. ينبغي علي العثور على هذه الفتاة واقناعها بأن سانغين طيب، رقيق. لكنه الآن تعلق بشبان أردياء وراح يشرب لأنها ترفض الالتقاء به!»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن، ماذا بعد يمكن قوله لهذا الفتاة؟ ان ابنها طيب ورقيق حسب؟ هذا قليل.

وهنا تذكرت بيبي زينب هذا الأمر: لقد امتدح أناس أغراب ابنها قبل فترة وجيزة، أول أمس ربما، ليس بسبب وسامته على الاطلاق، ولا لرقته.

كانت انذاك في ضيافة صديقتها القديمة، فيما الرجال جالسون في الغرفة المجاورة يتحدثون بصوت عال، فسمعت آنذاك أحد الكبار في السن يقول عن ابنها:

– ما يزال سانغين فتياً بعد تماماً، ولكنه يبز غيره من المجربين. عنده عينان حاذقتان ويدان ماهرتان.

فأكد رجل آخر:

– بلى، يستطيع أن يكون لاعب بليارد رائعاً، فهو يمتاز بقوة الصبر والمثابرة!

فكرت بيبي زينب اذ تذكرت ذلك: «عينان حاذقتان، يدان ماهرتان، صبر، مثابرة، ... انها الصفات المطلوبة من الرجل. فآه، لو علمت تلك الفتاة! لو أمكن اخبارها بذلك! فقد تستطيع أن تنتشل ابننا من وهدته وتجعله انساناً! ولكن من هي، وكيف يمكن العثور عليها؟»

تقلب سانغين جان في تلك اللحظة في فراشه، ودمدم في نومه متأوهاً، دون أن يفتح عينيه:

– منورة! أيان تمضين عني يا منورة؟!

* * *

لم تضع بيبي زينب هذا الأمر على الرف. لم تنم طيلة الليل، بينما لازمت فراش ابنها طيلة الصباح، دون ان تستنفد كل قواها. فما أن سمعت باسم «منورة» حتى عقدت العزم على العثور على هذه الفتاة، لايضاح ان كان بالامكان الامساك بمفتاح قلبها.

تركت الأم ابنها في فراشه، وتوجهت الى جارتها سلامة هانم...

حالفها الحظ، فقد كانت سلامة هانم، عاملة مصنع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخبز القديمة، ذات النخوة وصبوح الوجه، في بيتها. كانت تشتغل ذلك اليوم في النوبة الليلية.

كانت سلامة هانم تعين بنصائحها وأعمالها دائماً النساء اللائي يتوجهن اليها، وقد فهمت حال رأت وجه بيبي زينب ان صاحبتها مدعوكة النفس، فقالت بمرح:

– أجلسي بيبي زينب أشربي الشاي وقصي علي ما الذي يضايقك ويسلب منك الهدوء...

جلست بيبي زينب على حافة المصطبة الطوف، ودفعت عنها قدح الشاي. فقالت سلامة هانم مبتسمة:

– هكذا! أنت لا تريدين حتى شرب الشاي عندي! ما الذي حدث؟ أم أنك ربما تخاصمت مع عجوزك؟

نظرت بيبي زينب الى صديقتها بقنوط جعل صديقتها تكف عن المزاح في الحال:

– أعلم، أعلم، ان أمر سانغين جان يقلقك! قصي علي ما عندك لعلي أستطيع اعانتك...

– أريد العثور على فتاة اسمها منورة، يبدو لي انها كانت تدرس مع ابني سانغين...

ثم افسحت المجال لدموعها وقصت بيبي زينب لصديقتها كل شيء فكرت فيه: ان ابنها عاشق متيم ولا سبيل الى انتشاله الا بالفتاة منورة حسب، وأضافت:

– انني لا أعرف هذه الفتاة، فلعلها شريرة أو هوائية. الا أنني أعرف أمراً واحداً بصورة جيدة، ان قلب وروح سانغين جان في يديها...

فهتفت سلامة هانم:

– مهلا، مهلا! ربما أستطيع ادخال الطمأنينة الى قلبك. ان منورة فتاة طيبة عاقلة. اخذوها بعد انتهائها من المدرسة للعمل في لجنة كمسومول المحافظة... بلى، انها هي المقصودة! لقد رأيتهما معاً... هي ومحروسك... بلى، من يحب مثل هذه الفتاة قادر على القيام بأى فعل...

أرادت بيبي زينب التوجه الى مركز كمسومول المحافظة في الحال، لتطلب من منورة، ترجوها، وتتوسل اليها ان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنقذ أبنها. بيد أن سلامة هانم لم تدعها تفعل ذلك. وقد قالت:

– لسوف نمضي معاً، لسوف أرافقك. الا أنه يحسن بك اولا شرب الشاي لتهدئي وتحدثيني عن كل شيء بالتفصيل. ثم نفكر فيما بعد كيف ينبغي التحدث الى منورة، فعلينا ان نفهم قبل كل شيء آخر، من المذنب في كل هذا. يحدث ان يضيع الفتى صوابه ويستسلم للشرب وكل ما هو رذيل ليس الا لأن فتاته لم تلتفت اليه...

فوافقتها بيبي زينب على عجل:

– هذا هو بيت القصيد، هذا هو بيت القصيد!

– مهلا، ويحدث أمر آخر: ان تترك الفتاة فتاها لان هذا يشرب ويختلط في صحبة أصدقاء السوء لا غير...

افصحت بيبي زينب مطأطأ الرأس:

– هذا ما حدث، هذا ما حدث!

سيطرت سلامة هانم على ابتسامتها بصعوبة قبل ان تفلت منها، قائلة:

– أترين؟ ان الامر ليس سهلا. هيا، لنفكر اولا كما ينبغي، ثم نقرر فيما بعد كيف يحسن بنا افتتاح الحديث مع منورة.

* * *

كانت منورة قد نالت قسطها من المعاناة أيضاً أثر انفصالها عن سانغين جان. غير انها في الحقيقة ما دخنت، وما تعاطت الفودكا لتسلوه، رغم صعوبة الفراق. وكانت منورة غالباً ما تتذكر أحاديثها الطوال مع سانغين جان. ما كانا يتحدثان عن حبهما، بل عن المستقبل، وهما الى جانب بعض. كان سانغين قد عزم على السفر، بينما اقترحوا على منورة العمل في لجنة كمسومول المحافظة. الا أن سانغين لم يسافر الى أي مكان، فراحا يتقابلان نادراً، فنادراً..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحكاية أن أم منورة وأخاها الأكبر، الذي تثق به منورة غاية الثقة، قد قدما شهادة مخزية بحق سانغين.

فقد قال أخوها ضاحكاً:

– أنصحك أن تبيعي ساعتك، وتهدي هذا الفستان الأصفر الجميل الى واحدة من صديقاتك. فان سانغين سيشرب بثمن اشيائك الحسنة ويخسره في البليارد في كل الأحوال بعد زواجك منه...

لم تلتفت منورة الى كلمات أخيها الواخزة. غير انها لحظت أثناء أحد لقاءاتها بسانغين، ان رائحة الفودكا كانت تنبعث منه، وان لسانه قد ثقل.

وفي مرة أخرى، كانت منورة خارجة بعد انتهاء عملها صحبة زملائها الجدد في العمل، فالتقى سانغين بهم. كان هو أيضاً صحبة زملائه الجدد، غير أنهم كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء، ويضحكون بصوت عال دافعين المارة عنهم. ولما لمح سانغين منورة القادمة توقف في مكانه وقد تضرج بالحمرة، لكنه لم يقترب منها، بل ولم يلق سلاماً عليها، أنما راح يوجه الى زملائها من لجنة الكمسومول نظرة عدوانية من رؤوسهم الى أخامص أقدامهم.

أرادت منورة الاقتراب منه، بيد أنه استدار عنها بعنف، ومضى الى الجهة المقابلة من الشارع.

وهكذا حل الفراق. كان ذلك صعباً على منورة. فكانت تتذكر سانغين دون ارادة و تتنهد بعمق. وقد لاحظ أخوها الاكبر ذلك فقال لاخته يوماً بحضور أمها:

– فكري يا منورة: لمن تسفحين تنهداتك... لا تنكرى ذلك. أنا وأمي نفهم ما أنت فيه: أفكارك مع سانغين. انسيه، ذلك أفضل! الرجل الذي لا يملك سوى الوسامة غير جدير بالحب. سانغين لا يعمل ولا يدرس، انما يجلس على رقبة والديه العجوزين. مثل هذا الشخص لا يستأهل غير الاحتقار... أنظري من هم رفاقه: السكارى والمقامرون والمشاغبون، صلته بهم لن تؤدي به الا الى الجريمة...

أم منورة أفصحت بدورها عما يساورها، بل أنها راحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقنعها أن الرجل الوسيم نادراً ما يكون انساناً طيباً. وقالت لها:

– انه خؤون، لسوف يخونك ليل نهار! وهو مدلل والديه ولسوف يبدو له دائماً أنك ربة بيت سيئة...

بذلت منورة جهدها لتنساه، لكن ذلك كان بلا طائل. وفكرت مرات أن الناس لم ينصفوه، فلا أمها ولا أخوها يعرفان كم هو عذب ولطيف – سانغين جان هذا أحياناً، دع عنك انهما لا يعرفان فصاحة سانغين اذا تطرق في الحديث الى المستقبل، فهو لم يكن يبوح بخبايا نفسه الا اليها وحدها، ووحدها حسب كانت تعرف طموحه الى ان يكون فناناً.. ورغبته في الذهاب الى موسكو أو لينينغراد للالتحاق بالمعهد هنالك...

أيمكن الركون اليه اذن؟ بالطبع. فان لسانغين المقدرة، وهذا ما لا ينكره عليه معلموه. ولكن المقدرة وحدها لا تكفي، فهي لا شيء بدون الرغبة في العمل، والمثابرة. فلم اكتفى بالكلام وحده ولم يعمد الى السفر لتحقيق نواياه واداء الامتحانات المطلوبة؟ بلى، ذلك لانه خائر الارادة ربما، ولانه نشأ مدللا...

سارت منورة في أحد الأيام عائدة من عملها عبر حديقة المدينة. كانت راغبة في الاختلاء بنفسها. فاختارت لنفسها دكة في ملء الاشجار، وجلست براحة مغمضة عينيها، تبحرت في أفكارها. بينما منحتها سقسقة الجدول، وهمس الطيور، وأنفاس النسيم الرخاء مزاجاً رائقاً أشعرها بالهدوء والسعادة.

كانت منورة ذلك اليوم جد تعبة، فقد كان سكرتير اللجنة قد ارسلها الى مصنع الطوب لاعانة الكومسومول هنالك. قد فكرت عن أهمية روح التعاون بين الزملاء، وعن كيفية دفع الناس في المنظمة للعمل بصورة جيدة...

وفي هذه اللحظة تناهى اليها صوت يناديها:

– مرحباً منورة جان! لقد سرنا لملاقاتك، وها نحن سعيدتان جداً بلقائك!

أجابت الفتاة وهي تثب من مكانها على الدكة عجلى:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– مرحباً!

اقتربت منها عجوزتان. احداهما كانت منورة تعرفها معرفة جيدة: انها سلامة هانم العاملة العجوز عضوة الحزب. أما الثانية فقد كانت منورة قد رأتها أيضاً، ولكنها لم تتذكر ايان أو اني.

وأضافت مرحبة:

– أجلسا رجاء، يسعدني تقديم أية خدمة لكما.

واذ لفظت منورة هذه الكلمات تضرجت بحمرة الخجل، فقد تعرفت أخيراً على ام سانغين، التي انحنت لها محيية.

* * *

لم تستطع بيبي زينب بدء الحديث في الحال. فقد نظرت بعيني ابنها الى الفتاة وفكرت ان مثل هذه المخلوقة المهذبة الهادئة العطوف لسوف تكون زوجة فاضلة. بيد ان فكرة سوداء خطرت لها في بالها بغتة: «من أجلها أضاع الولد رشده فانحرف عن الطريق القويم».

قالت بيبي زينب:

– المعذرة على الازعاج. ولكنني أود مصارحتك انني ووالد سانغين قد فقدنا السيطرة عليه تماماً منذ أن عهد ابننا بقلبه اليك... انت فتاة ذكية وتعلمين بالطبع مبعث قدومي اليك...

هزت منورة كتفيها قليلا كمن لم تفهم، بينما انطلقت بيبي زينب في كلامها بسرعة خشية أن تمضي الفتاة عنها دون أن تسمع لها حتى النهاية.

– عليك أن تفهميني أن كل فتاة تتزوج وتصبح امرأة فأما، فجميعهن يصبن بالقلق على ابنائهن... وانت وحدك الآن يا منورة تستطيعين انقاذ ابننا...

فاستفسرت منورة كأنها لم تخمن بعد مغزى الكلام:

– ما الذى حدث لسانغين جان؟ كنا صديقين في المدرسة، وكنا على رحلة واحدة نجلس، وها بنا نفترق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن كل في طريق. أنني لم أره منذ أمد بعيد. ما الذي حدث له؟ وهل هو مريض؟

– اوخ يا بنيتي لقد عشت دهراً في هذه الدنيا، فعيناك لا تستطيعان خداعي. أنك تعلمين بكل شيء لا أقل مني. كنت تلتقين بسانغين جان، وكنتما راضيين أحدكما بالآخر، وكان قلباكما قلبا يتجاوبان حتى لو فصلكما بعاد وفراق... فلا تهزي رأسك، انني عالمة...

فقالت منورة متفكرة:

– انك تعلمين ولكن لا بكل شيء. لقد فسخت صداقتنا منذ فترة طويلة. فمن غير المحتمل ان يكون لكلماتي تأثير بين على ابنك، وهو لن يسمعني...

هتفت الأم التعيسة:

– ماذا حدث؟ لم أشحت بوجهك عنه؟!

– أسأليه هو نفسه!

– انه لا يفصح لنا عن مكنونه، يعاني وحده ولمفرده، ويظل صامتاً مهما أطلنا السؤال عليه. أما اذا الححنا عليه خرج من البيت وعاد في وقت متأخر من الليل.

فافصحت منورة فعل الكبار تماماً:

– انه لا يضر سوى نفسه. فهل أنا مذنبة في أنه يفضل مصاحبة أصدقاء... – وهنا تصاعد الغضب في عيني الفتاة بينما واصلت بهدوء وقد سيطرت على نفسها بصعوبة – أصدقاء السوء. لقد قررت أن لا يكون لي معه شأن مطلقاً...

– ولكن ما الذي ارتكبه هو بحقك؟

فارتبكت منورة، وكررت:

– بحقي؟ بحقي؟ لا شيء بوجه خاص. غير انه لم يقم بفعل طيب أيضاً ازاء ذلك.. أبداً على العموم... فلم أستطع الاصطبار أكثر. فلماذا تعذلينني؟

رمت بيبي زينب نظرة الى صديقتها، فهزت هذه رأسها بطريقة غير ملحوظة. بينما علا صوت بيبي زينب، وقد تغطى وجهها بالبقع من شدة الانفعال، دون أن تجد مكانا ليديها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو ترى عيناها اين هي الآن. فالاشجار قد اندغمت في كل واحد، وراح قلبها يخزها.

– ومن هي هذه التي تعذلك، عساها ان لاترى نهارا طيباً!

لم تكن ترى بوضوح سوى عيني منورة الواسعتين، ووجهها المؤطر بشعر أثيث مموج. وواصلت مبتهلة اليها دون أن تنتبه لنفسها:

– جئت يا بنيتي العزيزة اليك ملتمسة المعونة، ارأفي بي وبوالده العجوز، لنذهب لانقاذ سانغين! لا تزعلي ياروحي ويا غاليتي عليه. لسوف يسير على الطريق القويم بالطيب، ولذلك بالطبع مطلوبة كلمتك، كلمة واحدة حسب فيدرس، فيعمل، أيان شئت... فهو يذكرك حتى ليلا في اطيافه. ليس في قلبه سوى الحب اليك...

عدلت منورة خصلات شعرها المتمردة، فأحست فجأة أن أصابعها ترتعش. بل انها كانت ترتعش كلية، دون أن تستطيع السيطرة على نفسها. لقد استدر وجه بيبي زينب الطيب، الذي عذبه الألم، تعاطفاً رهيفاً عندها تجاهها، فألقت نظرة على سلامة هانم، التي كان وجهها يحمل تعبيراً صارماً، بل وغاضباً. ورغم أنها لم تكن قد قالت شيئاً حتى الآن الا أن **مجرد حضورها** كان يقلق منورة. فهتفت الفتاة:

– انتما تنظران الي وكأني مذنبة... لكنني بدون حول. كلا، كلا! أينبغي علي أن أموت أنا أيضا اذا أصابه هالك!

نهضت منورة عن الدكة، غطت وجهها بيديها، خطت بضعة خطوات، ناوية الابتعاد. ولكن صوت سلامة هانم أوقفها:

– ايتها الفتاة! لا تتخذي قراراً قد تندمين عليه فيما بعد. **عودي**.. أجلسي ها هنا، الى جانبي، وحاولي أن تفهمي ما سوف أقول اليك...

تكلمت سلامة هانم بهدوء، وصوتها كان واطئاً. غير انه كان قوياً مسلطاً. فنظرت منورة دهشة اليها دون ان تجرؤ على رفض مواصلة الاستماع اليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تبدأ سلامة هانم حديثها في الحال، بل لامست كتف بيبي زينب أولا، ثم همست:

– لقد قلت كل شيء يا زينب، فاذهبي الى البيت، واهدأي. لعلي أستطيع أن أجلب لك أخباراً سارة.

نهضت بيبي زينب بتثاقل وصعوبة، وقبل أن تمضي عنهما وجهت اليهما نظرة ملأى بالدموع. ودعتهما بهدوء، وسارت الى بيتها ببطء.

التفتت سلامة هانم، بعد ان توارت صديقتها وراء المنعطف، الى منورة وابتسمت لها على غير انتظار، بسماحة ورقة:

– حسن أنها ذهبت الى البيت، أليس كذلك يا منورة؟

كانت منورة تنتظر كل شيء، الا هذه الكلمات، فأظهر وجهها دهشة لاحدود لها. وبعد برهة قصيرة، افصحت سلامة هانم:

– العجائز يكن قاصرات الفهم الى درجة كبيرة أحياناً... كيف لا يمكن رؤية انك لا تحبين ابنها!

فانفجرت منورة، وقالت بحدة تقرب من الخشونة، فيما عيناها تتلامعان والدمع يكاد ينبجس منهما:

– كلا، أنك أنت لم ترى شيئاً لأنني أحبه! أحبه، ولا أدري كيف السبيل لمعالجة أمري.

* * *

لم تكن سلامة هانم تنتظر الا هذا، فقد كانت على معرفة جيدة بطوايا الناس. وفهمت منذ بدء الحديث ان منورة تعاني لا أقل من بيبي زينب، والجد عاقل، وسانغين. أما الآن وقد فلت الاعتراف من شفتي الفتاة فقد تحولت سلامة هانم الى الجد، فتناولت يد الفتاة في يدها الدافئة الخشنة، وقالت:

– لا تبكي. هذه دموع كثيرة جداً بالنسبة لبداية حب.

فدهشت منورة ثانية:

– كيف هذا... بداية حب! لقد سمعت ماذكرته امامك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من انني قررت هجران سانغين الى الأبد. فماذا فيه لاحبه؟ لا شيء على الاطلاق! هذا ما يقوله جميع من يريد لي الخير.

– بنيتي المسكينة، أحقاً أنك لا تعلمين بان الحب الحقيقي لا يستدعي كثيراً من الاسئلة! سانغين جان مدلل والديه، عنود، وذو كبرياء. ولكنه يترنم باسمك في منامه... لقد تحدثت مع البعض من زملائه وفهمت انه لم يسافر الى موسكو للدراسة بسببك...

فهتفت منورة:

– بسببي! أيعقل أن يكون هذا حقيقة! بسبب انني رحت أعمل في لجنة الكومسومول فلم أعد أستطيع السفر معه؟

– وهل قلت أنا: بسببك؟ كلا، ليس بسببك، بل بسبب الحب الولهان المضطرم في قلبه. أسأليه، فهو نفسه لايعرف ربما ماذا دهاه. انه يحبك بالطبع، يغار عليك، ويخشى فقدانك... وهو اذ رأى انك قد أشحت بوجهك عنه، فانه عازم الآن على دحر عواطفه... فهو لا يعرف، ربما أحببت أنت غيره.

استمعت منورة الى سلامة هانم كالمسحورة، اذ لم يسبق لأحد أن تحدث معها بمثل هذه الصراحة. فهتفت الفتاة:

– كيف هذا؟ وهل أستطيع أنا الفتاة أن أكون البادئة في مصارحته بحبي؟ أم أنه يحسن بي أن أجري وراءه وأنا التي تعمل، ولها أشغالها. فما شأنه هو اذن؟ انه لا شيء الآن على الاطلاق.

– بلى، أنه لا شيء على الاطلاق.

أكدت العجوز سلامة هانم ذلك بطريقة جادة ذات مغزى جعلت منورة تجفل، فيما استأنفت:

– ولكن، قولي لي انت المتعلمة المشتغلة الشابة في الكومسومول: كيف حدث أن وجد في مدينتنا شبيبة يقال لهم بأنهم لا شيء على الاطلاق، ها؟ فكري، وهاتي لي الجواب!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت عينا سلامة هانم تنظران بالحاح الى الفتاة. فلم تجد منورة ما تقوله. فواصلت المرأة العجوز:

– تصمتين، اذن أسمعي فلسوف أقول شيئاً آخر بعد. لقد رأيت أم سانغين. أما أبوه فهو عامل، محترم في المدينة، نساج. أما ابنه فلا شيء على الاطلاق، لكنه أنهى المدرسة وفي يده ورقة تفيد بأنه بلغ سن الرشد، ولكن، حتى الناس الرواشد قد ينزلقون ويقعون في الخطأ اذا ما تركوا معزولين، والجميع ليس في منأى من ذلك. سانغين لم يعثر بعد على عمل يلائم هواه، ولم يلتحق بعد بمدرسة عليا، فنساه الجميع. واذن، راح الفتى يبحث عن آخرين في مثل حاله، لا يرفعون انوفهم في وجهه، انما يعاملونه معاملة الند للند... امه تقول. انه اثبت في وسطه الجديد ان بالامكان الاعتماد عليه، وان بمستطاعه تحقيق هدفه...

وحكت سلامة هانم لمنورة مبتسمة كيف ان سانغين يبز حتى الكبار في لعبة البلياردو، واستفسرت:

– هل تتواجدون انتم كوادر الكومسومول في مثل هذه «المباريات»؟ هنالك من الشبيبة عدد كبير، والكومسومول يشغف بها أيضاً، الا انهم ينسون لسبب ما قرب موائد البلياردو أنتمائهم الى الكومسومول. فلم؟ لأن المهمين هنالك انما هو الحماس من اجل الربح، فاللعب يجري بنقود!..

فقالت منورة فاتحة عينيها دهشة:

– لم أكن أعرف شيئاً عن هذا أبداً.

– الناس الاراذل، الارذياء، يقل عددهم يوماً فيوماً، الا أنهم موجودون الآن بعد. واذا نحن رمينا أحداً ما الى عبث الاقدار فأنه سوف يقع تحت تأثير أصدقاء السوء. ألم تفكري بهذا يا بنيتي العزيزة، وهل جهلت أمره؟

اسبلت منورة جفنيها، مثل هذه الأفكار لم تخطر يوماً في بالها من قبل. انما كانت تعرف حسب ان الاراذل والمجرمين موجودون، واذا تحول احد الطيبين الى الشر ينبغي الكف عن مصادقته. هذا ما علمته لها أمها، وهذا ما كان اخوها الاكبر يقوله لها، أما أبوها الشيوعي فقد استشهد في الحرب، فلم تتح لها فرصة للاسترشاد بنصحه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– انت نفسك قلت انك تحبين سانغين، وأن أهواءك مصطرعة. وهو لا يليق بك الآن بالطبع، بلى، ذلك صحيح، ولكنه ليس فتى شاباً حسب، بل هو من الكمسومول، وزميلك في المدرسة الذي تخليت عنه...

قبلت سلامة هانم منورة وهي تودعها، وقالت لها هامسة في اذنها بمكر، مستعيرة لها ابتسامة من عهد شبابها:

– لا تظني ان الحب يسمح لك ابداء الطلبات حسب، انما يجب أيضاً الذود عنه، ومد يد العون. والا اي حب هذا...

* * *

نحن لا نعلم كيف تصرمت بقية النهار بالنسبة لمنورة، الا أنه أصبح معلوماً أن سانغين عاد الى البيت في اليوم التالي في وقت متأخر كعادته. وكان والده قد نام. بينما فهمت بيبي زينب من وقع خطاه ان لابنها مزاجاً رائقاً. فقد كانت مشيته خفيفة، فكأنه يطير على أجنحة. وقبل أن يخلد سانغين الى نومه نظر في عيني أمه، ثم قبلها على كلا الخدين... لم تفح منه رائحة شراب، ولم تكن يداه ترتجفان. انما هتف قائلا:

– اماه، اماه! لو تعلمين ما في قلبي من حبور! لقد استدعوني، ووعدوني، وكانت هنالك فتاة لا تعرفين شيئاً عنها...

– الى اين استدعوك وبماذا وعدوك؟ قل لي يا بني. انني لا أفهم شيئاً.

– غداً يا اماه، غداً. علي الآن أن أنام.

أما في الصباح فقد كان سانغين قد اختفى من البيت حين استيقظت أمه ومضت لاعداد فطور أبيه. وقد أقلقها هذا الى حد ما، لكنها استطاعت منع نفسها من ايقاظ زوجها. وعندما استيقظ الجد عاقل حكت له بيبي زينب عن حديث الامس مع ابنها، وعن خروجه المبكر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن الغريب ان الجد عاقل لم يدهش ولم يقلق، بل اغتسل بهدوء، ارتدى ملابسه، ومشط لحيته، ولم يفصح القول الا أثناء تناوله الشاي:

– لم أقل لك شيئاً أمس، الا أنني أخبرك الآن بكل شيء. أتذكرين انني حلفت في ذلك الصباح النحس بأنني لن أترك تلك الفعلة دون اتخاذ اجراءات. لم أكن أعلم أي اجراءات علي اتخاذها، لذلك مضيت الى المنظمة الحزبية، هنالك نصحوني بالتوجه الى منظمة الكومسومول.

فضربت بيبي زينب يديها، كفا بكف، مستفسرة:

– كيف؟ أذهبت الى حيث تعمل منورة؟!

– منورة؟ أنني لا أعرف أية منورة.

– انها الفتاة التي تحب سانغين جان، كانت تدرس معه.

وراحت بيبي زينب تصف له مظهر الفتاة، ضفائرها، عينيها، مشيتها. فنبر الجد عاقل:

– صبراً، صبراً! انك لا تحسنين الاستماع شأنك شأن أية امرأة. أعتقد أنني رأيت منورة هذه. لكنها لم تكن بمفردها، كان هنالك عديد من الاشخاص... الافضل ان تستمعي لي بالترتيب... امس مضيت بعد العمل للبحث عن مقر الكومسومول، بحثت طويلا، ثم توجهت أخيراً الى رجل الميليشيا المناوب، فمد هذا يده وأشار لي، ولكني لم أفهم. وأعدت السؤال:

– تلك البناية ذات السقف الاخضر؟

أجاب:

– كلا، الأخرى المحاذية. ألا ترى الشبيبة يخرجون منها؟..

عيناي تريان لمبعدة، فلم أر الشبيبة حسب بل رأيتهم أيضاً يبسمون... وتعرفت من بينهم على... تعرفت على... أتستطيعين تخمين على من تعرفت وسطهم؟ كان ابننا سانغين جان هنالك! يسير صحبة الجميع ووجهه طافح بالسعادة والى جانبه فتاة، كتلك التي تصفينها.... لقد نسيت اسمها..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– منورة!

– ليكن منورة، وهل ثمة فرق في هذا؟ كان هنالك العديد من الشباب. وأنا لا أشك ان جميعهم كانوا صالحين، طيبين. ففكرت انذاك: «مادام ابننا سانغين‌جان معهم فلا خوف عليه أبداً». ثم استدرت لأعود ادراجي الى البيت. فدهش رجل الميليشيا.

– الى أين تمضي اذن أيها المحترم؟

فأجبته:

– لم أعد بحاجة بعد للذهاب الى المقر، لقد رأيت بعيني ان ابني قد بلغ فعلا سن الرشد... فماذا تعتقدين يا زينب، هل فهمني رجل الميليشيا؟

تنهدت بيبي زينب بعمق. الا أن تنهدتها لم يكن مبعثها مصاباً. كلا، بل تنهدت كانسان ظل يحمل ثقلا جسيماً فترة طويلة، ثم بلغ مبتغاه في نهاية المطاف، فآن له أن يخلد الى الراحة أخيراً.

١٩٤٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساتيم اولوغ زاده. ولد عام ١٩١١ في قرية وارزيق في عائلة فلاح فقير. عام ١٩٢٩ أنهى معهد التعليم التاجيكي، حيث عمل مدرساً للأدب التاجيكي فيما بعد. ثم عمل بعد ذلك صحفياً، سكرتيراً، ثم رئيساً لاتحاد كتاب تاجيكستان. شارك في الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١-١٩٤٥، عضو مراسل اكاديمية علوم تاجيكستان السوفييتية. بدأ حياته الابداعية ناقداً واختصاصياً في علم الأدب. ومنذ نهاية الثلاثينات أصبح المسرح والنثر في مركز نشاطه الابداعي. بنجاح واحد كتب مؤلفاته المستوحاة من التاريخ: (مسرحياته التاريخية «ردكي»، «ابوعلي ابن سينا» «سفير سيادته»، وملحمته الروائية «واصى» التي تصور انتفاضة الفلاحين عام ١٨٨٦ بقيادة الفلاح واصى.) وكذلك المستوحاة من حياة العصر الراهن (مسرحياته «في النار»، «الباحثون عن الكنز» قصته «الأصدقاء الطيبون»، «صباح حياتنا» وروايته «الأرض المتجددة» وغير ذلك.)

موت حافظ*

آه، ما أشد لواعج القلب اذ تشنف أغاني الحافظ العظيم شيفوجي اسماع المرء.

Telegram:@qbooks2018

تسمع في انشاده خرير الينابيع، هزيم الرعد، هدير موج البحر الصخاب، و ترانيم البلابل.

---

* حافظ – المغني، قارىء السير والملاحم – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد ذاع وشاع صيت منشد الملاحم من لاهور الى بومباي، ومن مولتون الى كلكتا. فكل من استمع اليه مرة امتلك لبه حتى الممات، اما كل من لم يسعده الحظ بتطييب السمع بغنائه فقد ظل تعيساً أبد الحياة.

يختزن قلب شيفوجي الكبير النبيل العديد من الأنغام والألحان، وتحفظ ذاكرته المدهشة عدداً أكبر من الأساطير والحكايات، وعلى العموم فان المنشد نفسه لكنز من الحكمة لا ينضب.

يتغنى الحافظ الجليل بأمجاد هندوستان ومآثر الشجعان من أبناء الوطن!

كانت الانتفاضات تعم أرجاء هندوستان، اذ تمرد الجنود الهنود* في دلهي، ميروت، باناراس، لاكناف، وكانبور، ونهض الهندوس والمسلمون جنباً الى جنب لخوض المعارك الدامية ضد الأجانب، فيما آزرهم الآلاف من أبناء المدن والفلاحين، وهكذا كانت الأرض تلتهب تحت أقدام الطغاة الانكليز.

لم تصدح أغاني شيفوجي بمثل ذلك الحماس الذي انطلقت فيه آنذاك، في أيام صيف عام ١٨٥٧ المفعمة بالتوتر والاضطراب والأمل.

قبيل شهر حطم ثوار كانبور بقيادة الشجاع نانا صاحب جيش الانكليز: حتى أن الآمر العسكري ويلر نفسه لم يخرج حياً من القتال، دون أن تنقذ هذا الجنرال العجوز، الذي لم يلق السلاح من يده طيلة خمسين عاماً في هندوستان، لا تجربته، ولا معرفته بفنون الحرب. وهكذا أصبحت كانبور المدينة الواقعة على نهر الكانج المقدس، والتي كانت من قبل في قبضة الانكليز القوية، حرة. فهي

---

* يجري الحديث عن انتفاضات عامي ١٨٥٧-١٨٥٩ التي أشعلها الجنود الهنود الخادمين عند الانكليز ضد التسلط البريطاني - **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن في أيدي الثوار، ترفرف فوقها راية دوله الحكم الذاتي – راية الحرية والاستقلال.

غداً، يبدأ نانا صاحب حملة جديدة، اذ سيقود فصائله لمواجهة عساكر الانكليز، التي تحركت الى كانبور من كلكتا، حيث ينتظر نشوب معركة مميتة، قد تقرر مصير قضية الدولة الجديدة المقدسة.

أمر القائد، عشية قيام الحملة العظمى، باقامة مأدبة كبيرة مقرراً تقضية النهار في المرح واللهو، راغباً التلذذ بالاستماع الى ألحان وغناء شيفوجي الفريد والتنصت الى ملاحمه الجديدة التي نظمها هذه الأيام. لم يكن هنالك أحد آخر غير شيفوجي يستطيع الهاب نفوس المقاتلين بالحماس، مما كان جد مطلوب الآونة بالنسبة لنانا صاحب نفسه، قواده، عساكره، وجنوده الشجعان.

وها هو شيفوجي ضيف نانا صاحب اليوم.

فعلى مدى بضعة كيلومترات بمحاذاة شاطىء الكانج العظيم، نهر الهندوس المقدس، امتدت المخيمات مبرقشة الألوان، متلامعة، مشعشعة في أشعة شمس تموز الباهرة، فيما الأفيال والجمال والأبقار والخيول تتحرك بين الخيام، وأذرع العربات مرتفعة الى أعلى، والارحال والسروج والعدد، ومختلف الأمتعة والأغراض مكومة على الأرض، والجنود الهنود يجولون بعمائمهم هنا وهناك. فكأن معسكر المحاربين أشبه بقافلة هائلة من الرحل.

كانت خيمة القائد الخضراء – الحمراء – البيضاء قائمة وسط المعسكر، مستقطبة الانتباه كطاووس بين سرب طيور، ترفرف فوقها راية خضراء – قرمزية، وأصوات حماسية تتناهى من داخلها، ممتزجة بموسيقى الغناء.

ان الخيمة لتشبه قصراً منيفاً، فهي واسعة، مكونة من سرادق عديدة، وأعمدة مذهبة، ويحميها رماح طويل القامة وقد استوعبت في ردهة الضيوف مائتين منهم دون ضائقة: الأرضية مفروشة بالسجاد المزركش، والخدم الأمناء يحملون الأطعمة في أوعية من ذهب، والفتيات ذوات الوجوه الجميلة ينقلن الأنبذة في كؤوس من البلور. بينما تربع نانا صاحب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على عرش ذهبي غير عال في مكان بارز، وقد قارب أو جاوز الأربعين من عمره، والى جانبه وريث العرش ماراتخي القائد الشجاع المحنك، وفي كلا الجانبين المستشارون والمرافقون والأصحاب.

بينما جلس الحافظ شيفوجي الى جانب، على مربع مغطى بالسجاد، وسط العازفين، منشداً ملاحمه الجديدة وقد تهدل شعره الطويل، وضفرت لحيته الكثيفة.

كان ينشد تلك الملاحم بانفعال عميق لا أعمق منه، وحماس في الروح لا أشد منه، صادحاً:

– التوت وتحطمت أغلال ظلم المئات من السنين! ورفع العبيد هاماتهم عاليا، فلتحيا الدولة المستقلة، فلتحيا الحرية! بالمكر سيطر الانكليز على هندوستان لا بالقوة، كما الأسد يقع في شراك الثعالب. أما الآن فقد تخلص الأسد من الفخ!

وتعالى صوت الحافظ:

– فيا ويلك من غضبه، ارتجف ايها الطاغي المحتل! الانكليز يبيعون الكفر، يشترون المأجورين، يبحثون عن خونة الوطن. لكنهم لن يعثروا هذه المرة لهم على ميرجعفر*. ولن يتكرر أبدا ماحدث في بليسي! – وهتف الحافظ مواصلا أنشاده – هنالك في دلهي يوجد قائد للثوار الأماجد هو الشجاع بخوتخوني، وفي لاكناف الرجل العليم والفارس أحمدشاه، وفي جيخانسي ابنة الهندوستان الجليلة البطلة لاكشمي باي، وفي الله آباد الجسور وثابت الجنان لياقة علي خان، وفي كانبور محقق الانتصارات نانا صاحب، حامل الويل والثبور للانكليز! تحت راية الدولة المستقلة يقاتل الهندوس والمسلمون كتفا الى كتف، فالهندوس والمسلمون انما هم اخوة. فليعش اتحاد شعوب الهندوستان، ولتحيى الدولة الجديدة أبد الدهر! لسوف تموت أيها العدو

---

* هزم الانكليز عام ١٨٥٨ البنغلاديشيين عند مدينة بليسي بسبب خيانة قائدهم العسكري ميرجعفر – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقير الوغد! فالنار ملتهبة من الكانج الى جامنا! ولسوف تحيلك الى رماد! فلا تبحث عن الخونة أيها الانكليزي الماكر الوقح. فهندوستان بلد الناس المخلصين، المتفانين في حب وطنهم!...

هكذا كانت الملحمة الجديدة لشيفوجي.

وما أن هفتت صيحات الاعجاب والثناء والاستحسان حتى ظهر عند المدخل جندي هندوسي، معفر الهامة بالتراب، جريح الرأس، مضمدا بخرق وسخة، ملوث الثياب بالدم، مسلحا بسيف قصير، حاملا خنجراً وراء حزامه، ومسدساً في قرابه. كان قادماً من المقدمة. توجه الى نانا صاحب، منحنيا مقدماً فروض الولاء:

– صاحب السيادة! لقد أرسلني آمري. لقد ظهر فصيل استطلاعي من الانكليز بالقرب من فوتيخبور، اشتبكنا معه في القتال وأسرنا منهم أربعة، أحدهم... – وهنا ألقى الجندي الجريح نظرة سريعة الى شيفوجي فلزم الصمت كأنه لم يعد قادراً على النبس بآخر كلمة عليه التلفظ بها...

فسأل نانا صاحب:

– أ أحدهم؟...

أجاب الجندي الهندوسي:

– بلى، يا صاحب السيادة، لقد جئت به معي. انه ليس انكليزياً بل هو هندوسي.

– هندوسي؟

– بلى. يا صاحب السيادة. أصيب جواده بطلاقة فسقط تحته، فاستطعنا الامساك به. لو سمحتم قدمته لكم.

سمح له باستقدامه، وجيء بالأسير.

وما كاد الأسير، الوسيم، الشاب، ممشوق القوام، مهترىء البدلة، منزوع السلاح، الحافي، أشعث الشعر، هلع العينين الواسعتين، يتجاوز العتبة حتى وثب شيفوجي من مكانه، وهتف بصوت عصف به الجزع والفزع:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– شنديب!

وتوجه اليه.

أخفى الأسير وجهه لحظة براحتى يديه. لم يستطع النظر الى أبيه في عينيه، فقد تبقت له قطرة الضمير كما يبدو في أعماق روحه.

بلى، كان الأسير الشاب، في البدلة العسكرية الانكليزية، هو شنديب نفسه، الابن الوحيد لشيفوجي.

كان شنديب قد درس في كلكتا، في الكلية الانكليزية، ولم يصل الى أبيه في كانبور وقت العطلة الصيفية لسبب ما.

أما الآن فقد اتضح الأمر وضوح الشمس: لقد أصبح شنديب جندياً مأجوراً...

تغير شنديب في الحال، فقد استحال وجهه الأسمر الوردي الى أصفر، فيما ارتخت ذراعاه وساقاه، فانحنى، وتمايل في الزاوية، ممسكاً بعمود، فخائراً جثا على الأرض.

حاول نانا صاحب وضيوفه عدم النظر الى الحافظ شيفوجي.

بينما طأطأ شيفوجي رأسه المكابر الفخور الى أسفل، ونظر الى الأرض بعينين كامدتين لم تعدا تريان.

«فلا تبحث عن الخونة أيها الانكليزي الماكر الوقح!» ترددت كلمات ملحمته في أذنيه لائمة سامة لكأنما تسخر منه. توجه الحافظ ببصيرته الداخلية الى زوجته الراحلة، وتحدث معها في خاطره:

«آواه يا رادخا، أتذكرين أية أحلام عذاب نسجناها حول ابننا الوحيد، واية مشاريع كانت لنا! ان ذكرى مصابك ما تزال تحرق في روحي بيد أني فرح الآونة – المعذرة – يا رادخا على رحيلك من هذه الدنيا قبل أن ترى عيناك ما فعله ابننا العار العاق. فكأنك كنت تعلمين ان مصاباً أكبر سينزل على رأسينا فقررت المضي سراعاً قبل أن تبصره عيناك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فما العمل الآن، وكيف يمكن احتمال هذا العار الأشد وقعاً من الموت؟ اواخ، لم خلفتني وراءك يا خدينة روحي؟»...

أستجوب الآمرون خلال هذا الوقت شنديب، الذي استطاع الوقوف بالكاد أمامهم، مختضاً، مرتجفاً. لم يكن عنده أي أمل بالرأفة، فودع الحياة في فكره، واجاب بصدق على استفسارات نانا صاحب. بلى، لقد تطوع دون اكراه جندياً مع الانكليز، فقد استبدل المجد المعلى في ميادين القتال بوعدهم تعيينه في منصب كبير بعد النصر. أنهى في كلكتا دورة قصيرة لتخريج الضباط. أما أمس فقد تقدم بنفسه الى المهمة الاستطلاعية. بلى، ان الجنرال هافيلوك يمضي الى كانبور على رأس جيش مسلح حتى اسنانه، فيه من الفرسان بقدر ما فيه من المشاة، بقدر ما فيه من المدافع والقنابل...

انتهى الاستجواب. وقرر نانا صاحب المضي في حملة ضد هافيلوك دون ابطاء. فأعلن آمراً قواده اعداد فصائلهم لبدء الحركة:

– غداً يفوت الأوان! ينبغي الطلوع الليلة اليهم. غادر القادة الخيمة على عجل.

ثم وجه القائد الأعلى بعد ذلك نظره الى شنديب الذي ظل واقفاً أمامه زرى الهيئة لا ازرى منه انسان. ثم ألقى نانا صاحب نظرة سريعة الى شيفوجي، وطأطأ رأسه، مصالباً ذراعيه أمام صدره، مربتاً بأصابعه المرصعة بالخواتم المتلامعة على ذقنه بمهل غارقاً في أفكاره، فيما الضيوف جمدوا في أماكنهم في انتظار حكمه على الخائن. كان على نانا صاحب الآن اعلان عقاب الموت العادل على الخائن، ولكن اصدار ذلك الحكم على الابن في حضرة أبيه قسوة ما بعدها قسوة، فهو يحب الحافظ شيفوجي ويرثى له، وهذا ما شعر به الجميع، والرجل الحافظ من غير ذلك كان على وشك فقدانه الوعي، فهل يستطيع قلبه العجوز تحمل هذه اللحظة الرهيبة اذ ترى عيناه سيف الجلاد تحتز رقبة فلذة كبده؟...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخيراً أفصح نانا صاحب البيان، قائلا ببطء:

– لقد أخبرنا الأسير معلومات صادقة ثمينة عن تحركات العدو. واني لآخذ في نظر الاعتبار ركونه الى الصدق، وكذا شبابه، فأعفو عنه.

جعل هذا القرار المباغت المرفوض الجميع مسربلين في الدهشة.

وهنا نبا شيفوجي على قدميه هاتفاً:

– كلا. انك لترأف أيها القائد، ولكني أرفض ذلك! على الخائن أن يموت. ان حكمي هو الحكم، وكلمتي سوف تكون الأخيرة. انني هنا أملك حقاً في القضية أكثر منك أيها القائد، مادمت أنا الذي وهبته الحياة. وأنا الذي يحق له استعادتها منه مادام لا يستحقها.

أفصح الحافظ عن ذلك وتقدم الى أمام بخطو متراخ: مد يده بالصلابة، واستل من قراب أحد المحاربين خنجراً ذا حدين، فاقترب من ابنه وهتف:

– انه لحرام قتل الابن، ولكن قتل الخائن بركة، وقضية مقدسة. أما اذا كان في قتل الابن الخائن حرام وخطيئة فأغفري لي أيتها الالهة شيفا!

أطلق أنيناً وغمد نصل الخنجر الحاد في صدر ابنه فتهاوى شنديب دون صوت تحت قدمي والده.

اما شيفوجي فقد ركض، والخنجر الدامي في يده، الى المدخل أشبه بمجنون، وجرى هارباً من الخيمة.

– خار – خار ماخاديف! – صرخ وجرى مندفعا بين الخيام ومجموعات الجنود والأفيال والجمال والأبقار والعربات وعدد الدواب... مواصلا صراخه:

– خار – خار ماخاديف! هندوستان! هندوستان! الموت للخونة! أنا شيفوجي! كفى غناء! كفى! ايه ايها الكانج التهب! خار – خار ماخاديف!..

ظل يجري مسافة طويلة تحت الشمس اللاهبة القائظة دون أن يوقفه أحد، حتى أن الأفيال والجمال والأبقار والخيول كانت تشيعه بنظرات مستثارة لاتفهم.

ألم به التعب أخيراً، فسقط على وجهه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هرع اليه الجنود الهندوس من كل مكان، وتحلقوا فوقه. كان الحافظ منكفئا على وجهه، **لا يصدر منه نفس.** وراحتا يديه المتباعدتين تهيلان رمل الشاطىء البليل. ولكن مقبض الخنجر اطل بادياً للعيان وقد غرزته الأصابع المبيضة عميقاً في الخاصرة.

... أحرقت جثة شيفوجي كما يقتضي العرف السائد... وذر رماده على موج الكانج المقدس، وأطلقت اثنتا عشرة قذيفة من اثني عشر مدفعاً. فقد ودع الناس الحافظ، الذي تعشقوا غناءه، كما يودع المحاربون الصناديد.

١٩٧٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خوجا صادق. ولد عام ١٩١٣ في مدينة كانيبادام، في عائلة حرفي. عمل في الكلخوز بعد انهائه المدرسة الموسيقية. ومنذ عام ١٩٣٦ عمل في الصحافة. بدأ النشر في الثلاثينات. يمارس كتابة القصة القصيرة بخاصة، الساخر منها والفكه، مما يتصدى بالنقد لتقاليد الماضي الرثة في واقع الناس ووعيهم.

ساهم في الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ – ١٩٤٥.

الحرفة الواحدة والاربعون

كان والدي المرحوم غالباً ما يستعين في كلامه بأمثال وحكم، من نوع: «أربعون حرفة قليل على الفارس»، «القوة في المعرفة لا في الثراء»، «أن تكون عالماً أفضل من أن تكون غانماً»، «الحرفة لا تطلب شراباً أو طعاماً لأنها نفسها تطعم». مما انحفر في بالي منذ عهد طفولتي، ويا لها من حكم: بامكانها أن تحرز، بخاصة الأولى منها، موقع الصدارة فيما لو أجريت مسابقة في هذا الشأن.

وكان والدي يقول:

– صحيح أن المثل يفيد أن تكون عالماً أفضل من أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكون غانماً، ولكن ان كان رأسك لا يتقبل العلم عليك الاهتمام بشغلة ما. القوة في المعرفة لا في الثراء. واذا استطعت: تعلم لك أكثر من حرفة، وحاول أن تكون ماهراً في جميعها. يقولون أن أربعين حرفة قليل على الفارس، واما الحرفة فهي لا تطلب شراباً أو طعاماً لأنها نفسها تطعم.

سألت والدي أحد الأيام:

– حسناً، ومن أين البدء؟

أجاب:

– حرفة الوالد أفضل ميراث، فتعلم أولا حرفة الطبخ ثم نرى بعد ذلك.

لكن حرفة والدي لم تكن تعجبني في الواقع: هنالك دائماً شيء ما ليس على مايرام. فأولا، لا تستطيع أن ترضي جميع الأذواق: اذا كان الملح قليلا أصابك لوم الناس، واذا كان معتدلا جاءك اللوم من غيرهم. وثانياً، روائح الأطعمة. فهذه لا تعلق بملابس المرء وحسب، بل ويتشبع بها وجوده كله، ثم حاول أن تقترب مع هذه الرائحة من حبيبة القلب، أتراها تلتفت اليك وتحدثك؟ كلا، لسوف تشيح بوجهها عنك حالا. علاوة على ذلك عليك الذهاب الى السوق يومياً، تكسير الاحطاب، تأجيج النار، غسل القدور، وما الى ذلك مما ليس له حصر. فهي ليست حرفة اذن، انما آفة تلتهم الحياة. هكذا فكرت آنذاك.

كنت راغباً يومئذ أن أصبح بهلواناً يسير على الحبال أو عازفاً على آلة السورناي*، فقد بدت لي تانك الحرفتان خاليتين من المتاعب والمشاغل، متعة حسب ولا أكثر... آلاف المتفرجين والمستمعين يصفقون لك، ولا يمر عيد من غيرك.

ولكن ما العمل: لقد قيل قديماً: «ارادة الوالد من ارادة الرب»، فكتب علي الوقوف أمام القدور ثلاثة أعوام الى جانب والدي تعلمت فيها اعداد «البلوف» بشكل جعل الناس

---

* آلة موسيقية تشبه المزمار – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يأكلون دون أن يبلغوا شعوراً بالشبع. وكانوا يقولون لوالدي: «عندك متدرب يده من ذهب يا أسطى». وكان ذلك المديح يعجبني بالطبع، وسعادة أيضاً بالنسبة لوالدي، الذي قال:

– ها قد وضعت أول طابوقة لصرح مستقبلك الزاهر، فهيا يابني ضع بقية الطابوقات. لسوف أسلمك أولا الى يدي الأسطى ديهقانباي، فما أن تتقن صنع الغزول، حتى تتحول الى النجار غاداباي، ثم الى الرسام نعيم، فالنقاش سليم، فالحلاق سانغين، فاللحام قول محمد...

باختصار لقد ذكر والدي أربعين حرفة: بالتمام والكمال! أما أنا فقد كنت أستمع اليه وأفكر أنني ان تعلمت بعد العزف على السورناي، فذلك سيكون الحرفة الواحدة والأربعين. الواحدة والأربعون، أليس كذلك؟ أه، ما أشد شطارتك، ياشرف!» هكذا كنت أمتدح نفسي بنفسي منبهراً بها.

بيد أن فكرة واحدة كانت تقض مضجعي، ألا وهي: أتراني أجد الوقت الكافي لتعلم كل تلك الحرف، وأنا الذي ضيعت ثلاثة أعوام في تعلم حرفة الطبخ حسب؟ فاذا ضربنا ثلاثة أعوام بأربعين حرفة يكون الناتج مائة وعشرين عاماً. وها لي الآن سبعة عشر عاماً من العمر، وأذن سأكون – بعد الانتهاء من تعلم تلك الحرف – في المائة والثمانية والثلاثين... وهذا عمر فاخر بالطبع، ولكن متى سيتسنى العمل لي، والعمر سينقضي كله في التعلم، ومن يعلم هل سأعيش حقاً هذا العمر أم لا؟

باختصار كان هنالك موضوع لتصديع الرأس. الا أنه اتضح لي فجأة انه ما من داع لاضاعة ثلاثة أعوام بالذات لتعلم كل حرفة، فلم لايتم ذلك في عامين؟ أو في عام واحد مثلا؟ بل وتعلم حرفتين في عام واحد؟ وهل يقضي هذا الأمر على انسان؟ هل هنالك من يستطيع منعي عن ذلك؟ لا أحد! «وأذن، عليك المثابرة هكذا» – ذلك ما قلته لنفسي في نهاية المطاف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبلني صاحب والدي، الأسطى ديهقانباي، متدرباً عنده بكل سرور. وكانوا يطلقون عليه كذلك «صانع الأعاجيب» فقد كان ديهقانباي يعمل بكل مهارة وحذق وسرعة، وهذا ما حاول فيما بعد تعليمي اياه، فعاملني كما يعامل الأب ابنه. وقد احسست ذلك بخاصة بعد موت أبي. وأما حرمه الخالة جولشان، فلم تكن تناديني الا بـ: «يابني» وليس الا أفضل قطع الطعام كانت تفردها لي أثناء الغداء. بل وكان الأسطى نفسه يعتبرني خلفاً قميناً لأن أكون واحداً من أفراد العائلة وكان يقول:

– لو تخليت عن عادتك السيئة لأمكنك أن تكون حرفياً حقيقياً، لك يدان ذهبيتان.

كان الأسطى يقصد بـ «عادتي السيئة» ما أفعله حال غيابه عن الورشة: اذ كنت أغلق بابها مباشرة، وأجري لألقي نظرة على الراقصين على الحبال، أو لاتلقى درساً عند المعلم سلطان عازف السورناي، وهكذا كنت في وقت واحد أتدرب عند أسطى ديهقانباي وأتعلم العزف على السورناي. ولكن أسطى ديهقانباي لسوء حظي لم يكن يطيق السورناي أبداً. فكان أن أنذرني أكثر من مرة: «حذار الاقتراب من بيت المعلم سلطان عازف السورناي والا كسرت لك ساقك». وأنا أتحصن بالصمت، تاركاً وعيده يدخل في أذني ليخرج من الأخرى.

الا أنني، وفي أحد الأيام، رأيت الأسطى حائراً متلبكاً. فال لي:

– لاتبتعد اليوم أبداً الى ايما مكان. لسوف أترك الورشة والبيت عليك. نحن ذاهبون لزيارة والدي العجوز فهو متوعك تماماً. واذا لم أعد حتى المساء غداً عليك الالتحاق بي، فهمت؟

– بلى، أسطى.

– لن تنسى؟

– لا، أسطى.

غادر أسطى ديهقانباي صحبة زوجته الى غايته، أما أنا فقد فكرت: وماذا في ذلك: لسوف أمضي الى المعلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلطان لأعزف قليلا فانعش روحي، ثم أعود بعد ذلك فأهتم بأمر الشغل: هذه المغازل اللعينة لن تهرب في كلا الأحوال الى أي مكان.

وكان ذلك ما فعلته: وما أن أمسكت بآلة السورناي بين يدي حتى نسيت الدنيا وما فيها.

مرت ثلاثة أيام، وأنا انتقل صحبة المعلم سلطان من حي الى حي، عازفين على السورناي في الأعراس وحفلات الناس. وفي اليوم الرابع وصلنا محلة بعيدة، قطعناها بيتاً بيتاً ولكننا لم نصادف ثمة أي حفل، لكأنهم أقسموا في هذه المحلة ألا يقيموا عرساً ولا يلدوا طفلا.

لم يكن عندنا هنا ما نفعله، فمضينا في سبيلنا: أرجلنا تئن، ومعدنا تقرقر، وجيوبنا خالية ليس فيها ما يعيننا على شراء رغيف خبز وقدح شاي. وفجأة صاح المعلم سلطان فرحاً:

– قف، قف! انظر الى تلك البوابة، أرايت؟ يبدو أنهم انتووا اقامة حفل كبير ها هنا، فالبوابة مفتوحة على مصراعيها، ليس الا لاستقبال الضيوف. وها هم أولئك الناس هنالك ينتطرون. فهيا، هيا اسرع! انني قادم وراءك. عجل أيها التنبل!

سيطر الفرح علي أيضاً، فجريت. ومن غير أن انتبه للوجوم المستولي على وجوه الناس الواقفين عند البوابة، دلفت عبرها، ورحت أعزف على الآلة. عزفت من كل قلبي. بيد أني ما أن أنهيت وصلتي الأولى حتى ألفيت اسطى ديهقانباي واقفاً أمامي، لكأنه أسد مستثار، مقضقض الاسنان، ملتهب العينين. انتزع الاسطى آلة السورناي مني، فقذف بها الى السقيفة. ثم، ما أن أهوى بيده على خدي حتى هدرت الشياطين في أذني، وكمد النور في عيني، فخررت صريعاً في مكاني. لا أذكر سوى أن أحدهم قال:

– هذان المتبطلان الأخرقان لايعرفان التمييز بين العرس والمأتم.

هكذا قدر لي الافتراق عن أسطى ديهقانباي، وكذا عن المعلم سلطان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم كتب لي بعد ذلك الالتقاء بالحلاق سانغين.

كان هذا الرجل عجوزاً، ممتعضا أبداً من كل شيء، عصبياً، نفوراً. اذا حدت عن أمر شعرة، أو هفوت هفوة، عليك توقع دمدمته، بل ولومه، نهارين وليلتين، وربما أكثر. ففهمت معه جيداً فائدة وسعادة أن تكون للمرء اذنان: واحدة يدخل فيها الكلام، والثانية ليخرج منها. فلو كانت لي أذن واحدة لانفلق رأسي منذ زمن بعيد، لعدم احتماله احتواء كل هذر الحلاق سانغين.

بعد مرور شهرين قدر لي أن أحلق رأس أحد العجائز. وكنت لم أفلح بعد بمد يدي الى رأسه، عندما سمعته يعول مذعوراً:

– اوخ، اوخ، اوخ! ماذا، أتحلق رأسي أم تنتزع فروته؟

فأخذ الحلاق سانغين فرشاة الحلاقة من يدي في الحال، واقتادني الى عتبة الدكان، رفسني على مؤخرتي، وقال:

– أنقشع! فاستحقاقك ايها الأحمق أن تكون عازف سورناي متشرداً وليس انساناً.

ففكرت:

– لقد أصبت عين الصواب. خير لي أن أكون عازف سورناي ومتشرداً من أن أكون انساناً على شاكلتك.

مضيت الى اسطى نعيم الرسام، فاستمع لي بانتباه. لكنه قال:

– لكي تكون رساماً عليك أن تحلى بالموهبة، وسرعة البديهة والصبر وكذلك عليك أن تحب عملك.

أجبت:

– لسوف أحبه يا أسطى، واما سرعة بديهيتي فوالدي المرحوم كان يمتدحها، وأما الموهبة فقد قال انها موجودة عندي، وكذلك الصبر. وكان يقول: «اذا قبل رسام مشهور كالاسطى نعيم تعليمك الحرفة فانك ستصبح فناناً جيداً».

فقال الأسطى نعيم الرسام:

– وماذا في ذلك، انني موافق على تعليمك.

في البداية لم يشبع الأسطى سروراً من وجودي معه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ما أن يتنحنح أو يتململ – حتى يتلقاني في الحال بتهليلتي المعهودة: «بلى، أفندم؟» فكان يتباهى أمام أصدقائه بأنه عثر أخيراً على من يعهد بفنه اليه عن طيب خاطر.

ولكن ما ان مر شهران حتى رحت ألعن ذلك اليوم الذي قررت فيه وضع نفسي تحت أمرة الأسطى الفنان. فقد كنت كمن استجار من الرمضاء بالنار: فيما تبدت تلك الحرفة جد صعبة: فلكي تنتهي من رسم زهرة عليك أولا اهدار عرق الجبين واستنزاف دم القلب، علاوة على دمدمة الأسطى الذي كان يجيدها أفضل من الحلاق بكثير، فاذا رسمت خطاً لا كما ينبغي أو وضعت الاصباغ أثخن مما ارتأى الأسطى عليك أعتبار أن يوم الحساب العظيم قد حل: فهو يبدأ تقاسيمه كالآتي:

– أيها المتبلد الأحمق الأخرق، أعندك أصابع أو مجرفة؟ انك لن تصبح بمثل هاتين اليدين حتى مدلكاً!

وفكرت: «اذا كان اليوم ينغص علي عيشي فماذا تراه فاعلا غداً؟ انه لا يعهد لي الآن سوى بالتلوين، فما الذي سيجري اذا بدأت الرسم بنفسي فيما بعد؟ كلا، الأفضل نفض اليدين من هذا الأمر قبل فوات الاوان». فقلت له في أحد الأيام المشهودة:

– المعذرة ايها الأسطى المحترم. يبدو انني أخطأت: لن أصبح رساما. فأرجو أن تطلقني لحالي.

أجاب الأسطى:

– مع عظيم الرضى والسرور، فانك لن تصبح رساماً حتى في أربعين عاماً. اذهب الى حليم الحلوجي للتعلم بين يديه، فلعل ذلك يفيدك في شيء.

أثرت بي الكلمات كثيراً، وفكرت: «صبرا لي، لسوف أصبح أسطى أيضاً حاذقاً ماهراً، فعندي يدان ذهبيتان، ولسوف يأتيكم خبري في يوم ويصيبكم بالدهشة»، ثم هرعت لتلقي أصول الحرفة عند سليم النقاش.

ولكن، للأسف كان سليم النقاش قد مات قبل يومين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من وصولي الى مكانه. كان المرحوم اسطى جيداً، مشهوراً في المنطقة كلها. بلى، لم يحالفني الحظ هاهنا. لا والأنكى أن اللحام قول محمد قد أغواه العلم فمضى الى الكلخوز بعدما أصبح طبيباً بيطرياً، وكذا النجار غاداباي الذي ذاع صيت مهود الأطفال التي كان يصنعها في جميع الأرجاء، فمضى بدوره الى مصنع الموبيليات وانضم الى عماله. وعادت الى ذاكرتي آلة السورناي من جديد، اشتقت اليها، وما العمل؟ لقد كانت حلم صباي، شغفي، وهواي!

وقد دهش العازف سلطان لمرآي، واستقبلني ببرود قائلا:

– أية ريح جاءت بك الى هنا؟ اما زلت تجوب الافاق؟

سأل ذلك، وصمت. ثم أضاف بأنه يعمل الآن في مسرح الدمى لأنه لم يعد راغباً التجول بين الزفاف والحفلات مثل المكادي. واستفسر:

– وأنت؟ أما تزال تعيش كالسابق: معلقاً بين الأرض والسماء، تأخرت عن شغلة ولم تلحق بعد بأخرى؟ أنت تهدر وقتك عبثاً يا أخي، فحكمة سبعة أشخاص أرخص من تجربة شخص واحد، دع عنك ان هذا الشخص يجيد شغلته. ولكن الاوان لم يفت بعد فاذهب لتعمل بستانياً في كلخوز أو راعياً في سفخوز...

أرأيتم كيف كان يتحدث معي، وكيف ينصحني، أنا ذو البخت الضائع الذي تقلب بين سبع صنائع! لقد اقترح علي اذن العمل بستانياً أو راعياً! ها؟ وفكرت: «أسرد حلمك اذن على أسماع الماء يا عازف السورناي المنقرض. أما أنا فصبراً لي، لسوف أصبح أسطى أيضاً ماهراً حاذقاً، فلي يدان ذهبيتان لم يخطرا لك في خاطر. لسوف يأتيك خبري...»

ولكن الحظ اذا ساء احترق السيخ مع الشواء، فحيثما كنت امضي طلباً لتعلم حرفة كانوا يقولون جميعا وكأنهم اتفقوا على صوت واحد:

– الشجرة تنبت في مكان واحد، فأعثر انت أيضا على مكانك. لقد تجاوزت عمر تعلم حرفة، فالأفضل...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد فهمت نفسي ما هو الأفضل. وأمس احتفل زملائي في العمل بمناسبة مرور ربع قرن على بدء حياتي العملية. بلى، لقد مضى ربع قرن مذ أصبحت طباخاً من جديد عاملا في هذه المهنة حتى اليوم. أعلن في الجلسة الاحتفالية قرار وزارة التجارة القاضي بمنح رئيس طباخي مطعم مصنع الحرير شرف شرفوف لقب «الشغيل السوفييتي الممتاز» ومكافأته بشهادة تقديرية... وها عندي الآن ميدالية «التفوق في العمل» ووسام «الشرف التكريمي» فآه لو نظر الي الآن سلطان عازف السورناي ونعيم الفنان وسنغين الحلاق. أما والدي المرحوم والاسطى ديهقانباي فلعلهما ما كانا ليشبعا سروراً مما كان، ولربما كانا ناداني بـ «حضرة رئيس الطهاة» حالهما حال عمال مصنعنا الذين ينادونني هكذا...

بلى، ولقد ودعت ابني مؤخراً الى موسكو، فقد انضمّ الى معهد الأغذية الصناعي. وقد أمرته:

– أدرس يا بني، وامتلك ناصية الصنعة، فان تكون عالماً أفضل من أن تكون غانماً. وأربعون حرفة قليل على الفارس!..

١٩٧٠

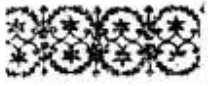

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاتح نيازي. ولد عام ١٩١٤ في سمرقند، في عائلة موظف. أنهى عام ١٩٢٩ المدرسة التربوية في سمرقند، وفي عام ١٩٥٠ معهد (نظامي) التربوي في طشقند. بدأ حياته العملية كصحافي، وفي بداية الثلاثينات تحول الى الأدب كشاعر. في النصف الثاني من الثلاثينات يركز في عمله على النثر والمسرحية. وفي عام ١٩٤١ تطوع في الجيش الذاهب الى الجبهة، وساهم في الدفاع عن موسكو، وفي معركة ستالينغراد.

موضوعة الحرب الوطنية العظمى تشغل مكان الصدارة في أعماله وكرس لها روايته الملحمية «اخلاص» «لا تقل أن الغابة خالية» قصته «أناس ولقاءات» ودراماه البطولية «الجسر»، وأقاصيص. حائز على جائزة فادييف الأدبية، وجائزة الدولة لجمهورية تاجيكستان السوفييتية باسم ردكي.

عرس

حدث هذا بالقرب من ستالينغراد عشية عام ١٩٤٣ الجديد. مد أندريه سيماكوف يده لي، حاملة ورقة، وقال:

— يدعوننا لحضور عرس، هاهي بطاقة دعوتك.

أشحت بوجهي عنه، فسيماكوف دائم المزاح:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ألم تستطع ابتكار مزحة أكثر ذكاء؟
فضحك سيماكوف:
– ما أغربك! أنظر الى البطاقة أولا، ثم أغضب ماشئت بعد ذلك.
تناولت البطاقة. كانت موشاة بقلم أحمر وأزرق، وبخط ناعم جداً دبج فيها:
«الرفيق المحترم! ندعوك لحضور حفل زفاف زميلتنا وزميلنا في الكتيبة: ليلي تشيرنوفا ومصطفى حليموف. يقام العرس ليلة ٣١ كانون أول ١٩٤٢ في الساعة ٢٣ و ٣٠ دقيقة عند وهدة بارسوجيا.
اللجنة»
كنت أعرف وهدة بارسوجيا. انها النسق الثاني لجيشنا. كانوا يرسلون اليه لغرض الراحة بعض القطعات المسحوبة من المقدمة. وكنت أعرف الممرضة ليلي تشيرنوفا، الانسانة الشجاعة تماماً، التي أنقذت حياة الكثيرين من الجرحى مجرجرة اياهم من سوح المعارك تحت نيران العدو، وخاضت المعارك صحبة رفاقها من المقاتلين.
وكنت أعرف أيضا مصطفى حليموف، كان واحداً من أفضل القناصة. بل أنني عددت يوماً الخطوط التي علمها على خشبة بندقيته بعد كل عملية قنص، كانت عبارة عن بضعة صفوف في كل صف عشرة خطوط. ولقد سمعت شيئاً ما عن القناص والممرضة في كتيبتنا، وها أنا أتذكر كل ذلك الآن، غير أنه ظل يصعب علي تصديق انهم قد فكروا حقاً باقامة عرس الاونة في الوقت الذي ناشبت فيه المعارك هاهنا، في مكان ما، في المقدمة. شيء لا يصدق!
بحت بكل ذلك لأندريه سيماكوف، فأجاب:
– أنا نفسي أيضاً فكرت أن المسألة لا أكثر من خدعة. ولكن مصطفى أقنعني. انها ضرورة لو فهمت.
– وما معنى الضرورة هذه؟
فضحك سيماكوف:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– آه منك ايها الناثر الذي لا يلتفت كثيراً لأمور القلب! أنها مسألة حب، ألا تفهم؟

رحت أستفسر منه عن كنه الأمر، الا انه لم يضف كلمة أخرى والوقت لم يكن كافياً، ولقد استدعانا رئيس القسم السياسي في وحدتنا العقيد كورابيلنيكوف، وكان رجلا طيباً ذا نخوة، شديد المحاسبة لمرؤوسيه، فقد كان يحب الدقة في العمل أكثر من أي شيء آخر، ولما لم يكن قد تبقى لنا أكثر من سبع دقائق، فقد ارتدينا معطفينا العسكريين بسرعة، وما هي الا سبع دقائق بالضبط حتى كنا قد دخلنا اليه في المخبأ.

نظر العقيد كورابيلنيكوف الى ساعته، ثم هنأنا بمقدم العام الجديد، وتمنى لنا السعادة، واقترح علينا أن نتوجه في الأول من كانون الثاني ١٩٤٣ في الساعة صفر صفر من القسم السياسي الى المقدمة. فاستماحه سيماكوف:

– أتأذن لنا أيها الرفيق بالسفر اليوم مساء؟

فدهش العقيد:

– هيا، ان كنتما ترغبان استقبال العام الجديد في المقدمة...

اتضح أن الممرضة ليلي قد جرحت قبل شهر مضى، مما اضطروا الى بتر يدها اليسرى من الرسغ، وكان القناص والممرضة قد اتفقا على الزواج بعد الحرب منذ أمد بعيد. الا أنهما قررا الاحتفال بعرسهما الاونة، قبل مغادرة ليلي الى المؤخرة.

أخرج سيماكوف بطاقة الدعوة من جيبه وقدمها الى العقيد، فقرأها هذا، ثم نظر الى صاحبي غير فاهم تماماً، فسرد سيماكوف آنذاك على اسماع العقيد قصة هذا الزواج التي لم أسمع بها من قبل.

أخرج العقيد، وسيماكوف يحدثه عن هذا الأمر، قرطاساً فيه بسكويت وقدمه الى محدثه معتذراً أنه لا يستطيع تقديم أكثر، وطلب منه ان ينقل تهانيه أيضاً الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العريسين الشابين، وقال كلمات طيبة بحق الشبيبه عندنا، مما لا يدع مجالا للشك في اخفاق محاولات العدو كسر شوكتنا.

– رجاء، انقلا للشابين تهاني القلبية وتمنياتي لهما بسنوات عديدة عامرة بالسعادة.

وعدناه أن ننفذ طلبه، وخرجنا من المخبأ.

رحت أفكر بأمر الهدية، وكانت هذه المسألة غير سهلة. وعندما عدنا الى موضعنا اخذنا نقلب في حاجياتنا الفقيرة، الا أننا لم نستطع العثور سوى على زجاجة فودكا وتعيين خاص بالضباط في مركز التموينات.

فأصدر سيماكوف أمره:

– لف الزجاجة والتعيين بورقة.

لم يستغرق ذلك مني أكثر من لحظة، بينما أضاف سيماكوف:

– لسوف أمضي الى مكان لعلي أصيب فيه شيئاً.

وما هي الا نصف ساعة حتى عاد سيماكوف يحمل في يده كيساً ملفوفاً. قال:

– هيا انظر، أتجده مناسباً؟

فتحت الكيس فاذا بي أرى ضفيرة صوف جميلة وعفريتة أطفال صفراء، فهتفت مبهوراً:

– يا سلام! من اين حصلت على كل هذا؟

– من جد وجد! عليك أن تقدح زناد الفكر، ولقد قدحته. ذهبت الى بناتنا في مركز الاتصال فحكيت لهن عما نحن فيه فنجدنني، وقد عرضن علي بالطبع كل ما في حوزتهن. أتعلم كم كان هنالك من الهدايا عندهن؟! لقد اخترت ماتراه، فما رأيك؟ حسن؟

– أحسنت!

واستأنف سيماكوف:

– وعدت الفتيات أن أحضر عرسهن جميعاً، وأن أقدم لكل منهن هدية تضاهي الاخرى.

أندريه سيماكوف انسان مدهش كان يتمكن ويجيد كل شيء. فحيث كان يعمل موجهاً للقسم السياسي لوحدتنا أفلح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في قيادة الكتيبة الى الهجوم، وكسر الارتفاع الشهير رقم ١١٥،٦ الذي كانت المدفعية تدقه ليل نهار، دون أن تستطع اصابة الفاشست الذين احتموا في الأرض. كما مضى الى مؤخرة العدو، مبرراً ذلك أمام القادة: «على الكادر السياسي أن يقوم بعمله السياسي حتى بين أفراد الاستطلاع». بلى، لقد كان انساناً مدهشاً أندريه سيماكوف هذا، وها هو الآن يحصل رغم كل شيء على هذه الهدية للعريسين الشابين.

قلت:

— ينبغي الذهاب لنصل في الوقت المناسب...

وضعنا الهدايا في كيس للاشياء ومضينا. كان الثلج يخشخش تحت أقدامنا، فيما الريح الجفول تسوط وجهينا، والنجوم تتلاصف لامعة في أعالي السماء الظلماء. فرقعة الانفجارات في مكان ما بعيد، انها مدفعيتنا تصب حممها، مضيقة الخناق أكثر فأكثر حول جيش للهتلريين قوامه ثلاثة آلاف جندي.

حالفنا الحظ مباشرة، أوقفنا سيارة عابرة تنقل الامدادات واتخذنا لنفسينا مكاناً على صناديق الذخيرة. وهكذا وصلنا الى وهدة بارسوجيا.

راح سيماكوف يسير الآن واثقاً في امتداد الخنادق، حتى وصلنا مخبأ، وهنا رأينا المقاتلين متعرين حتى حقاءهم، متمرغين في الثلج، وكان مصطفى بينهم. صاح سيماكوف بهم:

— هاي، ماذا تفعلون؟

— نحمم العريس...

دخلنا المخبأ المحفور في منحدر التل، وكان غير عال الا أنه واسع ما فيه الكفاية، في وسطه طاولة طويلة، ركبت من صناديق كبيرة للذخيرة، والأرضية فرشت بأغصان الحور، فكان أصدقاء مصطفى قد حاولوا اضفاء طابع احتفالي على الحجرة، مادامت «الطاولة» قد غطيت بالجرائد. فسأل سيماكوف محييا الجنود بمرح:

— هل من خدمة نقدمها؟ لقد وصلنا مبكرين مخصوصاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجاب أحد المقاتلين:

– شكراً أيها الرفيق الرئيس. كل شيء جاهز عندنا.

– لا، ليس كل شيء.

قال سيماكوف ذلك وهو يخرج من الكيس لفة الطعام وزجاجة الفودكا.

وفي هذه الأثناء دخل مصطفى الحجرة محاطاً بأصدقائه، والبخار يتصاعد من أجسامهم المحماة التي لصق بها الثلج، ثم راح المقاتلون يرتدون ملابسهم.

انتصب أمامنا بعد دقيقة مصطفى، عريساً. كان قد سوى شعره بعناية، وتضمخ بماء الكولونيا. الشاب الممشوق القوام، ذو العينين السوداوين الواسعتين، والحاجبين الكثيفين:

– شكراً لمجيئكما.

أشار سيماكوف الي:

– لم يكن ينوى المجيء. قرأ بطاقة الدعوة، فقال: أنها خدعة!

فأصبح وجه مصطفى جاداً:

– كلا، اية خدعة في هذا؟ كل شيء حقيقي وفي واقع الحال.

فسأل سيماكوف مصطفى:

– حدثنا على الأقل عن عروستك.

ابتسم مصطفى مرتبكاً، كانت أسنانه متساوية وبيضاء:

– انها حكاية طويلة ايها الرفيق الرئيس.

فشاركه سيماكوف الابتسام، وقال دافعاً المقعد لي:

– علينا أن نجلس اذن للاستماع الى حكايتك.

أخرج مصطفى من جيبه ورقة ولف له سيكارة. ثم راح يدخن اللفافة التي كانوا يسمونها في الجبهة «كاتيوشا» قائلا:

– لم نعتقد، ليلي وأنا، أنه سيكون لنا مثل هذا العرس.

كان يتكلم ببطء منتقياً كلماته. بلى، لقد حدث هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل شهر مضى. جرحت ليلي وهي تنقل من ساحة المعركة مقاتلا ثخنت اصابته. ولربما لو أجروا لها عملية جراحية في مستشفى الميدان في الحال لما حدث لها ذلك. ولكن المضمد الصحي مضمد صحي. شدت ذراعها بعصابة، وربطت ساقها على عجل، وواصلت جر المقاتل. كانت المعركة قد بدأت في الفجر، وما استطاعوا التقاط الممرضة والمقاتل الا وشيك المساء بعد ان هدأت المعركة.

لم تقص الفتاة لأحد كيف سحبت الجريح، كيف كانت تلتقط أنفاسها فاقدة الوعي، كيف أستطاعت على العموم جر مقاتل، ثخنت الاصابة، تحت وابل من القصف. انها لم تتكلمعن ذلك لأن الحرب كانت قائمة، وعمل المضمد الصحي فيها واضح. فما الذي يستدعي سرد حكايتها هاهنا؟

عندما أرقدت ليلي في المستشفى كان الاوان قد فات لانقاذ رسغ يدها. وكان مصطفى في المقدمة، يخوض المعركة، شديد القلق عليها، ينتظر الرسائل. فيما الرسائل تصل ولكنها في كل مرة اقصر من قبلها. وقد كتبت له الفتاة انها حية، وانها تتعافى بعد اجراء عملية جراحية لها، وانها تشعر بنفسها في وضع ليس سيئاً: ذلك حسب.

ثم انقطعت الرسائل بعد ذلك على العموم، فراح مصطفى يبحث عن صديقتها، المضمدة أيضاً، وطفق يستفسر منها عن مكان فتاته. ويضيف مصطفى:

– أولا كانت تطمئنني: كل شيء على مايرام، ليلي تستعيد عافيتها. أما أنا فقد كنت أشعر أن في الأمر شيئاً، وأن صديقتها تخفي عني ذلك. فـ «ضغطت» آنذاك كما ينبغي، وقلت أنني أعلم الحقيقة كلها. «مادمت تعلم الحقيقة كلها، استلم اذن هذه الرسالة!»

مد مصطفى يده في جيب قمصلته وأخرج رسالة.

تناول سيماكوف الرسالة المطبقة المثلثة الشكل، وبسطها، فقرأنا هذه الرسالة، ولقد اعطاها مصطفى لي، وهذا نصها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أولينكا*، سرعان ما سوف يخلون سبيلي من المستشفى، لأمضي من بعد الى المؤخرة النائية من الجبهة. انني الآن أسير بدوري على عكاز، فيما ركبت لي ذراع اصطناعية بدل يسراى. لقد اضطروا لبتر الرسغ خشية اندلاع الغنغرينة. ما العمل: انها الحرب. أرجوك أن لا تحكي هذا لأحد، مصطفى بخاصة، فلسوف يشعر بمرارة شديدة. انني أعرفه طيلة حياتي، لكن يبدو أننا لن نستطيع العيش معا، رغم أننا كنا نحلم بذلك. انني أريد أن تكون حياته سعيدة، فما الذي سوف يجده عندى؟ لا أرى لذلك موجباً.

صديقتي العزيزة، لاتظني أنني سقطت في وهدة اليأس. وبالطبع فأن الأمر ليس بسيطاً علي، ولكني سوف أجد مكاناً لي في الحياة. المعذرة لهذه الرسالة القانطة، أنقلي تحياتي الى الجميع.

كانوا يسمونني من قبل اليمامة الممراحة، أما الآن فقد ولى ذلك العهد، ولن يعود أبداً.

أقبلك. المخلصة ليلي. ١٠(١٢)١٩٤٢.»

وقد هز سيماكوف رأسه قائلا:

— بلى، رسالة حزينة.

فعلق مصطفى مغضباً:

— هذا هو بيت القصيد. عندما قرأتها لم أصدق. أيعقل أن ليلي استطاعت التفكير بـ...، أنتم لا تعرفونها جيداً، أما أنا فقد تعرفت بها منذ أمد بعيد، بل اننا عشنا في روضة أطفال واحدة، وتعلمنا في مدرسة واحدة، وجلسنا الى رحلة واحدة. وعندما بدأت الحرب شاركت فيها متطوعاً، اما ليلي فلم تقبل، لكنها استطاعت عبر موسكو العثور علي، وهنا أصبحت ممرضة نحن معاً منذ أيلول ١٩٤١.

فسألت:

— وبعد ذلك؟

فابتسم مصطفى، نافضاً رأسه، كأنه يرغب ألقاء ثقل جسيم عنه، وأفصح:

---

* كنية الملاطفة من اسم أوليا — **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– وماذا بعد؟ كل شيء كان بسيطاً بعد ذلك. عندنا رقيب أول أسمه كوستيا، يعمل سكرتيراً لمكتب الكمسمول، اريته الرسالة، فقرأها، ثم مضى معي الى آمر الكتيبة. فسمح لنا الرفيق الآمر بثلاثة ايام.

ثم راح مصطفى يسرد لنا بالتفصيل، وبحيوية، عن سفرهما الى المستشفى.

كان المستشفى قائماً في قرية متاخمة للجبهة، فلم يصل الصديقان الى هذه القرية الا بعد وقت. وعندما وصلا قدما نفسيهما الى الممرضة المناوبة التي اقتادتهما الى بيت ريفي ما، وطلبت منهما الانتظار. ثم اذا بالباب يفتح فجأة، فتدخل ليلي، شاحبة، هزيلة.

كان المساء قد ارخى سدوله، فلم تنتبه ليلي الى وجودهما في الحال، وكانت قد دخلت الغرفة معتمدة على عكاز، فيما يسراها مضمدة بالشاش ومعلقة الى رقبتها. وما ان رأت مصطفى حتى تسمرت وراحت تنظر اليه طويلا، ثم انخرطت في البكاء، وكان أول ما قالته:

– هزلت كثيراً يا مصطفى!

فأجاب كوستيا جاد السحنة:

– من أجلك جف عوده.

وابتسمت ليلي لأول مرة.

سأل مصطفى:

– أيخلون سبيلك قريباً؟

فنظرت ليلي شزراً الى يدها المضمدة وقالت:

– وماذا ينفعني ذلك؟ أنهم لا يسمحون لي بالعمل مع القطعات، انما تنتظرني طريق أخرى.

ذلك ما قصه مقاتل...

– ثم أخذ كوستيا يمزح، ورحنا نتحدث ثلاثتنا. وقد قال كوستيا لها: «لقد جئنا لاصطحابك، فاستعدي».

لم تصدق ليلي اذنيها، ثم نظرت الي، فصدقت.

وباختصار، فقد اتفقنا على ارسال سيارة للاتيان بها حال يخلون سبيلها من المستشفى. وعندما عدنا الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحدتنا، اتضح انهم يحولوننا الى وهدة بارسوجيا، فحملت سيارتنا الصحية فيما بعد ليلي الينا.

فضحكت:

– وقد قررتما انتهاز الفرصة للاحتفال بعرسكما؟

ابتسم مصطفى مرتبكاً:

– الواقع أن هذا الأمر من صنع يدي كوستيا أيضاً. فهل كنا، ليلي وأنا، مستطيعين التفكير بهذه المسألة؟ لقد توهجت الفكرة في رأسه هكذا ربما: ماذا لو اقمنا عرساً رغماً على الحرب! ولقد اتفق كوستيا حول كل شيء مع نائب رئيس القسم السياسي، ولقد أيد مشروعه الشباب الكومسومولیون: فمادام هنالك عرس كومسومولي، فليكن اذن هنالك أيضاً عرس جبهوي!..

قطعت أصوات فتيات الحديث علينا. فنهضنا. فرأينا ليلي تدخل الينا في المخبأ صحبة عدد من الصديقات: كانت ليلي نحيفة، عنقاء، فكأنها يمامة جميلة حقاً. كانت قد هزلت كثيراً، فسطعت عيناها الكبيرتان العسليتان ببريق أشد، فيما البدلة العسكرية لائقة عليها تماماً، وشعرها الكستنائي قص على قصر، فكانت أشبه بصبي.

حيتنا بمرح. فهتف أحد المقاتلين:

– هيا، العريس والعروسة، قفا في الزاوية الحمراء!

كنت قد انتبهت منذ أمد بعيد الى هذا الشاب، ففروة رأسه الصهباء كانت تبدو وكأنما تملك خاصية الحضور في أكثر من مكان في وقت واحد، فيما أصوات عالية ترتفع حوله دائماً، وضحكات ملعلعة لاتني تسمع بينها:

أشار مصطفى برأسه الى ناحيته، وقال بصوت يكاد لايسمع:

– هذا هو كوستيا ديمجينكو، الرقيب أول.

وسرعان ماحضر قائد الفوج، والضباط الآخرون. فنظر كوستيا الى الساعة، وقال:

– انها الساعة الثالثة والعشرون والنصف بالضبط.

ثم أضاف:

– بعد نصف ساعة من الآن سوف يحل علينا العام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجديد في هذا البيت – بلى، لقد أسمى المخبأ بيتاً – ولهذا، كي لا نضيع الوقت هدراً، اسمحوا لي أن أعلن على أسماعكم هذه الوثيقة التاريخية، التي سطرت في لهيب معارك حصن الفولغا.

رفع كوستيا بيده ورقة كبيرة موشاة بخطوط حمراء زرقاء، شأنها شأن بطاقة الدعوة، وقرأ:

«شهادة زواج

منحت للمقاتل مصطفى حليموف، الرقيب الأول في فوج المشاة (ميلاد ١٩١٩، مدينة أوفا) ولليلي فاسيلفنا تشيرنوفا، عريف الخدمة الصحية (ميلاد ١٩٢٠، مدينة اوفا) لتفيد بانهما اختارا بعضهما بعضا بمحض رغبتيهما، وبدافع من الحب النزيه، ليكونا شريكي حياة.

نحن الموقعون أدناه نؤكد أن السعادة والحب والاخلاص الدائم سوف تظلل حياتهما العائلية.

وبالنظر الى أنهما لا يملكان امكانية التوجه الى مكتب الزواج في ظروف الحرب (الذي لم يكن قد عاد بعد من مكان الترحيل) فاننا نصدق شهادة الزواج هذه بتواقيعنا وختم الفوج.

الشاهد: ياور مكتب الكتيبة الملازم أول

دافيدوف،

سكرتير منظمة الكومسومول للسرية

الرقيب أول

ديمجينكو،

٣١ كانون أول، وهدة بارسوجيا».

وتصاعد التصفيق الحميم، وصافح كوستيا يد ليلي، ثم مصطفى، وقدم لهما الشهادة.

نهضنا، ورفعنا أكوابنا، فصاح آمر الفوج:

– غوركه*.

---

* هتاف يطلقه الروس أثناء حفلات الزواج تيمناً بالخير للعريسين ودعوة لتقبيل بعضهما بعضاً – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخضب وجه العروس بالحمرة، بينما احتضنها مصطفى وطبع قبلة على شفتيها.

وبعد مرور بضعة دقائق سمع رنين ساعة الكرملين يتناهى من جهاز الارسال.

نقل أندريه سيماكوف بعد ذلك تهاني العقيد كورابيلنيكوف وسلمهما بصورة احتفالية: المنديل و عفريتة الأطفال.

استمر الحرس حتى الفجر.

ولم يتفرق الحاضرون حتى دخل عليهم في المخبأ أول شعاع للشمس من عام ألف وتسعمئة وثلاثة وأربعين، فأطفىء الفانوس.

بعد مرور بضعة أيام على الزواج حصل مصطفى على اجازة وسافر صحبة ليلي الى مدينتهما اوفا. وبعد مرور شهر واحد انتهت ملحمة الفولغا العظمى*.

انني أكتب هذه السطور متذكراً من جديد ليلي ومصطفى. فأين انتما الآن يا صديقاي؟

١٩٦٤

* يقصد الكاتب معركة ستالينغراد الشهيرة التي كانت اشارة بدء انهيار الجيوش الهتلرية – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بولتا آرتيقوف. ولد عام ١٩٢٤ في سمرقند في عائلة صانع أحذية. عمل في كلخوز بعد انهائه المدرسة الثانوية. وفي عام ١٩٥٢ أنهى كلية اللغة والأدب التابعة لمعهد سمرقند التربوي. عمل مدرساً في مدرسة، ومراسلا لجرائد الجمهورية. بدأ النشر عام ١٩٥٣. مؤلف العديد من المجاميع القصصية والقصص الطويلة. يهتم في كتاباته خاصة بالقرية بالأناس القرويين، وبحياة الشبيبة.

دموع الصخر

كانت هنالك الى جانب الطريق صخرة تبدو من بعيد سوداء، لكنها في حقيقة الأمر كانت بنية اللون، غطتها الغضون تماماً، لكنها كانت بدون كسور أو شقوق. ارتفاعها بلغ ارتفاع بيت ذي أربعة طوابق، فكان الناس يسمونها بـ «الصخرة الكبيرة».

انتصبت الصخرة الكبيرة بعيداً عن القرية، فكانت تقدم لعابري السبيل الراحة في فيئها: في الصيف تمنحهم الظل الوفير، وفي الشتاء ملاذاً من المطر والثلج والريح الزمهرير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حط عليها أحد الأيام غراب يحمل في منقاره شيئاً ما أشبه بجوزة، تلفت يسرة ويمنة، ثم أمسك بمخلبه صيده بقوة وراح يحاول كسرها. تشققت القشرة، فطفق الغراب ينقر في لبها. الا أن احدى البذرات سقطت منه في شق ضيق، ولقد رأى الغراب ذلك بنظر ثاقب، الا أنه لم يستطع استخراجها من هناك، فطار من أجل الحصول على مغنم جديد. بينما بقيت البذرة في شق الصخرة الكبيرة.

حدث ذلك خريفاً. ثم حل الشتاء بأمطاره الباردة وثلوجه. كانت البذور التي تحملها الريح الى سفح الصخرة الكبيرة تذوي وتعفن، أما البذرة الأخرى فقد عاشت، وعندما دفأ الجو، برزت منها نبتة صغيرة. كانت النبتة في البداية ضعيفة، واهنة، تلاعبت بها الريح ماشاءت وساطتها الشمس بلهيب قيظها، حتى انها في منتصف النهار كانت تصبح ذاوية، خائرة، كأنها انسان فقد حوله. بيد أنها كانت تستعيد حيويتها في المساء، فتستقيم، ويطمح عودها النحيل الى العلاء.

وها أخيراً مدت النبتة لها غصناً صغيراً ذا أوراق رقيقة وبراء، فرأى الجميع أن شجرة شوح قد استوطنت الصخرة الكبيرة، واحدة من أجمل الأشجار، راحت تسمى في الجبال: «عروسة كوهيستان»*، ومرت الأعوام فاذا الشجرة تمد جذورها عميقاً الى قلب الصخرة الكبيرة نفسه.

قالت الصخرة الكبيرة للشجرة يوماً:

— يا أيتها الشوحة، ما الذي تفعلينه؟ لم جذورك تزحف مثل الدود؟

أجابت الشجرة:

— ذلك لا مناص منه. فأنا أحتاج الماء والغذاء أيضاً. أريد أن أحيا.

فدمدمت الصخرة الكبيرة:

— الأرض واسعة، فهل عدمت لك مكاناً فيها لتنمي لبس الا علي؟

---

* مكان جبلي — **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ليس هذا ذنبي يا أخي*، لقد جلب الغراب بذرتي الى هنا فأسأله هو.

– اها، بل وأنت تماحكينني أيضاً؟!

احتدمت الصخرة الكبيرة غيظاً، وراحت تعصر جذع الشجرة، ولكن الشجرة لم تذعن لها، فبحثت لها، وعثرت، على مسالك جديدة لجذورها. لقد كانت الشوحة تريد حقيقة أن تحيى.

وفي نهاية المطاف استسلمت الصخرة الكبيرة. فقالت للشوحة:

– طيب، لك الحياة.

لم تكن هنالك شجرة حولها أجمل من تلك الشوحة، فلم يكن احد يستطيع المرور بها دون أن يمتع ناظريه بها. فقد كان لونها ساطع الخضرة أمام خلفية السماء الزرقاء، أما الصخرة فقد كانت تبدو من مبعدة وكأنما قدت من مرمر أسود.

مرت أعوام عديدة. وجاء اليوم الذي قرر فيه أن يعاد النظر في أمر الطريق الضيقة، وقد حضر المهندس الى مكان الشارع المقترح الجديد، فتلبث عند الصخرة الكبيرة. كان ينبغي أن تكون الطريق مستقيمة عريضة، فما الذي يمكن عمله مع الصخرة الكبيرة؟ يمكن زحزحتها الى جانب، ولكن الأسهل تفجيرها.

تفحص المهندس الصخرة الكبيرة طويلا، وطاف حولها مرتين. ولما صعد الى صهوتها متع ناظريه بمرآى الشوحة وقد خاضت صراعها من أجل الحياة. فيما الصخرة الكبيرة قد اصطرعت بدورها مع الشجرة، فانشبت حافاتها الحادة بجذعها، كأنما أنتوت تمزيقه ارباً ارباً. حتى أن المهندس تصور لحظة ان مايراه ليس صخرة وشوحة، بل عملاقان اشتبكا في نزال، فالتف جسداهما ببعض، وارتكز أحدهما على الاخر بكتفه...

---

* الصخرة بالروسية مذكر – **الناشر.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرر المهندس الرأفة بالشوحة، فأصدر أمره بمد الطريق اسفل الصخرة بأربعة أمتار.

الا أن أحد المساحين اعترض قائلا ان الصخرة تشبه مزاراً، فالأفضل نسفها. فرد المهندس:

– انها لا تشبه أي مزار، انظر حسب، أي جمال هذا: شوحة تنبع من قلب الصخر!

اتضح ان لدى المهندس العديد من المؤيدين، لذلك تقرر أن ينفذ ما ارتآه في نهاية المطاف، فكتب للشجرة والصخرة البقاء في مكانيهما.

انجز العمل في الطريق بعد مرور عامين، وطرقتها الشاحنات الثقيلة والباصات الكبيرة، فكانت الشجرة تبدو خلال النوافذ كانها معلقة في الهواء. توقفت الباصات عند الصخرة الكبيرة، وخرج المسافرون منها للارتياح قليلا والتمتع بمناظر الطبيعة. كان الجو بارداً على صهوة الصخرة الكبيرة. وكان الناس وخاصة كبار السن ينظرون الى الشوحة مسحورين بفتنتها.

– هكذا بالضبط يتوجب الكفاح من أجل الحياة!

يرتحل هؤلاء، ويأتي غيرهم. ويزدحم الناس يوماً بعد آخر عند الصخرة الكبيرة، لقد أصبح المكان فريداً من نوعه بين الأماكن، ومتلبثا يجنح اليه السائحون.

بيد أن الطريق لم تكن قد صودق على صلاحيتها من قبل لجنة رسمية بعد، وقد شكلت هذه اللجنة بعد مرور بضعة أشهر، مؤلفة من أربعة أشخاص وعلى رأسهم رئيس، وها هي اللجنة قد استقلت سيارة بيك آب تقطع الطريق بها، من أجل قبولها رسمياً. فكان الرئيس ينظر الى كلا الجانبين متمعناً محاولا العثور على نقص ما.

غير أن السيارة كانت قد قطعت نصف الطريق دون أن يعثر الرئيس له على شيء ما يمكن اعتباره نقيصة، ولو كان قد علم بهذا الأمر من قبل ماكان يوافق ربما أبداً على ترأس هذه اللجنة. فهل يعقل ان يكون كل شيء على مايرام في مدى كل هذه الطريق الطويلة؟ لا يمكن ألا يغفل البناؤون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيئاً ها هنا أو ها هناك. من يصدق هذا؟ لسوف يقولون أن رئيس اللجنة لم يتفحص الطريق بجد.

وهنا رأى الرئيس الشوحة والصخرة الكبيرة. فقال لنسائق:

– توقف.

خرج أعضاء اللجنة في أثر رئيسهم، لم يكونوا قد شكوا بأمر حتى ذلك الحين. كانوا بحاجة لمط أطرافهم حسب. أما رئيس اللجنة فقد اقترب من الصخرة الكبيرة، رفع رأسه، وراح ينظر طويلا الى الشوحة، ثم قال بعد ذلك:

– أترون؟ انهم يمتدحون المهندس بقولهم: موهوب! ولكن، اتصح مثل هذه الهفوة!

فتلقف الكلام أحد مرافقيه:

– بلى، بلى.

وأكد ثان:

– مضبوط.

ولكن الثالث لم يوافقهم:

– اية هفوة هذه أيها الرئيس؟

مرر رئيس اللجنة سؤاله بحذاء اذنه. وكما لو أنه يرغب التأكد من أن من أيده، يوافقه الرأى فعلا تساءل:

– واذن أين يكمن خطأ المهندس؟

لم يستطع أعضاء اللجنة الاجابة على السؤال:

اكفهر الرئيس، ودمدم:

– ويسمونكم خبراء طرق!

ابتسم الاثنان، من أيداه، بطريقة توحي بشعورهما بالذنب. أما رئيس اللجنة فقد استدعى السائق وطلب منه أن يبحث له في أقرب قرية عن منشار حاد.

عاد السائق بعد عشرين دقيقة حاملا المنشار. أشار رئيس اللجنة الى الشوحة:

– ينبغي قطعها.

فردد الاثنان بصوت واحد:

– بلى، بلى، ينبغي قطعها.

اعترض الثالث:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ولماذا؟ ان الشوحة لا تؤذي أحداً.

فأهنف رئيس اللجنة:

– مازلت لا تفهم بعد؟ انها الآن لا تؤذي ولكنها اذا كبرت مع مرور الوقت عاقت أغصانها حركة المرور. ان المهندس، كما يبدو، لا يعرف كل المعرفة، وها هي هفوته. هل فهمت الآن؟

قال الأول:

– بلى، بلى.

وأثنى الثاني:

– الرئيس على صواب.

الا أن الثالث هز رأسه غير راض. لم يفكر رئيس اللجنة بالاستماع الى اعتراضه، فالتفت الى ذينك الاثنين وأمرهما بقطع الشوحة.

تناول أحدهما المنشار ومضى الى الصخرة الكبيرة... بيد أنه قلب فكره، ثم دمدم:

– لندعها أيها الرئيس مادامت لا تزعج أحداً الآن.

فغضب رئيس اللجنة:

– ماذا دهاك، أترأف بشجرة أو هل جئت بكم لأحملكم على رأسي؟

أخذ المنشار منه، وصعد بنفسه على الصخرة الكبيرة، فيما اهتزت الشوحة وكأنها ترتجف هلعاً وتطلب الرحمة منه، ولكن رئيس اللجنة كان صارماً لا يلين، يفخر في أنه عثر على هفوة كبيرة للمهندس المدني بل و أنه سوف يخبر عنها المراجع الرسمية وكذلك عن لاجدوى من أعضاء هذه اللجنة الذين حتى لم يستطيعوا قطع شجرة شوح، مما اضطره يفعل ذلك بنفسه.

انشب المنشار في الشجرة، وما زال يحتز في منتصف واحد من أكبر أغصانها سمكاً وطولا، والعرق يغرقه، حتى تهاوى منكسراً مقضقضاً الى أسفل، منتزعاً من الصخرة الكبيرة فلذة.

نظر الجميع بلا ارادة الى ذلك المكان الذي انخلعت منه فلذة الصخرة، فقد ظهرت ثمة بقعة قاتمة اتسعت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسرعة، ثم انبجست قطرات ماء. وها هي قطرة ماء تندلع، وتتدحرج على أديم الصخرة، فتتبعها قطرة ثانية، فثالثة...

ولكن أكانت تلك قطرات ماء حقاً؟ أم أنها كانت قطرات دمع؟ فلعل الصخرة الكبيرة قد بكت وقد ألمت بها الشفقة بالشجرة؟ بكت وقد زلزلها أثم الانسان بقلبها الحجري...

ومنذ ذلك الحين والصخرة الكبيرة تسمى: الصخرة الباكية.

١٩٧١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فضل الدين محمديف. ولد عام ١٩٢٨ في عائلة مغلف كتب بسمرقند. عمل مراقباً في كلخوز بعد انهائه دراسته الثانوية. وفي عام ١٩٥٢ أنهى مدرسة الكمسمول المركزية بموسكو. عمل طويلا في الصحافة. عام ١٩٦٢ أنهى دورة أدبية عليا بموسكو، وكان رئيس تحرير المجلة الساخرة (!لقنفد). سكرتير ادارة اتحاد كتاب تاجيكستان.

بدأ نشر أول قصصه ومقالاته في منتصف الخمسينات. ومنذ ذلك الحين صدر له العديد من المجاميع القصصية والنقدية والقصص الطويلة والروايات. حاز على جائزة الدولة لجمهورية تاجيكستان باسم ردكي لقصتيه الطويلتين «بيت عند الطرف» و «رحلة الى العالم الآخر». تعالج مؤلفاته دائماً مواضيع العصر الراهن، القضايا الاخلاقية – الاجتماعية، والحادة.

نزال

المصارع الحاذق يمكن معرفته عن مسافة بعيدة. وبينما لا يكتفي البهلوانات* بمظهرهم المقحام: يحاول كل منهم، وبطريقته الخاصة، أن يميز هيكله الجبار عن غيره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاذا كان أحدهم على سبيل المثال يطلق له شاربين مديدين أشبه بسيفين ليلقي الرعب في أفئدة مزاحميه، فأن غيره يتخذ لنفسه مشية خاصة ترتج لها الأرض وتردد وقع خطوه عليها؛ بينما يرى آخر أن يربي له بطناً ضخماً يضاهي في حجمه قدراً كبيراً يكسف به المزاحمين، رغم أن هذا البطن يصبح أثناء النزالات عالة على صاحبه كما هو معروف.

أما أحمدبيك فقد كان يختلف عن أمثال هؤلاء المصارعين اختلافا كليا. فالناظر اليه لا يستطيع أن يتصور لنفسه في أول وهلة أن هذا الرجل المعتاد الطلعة يحمل منذ أعوام عديدة، ودون انقطاع، لقب أقوى مصارع في مقاطعة كبيرة. ولكن هذا لا يعني أبداً أن أحمدبيك كان خالياً من الجمال. كلا، أبداً. فقد كان بنيانه حسناً، وقامته أعلى من المتوسط، واسع الصدر، كروي عضل الذراعين والساقين، كبير الرأس، مرتفع الجبهة واسعها. غير ان هذا البنيان لم يكن في الواقع ذا شأن بالنسبة لأجسام العتارس ذوي القامات العملاقة. فهو أقرب الى بنيان فلاح بسيط حقيقة. بلى، وكان شارباه الخفيفان بسبب من اهمال صاحبهما الواضح، لا يعرفان ايان يتجهان، فهما ناتئان مرة الى أعلى، ومرة الى أسفل، وثالثة الى جانب، باتجاه أذنيه. بل، وحتى مشيته، كانت، على صلابتها وأناتها، لاتشبه بحال خطو المصارعين العظام المهيب الرهيب.

Telegram:@qbooks2018

كان بعضهم يؤكد أن أحمدبيك ماكر ويتظاهر بالبساطة عن عمد ليغرر بمنافسيه، كيما يستطيع في الوقت المناسب، اثناء النزال، كسر قناعتهم، فيجندلهم أرضاً، ويمسحها بهم. فيما جادل الغير: اذا كان أحمدبيك ينتصر بمكره، فلماذا يستطيع أيضاً كسر شوكة البهلوانات الآخرين من الذين يعرفونه جيداً؟ كلا، اذن، لا دور للمكر في هذه القضية، فالمهم انما هو المهارة والقوة. والمكر لم يجلب مجداً لأحد من البهلوانات أبداً...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلى، ان للمصارعة التاجيكية المتوارثة أبا عن جد ميزتها الخاصة. فهي تتطلب الحذاقة، الى جانب قوة الذراعين والساقين وعضلات الظهر، التي ينبغي أن تكون على درجة عالية من الكفاءة، وكذا صلابة الرقبة. فاذا كنت قوياً ولم تكن فارهاً أمكن مصارع فتي لا تناسب قوته حتى نصف قوتك لكنه فاره وخفيف الحركة أن يمسك بك ويطرحك على كتفيك أرضاً، دون أن تفلح في وصول حتى وسط الحلبة. بيد أنك حتى اذا كنت فارهاً ألف مرة أكثر من أي فاره على الأرض، ولم تستثمر قوتك في اللحظة المناسبة، فأن النصر يحتمل ان يتخلى عنك.

ولكن منافسي أحمدبيك لم يستطيعوا التغلب عليه لا قوة ولا مكراً. وقد حدث أن انتصب أحمدبيك وسط الحلبة منغرزاً في الأرض أشبه بمعصرة زيت قديمة مضى أكثر من نصفها في الأرض، بينما غريمه، الذي جرب كما يقال كل لزمات المصارعة السبع والسبعين معه عبثاً، يجد نفسه مجندلا على الأرض تحت أحمدبيك.

وعندما كان أحمدبيك يتصارع مع عتاريس يشبهون الجبل، يتعمد أن يدعهم يدورون في الحلبة حتى يستنفدون كل قواهم، واذا به يحمل عليهم كالصاعقة، ويطيح بهم أرضاً.

بيد أن الناس رأوا في انتصارات أحمدبيك، بل وفي حياته الخاصة، شيئاً ما غير مألوف، ولهذا فقد سرت عنه اشاعات غريبة عجيبة. فقد قيل عنه مثلا أنه ليس شخصاً معتاداً، بل تحرسه قوى عليا. بلى، بل لقد أكدوا أن أحد الأولياء يقف في حمايته بالتأكيد. فكل بهلوانات الدنيا يتدربون بالتأكيد، اما بمنازلة بعضهم البعض، واما بالتمرن على رفع الاثقال وما شابه ذلك. الا أن أحداً لا يستطيع ان يؤكد بأنه رأى أحمدبيك يتدرب مرة. ولكنه، ومنذ ان راح يعين والده، المرحوم حالياً، ويمارس مهنة الاجداد – زراعة الأرض، لم يعرف شغلة أخرى له غير حرث الأرض وزراعتها بالحبوب والخضروات والاهتمام بالبستان وشق الترع والجداول... ورغم ذلك ما كان بامكان غريمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتدرب أعواماً طوالا أن يقف في وجهه عندما تجمعهما الحلبة.

كل عمل يقوم به الفلاح انما هو تدريب ومران في الواقع، وكان رئيس المجموعة الى جانب هذا لا يكلف الا أحمدبيك بأعمال الحراثة والزراعة على منحدرات الجبل الأبيض الحادة، فحيث لم يكن أحد يستطيع المرور حاملا حزمة حطب، كان أحمدبيك يفلح تلك الأرض بواسطة الثيران والمحراث الخشبي الذي كان يقوم بنجره بيديه، بينما لا يقوى أحد غيره على رفعه ونقله من أخدود الى آخر.

وفي أحد الأيام كان أحمدبيك يقوم بقلب الأرض هنالك، عندما جاء من مركز المحافظة خيال، دربك بجواده حاملا نبأ مفاده أن أحمدبيك أن يشارك في نزال سوف يقام بعد الغداء، لا بد من ذلك. ولكن أحمدبيك رفض ذلك فقد كان قد وعد رئيس المجموعة أن ينهي حراثة ذلك الجزء من الأرض مع نهاية النهار. عاد الرسول أدراجه خالي الوفاض، الا أنه عاد بعد ساعة صحبة فلاح من قرية ديخي بولو ورئيس اللجنة الرياضية في المحافظة. وقد اتضح ان رئيس اللجنة الرياضية قد التمس من رئيس الكلخوز أن يبعث أحداً من الفلاحين بديلا لأحمدبيك في عمله مادام هذا سيشارك في المباراة.

لم يبق لأحمدبيك شيء آخر سوى الموافقة على الذهاب الى مركز المحافظة، الا أنه لم يمض قليل وقت كاف لتناول قدح شاي، كما ان الفلاح الذي حل محله في الشغل، كان قد سقط من الجرف وآذى كتفه.

كانت عودة أحمدبيك سالماً معافى، بعد أربعة أعوام من الحرب الوطنية العظمى مع الفاشيين الهتلريين، قد أثارت بدورها مختلف الأقاويل والتآويل عند الناس في وقتها. فقد ندر أن ظل بيت واحد في قرية دروازة الجبلية لم يبك فقيداً او شهيداً له حينها. وها هو أحمدبيك يغدو الى بيته من الحرب مثلما ذهب اليها. وفي الحقيقة كانت احدى القذائف قد انفجرت على مقربة ولكن أحمدبيك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استطاع أن يلقي نفسه في حفرة في الوقت المناسب بينما غطته انهيارات التربة. ثم استطاع رفاقه في الفصيل استخراجه منها فيما بعد، غير أنه ظل لا يستطيع السمع شهراً كاملا اثر ذلك الحادث. وكان في رأسه طنين لكأن مجموعة من الزنابير بنت لها خلية فيه، فيما صفير عال يعصف في أذنيه بين حين وحين. ولما كان الأطباء يستفسرون منه عن حالة لم ير أحمدبيك سوى شفاههم تتحرك، ولم يتناه الى سمعه سوى «غوم – غوم – غوم..» و «بام – بام – بام..».

ولكن أحمدبيك عاد الى فصيله بعد مرور شهر واحد.

واذ راح يقص فيما بعد أمام أبناء قريته تفاصيل مغامراته الحربية، فقد استمع هؤلاء الى حكاياته البسيطة، الصريحة، الخالية من المغالاة والتباهي، باحترام وانتباه عظيمين، الا أن أبناء القرية، وهم يتداولون ما تحدث به فيما بينهم، أكدوا رغم ذلك أن الرجل غير خال من عناية قدرية.

٢

كان مزاج أحمدبيك عكراً للغاية، فيما أثقلت عليه خواطر مبهظة. انها ليست المرة الأولى التي يفسد محمدمراد النزق له فيها يومه الذي بدأ بديعاً مسراً!

خرج أحمدبيك الى الشارع لملاقاة صديقه سليم، للذهاب سوية الى الحفل الذي دعيا اليه. صاح أحد منادياً عليه فالتفت أحمدبيك ليرى محمدمراد يحمل في جنبه الأيسر كيساً كبيراً من الطحين يستوعب خمسة بودات بخفة بدا معها وكأنه يحمل ريشة، انحنى دون أن ينزل كيسه، واضعاً يده الحرة على صدره علامة الاحترام، ثم راح يصافح بعد ذلك يد أحمدبيك التي مدها اليه.

– مرحباً، كيف الصحة؟ كيف الأحوال؟ أراك نادراً. صاحب الحفل طلب مني أن أحمل له طحيناً. أنت أيضاً ذاهب الى هناك؟ حسناً، لسوف نذهب سوية اذن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

...بقبق محمدمراد مثل ببغاء، وفي نفس الوقت كان يضغط بقبضته الحديدية على أصابع يد أحمدبيك أقوى فأقوى.

لم يخطر لأحمدبيك حتى مجرد تجربة قواه معه، بينما أجاب برصانة، وان شاب كلامه شيء من الأسى، على استفسارات البهلوان الفتي، محاولاً قدر الامكان سحب أصابعه من يد الشاب بروية.

لو ان أحدا كان قد مر تلك اللحظة في الشارع ورأى حديث البهلوانين المسالم، ومصافحتهما، لظن بالتأكيد أن البهلوان الشاب يقدم فروض الاحترام لمصارع مشهور في هذه الوقفة، ولكن البهلوان الشاب كان يفكر بأمر آخر تماماً...

تنشق أحمدبيك نفساً وقد أحس برائحة الكحول تنبعث من البهلوان الشاب، ففهم أن هذه المصافحة قد لاتنتهي بخير، فسحب يده بحركة حادة من يد الشاب.

ارتعشت زاويتا فم محمدمراد امتعاضاً، فيما لاح الشر خطفا في عينيه، فحاول الامساك ثانية بيد البهلوان المجرب، ولكن أحمدبيك لامس كتفه، وقال بهدوء:

– لو انزلت الكيس على الأرض على الأقل...

تناهى من كلمات احمدبيك لوم، وشيء ما يشي ان ليس من الاحترام القاء التحية على الكبار، والكيس معلق هكذا باليد ودون اهتمام.

أنزل محمدمراد الكيس الى الأرض، ولكن الكيس راح يتمايل موشكا على السقوط، فحركه محمدمراد قليلا آملا أن يجعله أكثر ثباتاً على الأرض، غير أن الكيس انحرف الى جانب متهاوياً، فرفعه احمدبيك آنذاك بيسراه بيسر، ممسكاً به من رقبته الملمومة المشدودة، وأسنده الى جدار الطوف.

– بني –، قال أحمدبيك موجهاً نظره مباشرة الى عيني محمدمراد، ناوياً استغلال حق كونه الأكبر لاعطاء البهلوان الشاب نصيحة طيبة بشأن عدم تناول المسكرات – البعض يشرب من أجل استثارة المرح في نفسه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآخر في الحقيقة يشرب لكي يتخيل نفسه أذكى وأقوى. ومحمدمراد بلا شك ليس من الجماعة الأولى ولا من الثانية. هذا بالذات ما أراد آحمدبيك قوله من كل قلبه الى الشاب، متمنياً له الخير، ولكنه اذ رأى عيني محمدمراد توقفت الكلمات في حنجرته، فقد كانتا تشعان كراهية صريحة، وفيما عربدت في وجهه ابتسامة ساخرة.

لم يكن أحمدبيك يشك من قبل أن الشاب يضمر له لسبب ما نفوراً عميقاً، رغم أنه كان اثناء التقائهما يبدي له آيات الاحترام والتبجيل، حتى يكاد يلامس الأرض في انحنائه له. أما الآن بعدما شرب الخم فانه لم يحاول اخفاء عدائه له... تعكر مزاج أحمدبيك، فكأن غيمة سوداء ألمت بروحه، أو كأن الآن، في هذا المكان قد أحاق به مصاب جلل فأهوى ركيزة هدوئه فجأة...

٣

وصل أحمدبيك الحفل صحبة المعلم سليم الذي تربطه معه منذ الطفولة صداقة، ظلت عراها صالحة، رغم أن سليم أنهى المدرسة التربوية في غارما فأصبح معلماً، ثم مديراً لمدرسة بعد تخرجه في معهد التحق به طالباً خارجياً، لينتخب من بعد رئيساً لمجلس القرية. وكان قد فرغ من مهنة التعليم منذ أمد بعيد، الا أنه ظل يعرف بكنيته القديمة: المعلم سليم.

اقتيد الصديقان الى الشرفة – الأيوان، وأجلسا مع أكثر الناس مدعاة للاحترام، فيما حملت الصواني مكللة بالفواكه والأطايب.

كان الحفل قد بدأ منذ الصباح، ولكن أحمدبيك وصديقه كانا قد دعيا لحضور القسم المسائي منه كضيفي شرف مكرمين، حتى أن صاحب الدعوة بذل المستحيل من أجل أن يقضيا الوقت عنده على أفضل وجه.

وكان الشباب قد تحلقوا على كنبة عريضة تحت شجرة توت ضخمة سخية الأغصان. حيث جلس في مكان الصدارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المهندس الزراعي، وعلى جانبيه المعلم والطبيب البيطرى، فالشباب الذين كانوا يتواجدون عادة بالقرب من مركز ادارة الكلخوز، ممن كانوا يعتبرون من نشطاء القرية، وكان من بينهم محمدمراد أيضاً، الذي راح يتكلم بصوت عال عن مباريات دوشنبه وغيرها من المدن الأخرى. وكانت أصوات الحاضرين من الشباب ترتفع دقيقة فدقيقة أعلى فأعلى، بينما خرج هواة المغنين حسب الدور الى وسط الباحة، فغنوا بمصاحبة الدائرة، والرباب، و الدومبرة*، مقلدين مغني المدينة أحياناً بالتجول أثناء الغناء بين الضيوف.

لم يعبأ أحمدبيك كثيراً بهذه الأغاني. «يبدو أن امكانية السيطرة على العواطف تضعف لدى المرء مع مرور الأعوام» – فكر الرجل، متذكراً أنه كان يستطيع، قبل أعوام عشرة أو حتى خمسة، تهدئة نفسه بنفسه اذا ما أصابه ضيم من أحدهم، «والناس يختلفون اختلاف الأصابع عن بعضها البعض»: واصل التفكر، وتذكر أيضاً الحكمة الشعبية التي تقول: «لا تبتئس اذا رأيت طالحاً يعلو صالحاً، فحتى النهر تعلو القاذورات سطحه أحياناً، بينما اللؤلؤ يكمن في القاع». بلى، كان يستطيع قبل بضعة أعوام لجم عواطفه بسهولة، أما الآن، ويا للأسف، فهو يبقى مضطرباً أسبوعاً كاملا حالما يعكر مزاجه أحدما.

انه لأمر طريف، ما الذي يريده محمد مراد هذا؟ لقد استطاع التغلب على جميع مصارعي المنطقة، وحاز على الجوائز وآيات الشكران، أو كما درج على القول اليوم: شهادات التقدير، وأرسل الى جميع المحافظات الثلاث، والى دوشنبه أكثر من مرة، وكذا مرة الى الجمهورية الجارة، الى فرونزه على الأغلب... فهل هذا قليل ياترى؟ انه راغب بالتأكيد أن يطرح أحمدبيك أرضاً وأمام أعين العالمين، ليعلم بذلك الداني والقاصي!

ولكن أحمدبيك قد هجر المصارعة منذ أربعة أعوام،

---

* وهي آلات موسيقية وترية – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معتبراً أن المساهمة في المباريات لم تعد لائقة به: فهي نصيب الشباب. هذا يؤكده خروج أترابه من البهلوانات من الميدان، وهكذا، فللمصارعة أيضاً قوانينها غير المدونة.

أم أنه يحسن عدم الالتفات لكل تلك المواضعات، فالامساك بهذا الفتى الغر غير المؤدب، واعطاؤه درساً؟ لقد أتيحت فرصتان مناسبتان لهذا الأمر في العام الماضي: الفرصة الأولى منهما لم تكن في الواقع مناسبة تماماً. كان أحمدبيك عائداً من المستشفى وقد أثقل عليه مرض زوجته، فيما جرت في الساحة الرياضية بمركز المحافظة مباراة بين المصارعين، كان محمد مراد يجول متواثباً في الميدان في مظهر مقحام متحديا الآخرين للاشتباك معه، وسروال التدريب كان مشمراً حتى ركبتيه، كاشفاً عن عضلاته البارزة، والعشب ناعم كسجادة تحت قدميه الحافيتين، يخفق مرفرفاً أطراف صديريه القصير في الريح؟ فكأنه ديك قتال يستعد للهجوم على خصمه. ومن وقت لآخر ينتزع طاقيته عن رأسه ليمسح بها وجهه المعرق، رامياً الى الجانبين نظرة مهددة، فكان واضحاً أنه أفلح في التو في التغلب على عدد من المصارعين، منتظراً في جولانه نزول آخر جديد، الا أن أحداً لم يجرؤ على الطلوع اليه.

ولما لمح محمد مراد أحمدبيك قادماً حياه بنصف انحناءة، ثم شمخ. برأسه بكبرياء صريح، وطعن البهلوان القديم بنظرة ذات معنى. فقال أحمدبيك بصوت عال مواصلا طريقه:

– احسنت يا بني! لك الحيل والقوة!

في مرة أخرى غير هذه، اقتاده المعلم سليم الى هذا الميدان نفسه، فطرد حكم المباراة الرئيس الشبان من المسطبة الخشبية الوحيدة التي كانت في فيء شجرة الدلب ليجلس الضيفين الكريمين. كان ذلك قبل فترة وجيزة من أعياد ذكرى ثورة أكتوبر، فيما تبارى أكثر من ثلاثين مصارعاً جاءوا من مختلف أرجاء المحافظة. وقد كوفيء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنتصرون براديوهات ترانزستور، وساعات، وبدلات، وأرواب، وجوائز أخرى مختلفة.

تغلب محمد مراد على آخر خصم. ثم طرح أرضاً شابين آخرين من قرى الجبل النائية، غامراً بتجريب قواهما معه. ثم راح محمد مراد يختال متواثباً. في الميدان نافخا منخاريه وشدقيه فكأنه جواد يدور حول خابور ربط اليه، ملوحاً بطاقيته كما جرت العادة. كانت له رقبة كاسحة، وعضلات ذراعيه يمكن مقارنتها ببطيخات على وشك النضوج، فيما اندغمت عضلات ذراعيه، قدميه، رقبته، صدره، بعضها ببعض، متواثبة لدى أدنى حركة يقوم بها. وتلامعت قطرات العرق على جسمه في أشعة شمس ما قبل المغيب.

لم يتقدم أحد بعد لمنازلة محمد مراد، فاقترب هذا من المنضدة المغطاة بقماش أحمر، وانحنى أمام الحكم، هامساً بشيء ما. ولكن رئيس اللجنة الرياضية أجاب عليه بهز كتفيه.

كان أحمدبيك يتحدث مع المعلم سليم لايتوقع شيئاً عندما تردد فوق أذنه بالذات صوت الحكم الرئيس وهو يتوقف بالقرب من المسطبة التي جلس عليها الصديقان القديمان:

– أحمدبيك! أحمدبيك! محمد مراد يسأل ما اذا كنت قررت اعتزال المصارعة نهائياً؟

احمر أحمدبيك: اذن هذا هو ما يعنيه كل ذلك الهمس وهز الكتفين! فالمصارع الشاب لايخلو من نباهة كما يبدو في واقع الأمر... حسناً، كما يقول المثل: مرحباً بكل ما هو آت! لم يعد له ثمة مخرج الآن: لسوف يستجيب المتحدى...

ولكن المعلم سليم وضع يده على كتف أحمدبيك مانعاً اياه من النهوض عن مكانه مخاطباً الحكم.

– أحمدبيك ترك المصارعة منذ وقت طويل، وأنت تعرف ذلك جيداً، فلم السؤال! رباه! ما هذا الذي أوقعته على رؤوسنا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دمدم الحكم ببضعة كلمات اعتذار، ثم عاد الى مكانه، وأعلن بأن مباراة المصارعة قد انتهت.

راح المتفرجون يتفرقون.

ومر موكب المعجبين بمحمد مراد قريباً من أحمدبيك، فلم يوجه الشاب نحو المصارع القديم نظرة. وكان قد حاز جائزة ساعة يدوية وروبلاً، وقال متخذلقاً بصوت مرتفع:

– لقد آن آوان فتح محل لبيع الساعات مادمت أحصل على ساعة في كل مرة!

وكان المعلم سليم يسير الى جوار أحمدبيك السادر في فكره يحاول تهوين الأمر على صاحبه بتعليقاته وملحه.

– ما الذي أزعجك هكذا؟ الآن لك أحفاد بينما عيناك أنت ما زالت على الحلبة! ان كنت مولعاً بالمصارعة هكذا، هيا اذن لمنازلتي.

– أنت؟

– وماذا في ذلك؟ أنسيت كيف كنا نتطارح في صغرنا؟ أذكر أنني رميتك أرضاً مرة أو مرتين...

ضحك احمدبيك مرغما فيما أجاب بنبرة متفكهة:

– الحقيقة حقيقة. ولكن ذلك حدث في الصغر. أما الآن فأنت رئيس مجلس القرية، أي السلطة السوفييتية نفسها. ومصير أولئك الذين حاولوا منازلة السلطة السوفييتية معروف...

٤

كانوا قد انتهوا من تناول الشوربة منذ فترة طويلة. والمطربون يواصلون أنشاد أغانيهم، فيما الظرفاء يتبارون بالقاء الملح والنوادر. ويتبادل الكبار في السن، الجالسون في الأيوان، بعضهم مع بعض ذكرياتهم عن الماضي. وموضوع النقاش يتبدل في حلقة الشبيبة بين دقيقة وأخرى، وصوت محمدمراد الصارخ يتعالى بينها. فقال المعلم سليم مشيراً الى ناحيته:

– شاب ملحاح، رغبة تجريب قواه معك لاتبارح رأسه مطلقاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكد أحمدبيك:

– بلى.

– لا يعجبني هذا، لسوف أتحدث معه غداً بالتأكيد.

– وماذا سوف تقول له؟

– لا تخش شيئاً. أعرف ما علي قوله.

وفجأة خمن أحمدبيك ما يفكر به صديقه. لقد كان أحمدبيك فلاحاً طيلة عمره، وهذا أمر لايتطرق اليه الشك، والفلاحون على العموم قوم بسطاء القلوب. وها هو يفهم الآن فقط ما يفكر به المعلم سليم: لم يتبق من بهلوان احمدبيك سوى الصيت! هذا هو السبب الذي جعله في العام الماضي عشية أعياد أكتوبر لايسمح بخروج احمدبيك الى الحلبة، وهذا هو السبب أيضاً في جعله يفكر الآن بالتحدث غداً مع محمد مراد ليحول دونه ودون المس بصديقه القديم. فالحمدلله انه لم يقص على صاحبه المعلم سليم ماحدث له مع محمد مراد. صباح اليوم، أثناء انتظاره في الشارع، والا كان سليم قد استدعى محمد مراد الى مجلس القرية وجر له أذنه كما ينبغي. فيا له من عار أوشك على الوقوع! فقال أحمدبيك بصوت خفيض كي لايستأثر بانتباه المجاورين:

– سليم! بودي أن أقول لك شيئاً ما...

– قل، أنني مستمع اليك.

– أنت تعرف نسيبي؟ بلى، بلى، اللحام. انه يمتلك خاصية لطيفة... اذا أردت أن تنحر خروفاً، بقرة، أو عجلا، فانه طالب منك بالتأكيد أن تريه الدابة أولا. فاذا كانت خروفاً فأنه يمسك به من قذاله ويرفعه ثم يضعه على الأرض، ويتحسسه. واذا كانت بقرة أو عجلا فانه يمسد عليها تحت صدرها، ثم يمسك بها من صهوتها، ويخضها، ثم يقول: وزن دابتك كذا، وزن لحمها كذا، ووزن الشحم كذا وكذا. فاذا قدر لك بعد الذبح ان تزن اللحم والشحم فأنك لواجد انه لم يخطىء التقدير كيلوغراماً واحداً.

– وماذا في ذلك. أنا أيضاً أعرف انساناً شبيهاً بنسيبك. انه الطحان نارزي، ما ان يلقى نظرة على كيس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحبوب حتى يعلن عما لديك من وزن بدقة تفوق دقة الميزان.

– يا سلام! اذن فقد فهمتني...

– ورغم ذلك، ماذا أردت أن تقول؟

– عندما كنت أمارس المصارعة كنت أستطيع تحديد قوة الخصم من النظرة الأولى.

– والآن؟

ظل أحمدبيك جالساً في صمته دقيقة، ثم قال:

– والآن أيضاً.

أومأ المعلم سليم برأسه باتجاه الكنبة العريضة التي اجتمع عندها الشباب معقباً:

– وهل تستطيع معالجة أمر هذا المنافس على العرش؟

– انه حسود. لساني لم يطاوعني على قول هذا من قبل، ولكنه هكذا فعلا: حسود. انه لم يبلغ العشرين بعد والحقد مالىء جوانحه حد التخمة. أنظر اليه فارى مبلغ كراهيته لي، فتنكسف روحي انكسافا...

– أنت شخص طريف يا أحمدبيك.

– لو كان حسوداً من عمرنا لقلت: الله معه. الحدبة يعدلها القبر... ولكن، كيف السبيل مع حسود لم يبلغ العشرين من عمره؟ عيناه سوداوان. فهل تصدق أن العينين السوداوين اللتين تغنى بها الشعراء العظام، وشبهتا بالزيتون الأسود، وكل شيء آخر بديع، يمكنهما أن تلدغا كذنب العقرب؟

فوافقه المعلم سليم:

– بلى، لنظرته وقع ثقيل.

ثم صمت متفكراً برهة ليضيف:

– نظرته غير مريحة. ولكنك انت أيضاً غريب الاطوار! فالناس مختلفون، وأنت تريد من جميع البهلوانات أن يكونوا عادلين طيبين مثل نوروز.

– لا أدري. لا أستطيع أن أوضح لك مايدور بين جوانحي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدم البلوف في هذه الاثناء، فأخرج أحمدبيك سكينه وراح يقطع اللحم، بينما تقدم اليه ابن صاحب الدار حاملا بين يديه رغيفاً رقيقاً وعليه قطعة كبيرة من اللحم مع نخاع العظم...

– هذا للعم أحمدبيك.

قال الصبي ذلك مرتبكاً، وقد بدا عليه واضحاً أنه يقوم بمهمة التضييف لأول مرة، فسأل المعلم سليم متناولا الرغيف منه:

– من ارسل هذا؟

أجاب الصبي:

– محمد مراد.

تبادل الصديقان فيما بينهما نظرات لها ذات المعنى.

٥

خرج أحمدبيك من الحفل مهموماً مغموماً وراغباً الانفراد بنفسه، ليفكر...

وكان البدر يفضض هامات الجبل، فيما أكوام القش تتلامع في نوره مثل الكهرمان المجلي، آلاف جداجد بدأت تسابيحها الحزينة وعلى خلفية هذا الصرير على صوت واحد بدا رنين آلتي الدومبره والرباب المتناهى من القرية بعيداً غريباً على أذني أحمدبيك.

كان الحارس العجوز ينام على سرير حديدي ضيق بالقرب من المطحنة، وفي الأسبوعين الآخيرين عمل أحمدبيك أياماً كاملة على أكوام الحبوب وأحياناً كان يأتي في الأمسيات ليقضي ساعة أو أكثر مع العجوز.

فلما رأى أحمدبيك الحارس العجوز نائماً توجه الى شجرة الدلب الوارفة الظلال، التي تمنح في النهار فيئاً سخياً بارداً يجعل المكان مناسباً جداً للراحة، فجلس هنالك. لأكوام الحبوب هذه جميعاً ميزة طيبة فهي تمنح المرء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعوراً بالاطمئنان والهدوء، ما ان جلس اليها ساعة أو أكثر، مهما كان يشكو في جوانحه من غم وهم.

ولكن ثقيل الأفكار لم يبرح اليوم ذهن أحمدبيك. فمصافحة محمدمراد المهينة له، ونظراته المفعمة بالكراهية، واللحم مع نخاع العظم الذي أرسله اليه أمام أعين الجميع، مما له اشارة خشنة الى أن قوى أحمدبيك على وشك النضوب فعليه تدعيمها كل ذلك خلف في نفسه أثرا ثقيلا لم يستطع اغفاله مهما حاول. فتنهد أحمدبيك.

«لقد اسكر المجد الشاب تماما. «مرض النجوم» أداخه. سليم يقول الحقيقة: الناس مختلفون، كل على هوى...»

دبت الحياة في ذاكرة أحمدبيك بعدد من المواقف التي مر بها في فتوته، فتذكر لقاءه ببهلوان نوروز...

كان العملاق نوروز في تلك الأعوام مشهوراً تماماً، ذاع صيته في جميع أرجاء الدروازة. ورغم أن احمدبيك آنذاك كان لما يزل جديدا في الهواية فقد وصلت أخبار انتصاراته الى اسماع مصارعي وبهلواني المناطق المجاورة. ولعل ذلك نجم من أن المصارعة أقيمت في بؤرة معمعان أعمال البناء في طريق بامير العام فصادف أن حاز أحمدبيك في عيد عمال الطرق على أول انتصاراته. ومن المعلوم أن ما يحدث على قارعة الطريق يصل عادة اسماع الآخرين أسرع بكثير من غيره. وكان قد تجمع لبناء المشروع آلاف الناس من مختلف أرجاء تاجكستان، في الوقت الذي كانت فيه المصارعة واحد من أفضل الاستمتاعات لدى البناة.

ذات مرة كان أحمدبيك يقتاد حصانه الأعرج الى القرية الفوقانية حيث الطبيب البيطري. ورغم أن الحصان كان يخطو بصعوبة على قائمته المصابة، نزل أحمدبيك به رغم ذلك من الطريق الى الممشى المجاور كي لا يلتقي بأحد، فكل كان سيسأل بالتأكيد عما حدث للحصان، ومتى وقع ذلك، وما اذا كان أحمدبيك قد جمع له قدراً من ذلك العلف، من ذلك السفح الفلاني، وما اذا كان قد لف به

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائمة الحصان، أو استنجد بماء شاف يجري من ذلك الينبوع الفلاني، وما شابه وقارب ذلك.

توقف أحمدبيك فجأة عند أحد منعطفات الدرب، فقرب الحصان خطمه اللدن من رقبة صاحبه، ونفث نفساً حاراً، كأنما يسأله عما حدث به الى هذا التلبث المفاجىء: كان ثمة رجل يؤدي صلاته على قماشة تحزمه وقد مدها على الأرض، على مبعدة ثلاثين خطوة من أحمدبيك تحت شجرة جوز تجاور ينبوعاً، وقد جثا على ركبتيه مواجهاً للخيال فيما أحنى رأسه وراح يتمتم بدعائه هامساً. كان العرف يقضي بألا يزعج مؤدي الصلاة. فرمى أحمدبيك لجام الحصان الى أقرب حرش، وجلس على صخرة منتظراً انتهاء الغريب من صلاته.

وبعد مرور بعض الوقت سمع صوت من جهة الينبوع ينادي عليه:

– تعال هنا يا بني!

فرش الغريب قماشته في مكان آخر، ثم أخرج من خرجه خبزاً، مشمشاً مجففاً، زبيباً، بيضاً مسلوقاً، ومأكولات أخرى. ثم استقام الغريب في جلسته، ففهم أحمدبيك في الحال أنه أمام بهلوان.

حيا بعضهما بعضاً، وتبادلا السؤال عن الصحة والحال. ثم استفسر الغريب وهو يشير الى الجهة التي ظهر منها احمدبيك:

– أانت من هذه القرية؟

– بلى.

– لنقتسم ما قسمه الله لنا يا بني، والا فأن اللقمة لن تمر ببلعومي.

كان الغريب يتحدث بترحاب شديد، برقة، وبابتسامة طيبة. فلم يستطع أحمدبيك، رغم عجلته، أن يرفض طلبه.

جلسا الى السفرة، وراحا يأكلان ويتبلغان بالماء الرقراق الجاري من الينبوع قاطعاً درب عابري السبيل، متجهاً الى نهر بانج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيما رفع الحصان قائمته المصابة، شاخراً بين وقت وآخر هازاً رأسه، وهو يوجه الى صاحبه نظرة شاكية.

استفسر عابر السبيل من أحمدبيك عن اسم رئيس الكلخوز في القرية، وأبدى اهتماماً بمن يقوم مقام المختار فيها، فأجاب أحمدبيك بما استطاع من تفصيلات، حتى قال عابر السبيل:

– قبل بضعة أعوام استضافتني قريتكم، وقد أعجبني المقام فيها، فهي قرية طيبة، وجوها رائق، وأناسها مضيافون خيرون.

واذ انتهى من مضغ قطعة الخبز المغموس بماء الينبوع، سأل فجأة:

– أتعرف شخصاً اسمه أحمدبيك؟

راح قلب الفتى الشاب يخفق بشدة، فتساءل:

– أي أحمدبيك؟

– وهل عندكم كثيرون من أحمدبيك؟

– هنالك واحد فقط بين الراشدين.

واذ شعر أحمدبيك بهفوته، تضرج وجهه خجلا. ولكن عابر السبيل كان في ذلك الوقت يبحث لحسن الحظ في خرجه فلم ينتبه الى ذلك.

– ذلك من أقصده بالذات، البهلوان.

– انه حي معافى.

– يقال انه قوي وماهر؟

فدمدم أحمدبيك غير عارف انى يولي بوجهه من الخجل وهو يتحدث عن نفسه بضمير الغائب كما لو كان غريباً:

– انه قوي بلى، ولكنه مازال فتياً بعد...

– ولكن الفتوة والمصارعة يناسبان بعضهما بعضاً جيداً يا بني.

– ربما أيها السيد المحترم...

– ولكنك يا أخي تمارس المصارعة أنت أيضاً، لقد تبينت ذلك حال رؤيتي لك... فما اسمك؟

انعطف الحديث على غير هوى أحمدبيك، ولكنه لم يكذب، ولم يقل الحقيقة في نفس الوقت، فاذا كشف لمحدثه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن عن اسمه حق له أن يزعل عليه، اما اذا ذكر له اسماً آخر غير اسمه الحقيقي فأنه سيوغل في مستنقع الكذب أكثر فأكثر... فقال مرتبكاً، داعياً ربه أن لا يعيد عابر السبيل السؤال عليه:

– أدخل الحلبة أحياناً.

– وهل حدث لك أن تصارعت مع أحمدبيك؟ أخشى أن يكون قد طرحك أرضاً.

– كلا، تعادلنا في النزال.

– هكذا؟!

هتف عابر السبيل بذلك ونهض عن مكانه.

فنهض أحمدبيك بدوره، بينما نظر اليه محدثه من أخمص قدميه الى رأسه متفحصاً، وشع وجهه بابتسامة طيبة، قال:

– أتود أن تجرب قوانا يابني؟

فأجاب أحمدبيك ملقياً نظرة على حصانه:

– وكيف ذلك، فأنا...

فألح عابر السبيل وابتسامته لا تفارقه، فكأنه يبتسم لنفسه على هذه الطرفة التي ابتدعها: ان يقترح المصارعة على أول من يصادفه الطريق.

– لن يأخذ ذلك منا وقتاً طويلا.

– ها هنا في الحال؟ كيف ذلك؟..

– بلى، ها هنا. وما السيىء في هذا؟ لسوف نمرن عضلاتنا حسب.

ثم جثى عابر السبيل على ركبتيه أمام سفرة الطعام وتلى دعاء شكران بعد الغداء.

فأمر أحمدبيك يديه على وجهه بدوره، لاهجاً بكلمة: «آمين».

– أرى انك لا تتحزم بمحزم، – قال عابر السبيل ذلك ورفع منديله لينفض عنه فتات الخبز في جدول الماء، ثم لفه، وتحزم بها بعد ذلك.

أخرج من خرجه منديلا حريراً أصفر، لواه ضفيرة بحركة ماهرة، ومده الى أحمدبيك لعقده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر احمدبيك اليه في ذات الارتباك الذى اعتراه من قبل، فقال محدثه، وهو يحزمه بالمنديل:

– ايه، أرى انك متواضع.

وكان قد انتوى عقد المنديل، ولكن أحمدبيك شكره على مسعاه، وراح يعقده بنفسه.

لقد أثر لطف عابر السبيل ودماثته في أحمدبيك، فهو لم يلتق من قبل أبداً انساناً استطاع برقته وحسن كلامه أن يخضعه هكذا لمشيئته منذ أول دقيقة لتعرفهما على بعض.

راحا يتصارعان. وأحس أحمدبيك منذ البداية أن نزيله على قدر من القوة والمعرفة بمختلف أساليب المصارعة يفوق كثيراً ما وجده حتى الآن عند جميع من قدر له مصارعتهم من قبل. وبدا أن عابر السبيل قد فهم أن مظهر الشاب أمامه خداع، فلم يكشف عن كل ما عنده من فنون بعد. لقد أصبح واضحاً له أن عروق الشاب قد قدت من فولاذ.

– مهلا دقيقة، – قال عابر السبيل ذلك، ثم أضاف بعد أن تخلى أحمدبيك عن زناره:

– هيا لنمط عضلاتنا في مكان أعلى، هنالك رأيت مكاناً أنسب.

استمر النزال في المكان الجديد عشر دقائق.

وقد نازل احمدبيك عابر السبيل دون حمية شديدة، ربما لأن الأخير كان قد أعجبه لخلقه، وربما لأنه لم يشب الى رشده بعد كاملا بعد هذا التحدى المفاجيء اليه. ولكنه راقب نزيله بانتباه كي لايؤخذ على حين غرة، وقد تأكد الآن تماما من خبرته، ومن كونه بهلواناً مجرباً. ليس الأمرة واحدة استطاع البهلوان المجرب أن يجر أحمدبيك اليه بقوة وفي نفس الوقت يوجه اليه ضربة قوية بقدمه، تحت الركبة، وذلك عندما تظاهر بالملل من هذه المنازلة المماطلة، حتى أن أحمدبيك كاد يسقط أرضاً. وبالتأكيد لو كان منتصباً في تلك اللحظة، الا أن جسمه لحسن الحظ كان منحنيا الى أمام، فلم يحدث سوى أن اهتز الى اليمين ثم استطاع السيطرة على قدميه: لحظة، وإذا بأحمدبيك يمسك بزنار غريمه بقوة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استجمع قواه ثم رفعه عالياً فوق رأسه، الا أنه أنزله في الحال الى الأرض بحذر.

بان تعبير من الدهشة على وجه عابر السبيل اضافة الى ابتسامته التي كانت مرتسمة عليه من قبل.

٦

عندما عاد أحمدبيك مساء الى البيت من البيطري، وجد ثمة ضيوفاً. أخذ أحدهم من يده لجام الحصان واقتاده الى مربطه. فيما مد الأب اليه قطعة نقدية ذهبية ثقيلة، فدهش أحمدبيك:

– ما هذه؟

– هدية لك من بهلوان نوروز.

راح الأب والضيوف يقصون عليه ما كان، مقاطعين بعضهم بعضاً، ففهم أحمدبيك أن عابر السبيل الذي التقاه في طريقه لم يكن سوى المصارع الشهير نوروز.

اتضح أن المصارع نوروز طلب عند توقفه في ادارة الكلخوز أن يستدعى اليه احمدبيك. وعندما عاد الرسول من مشواره أخبر سامعيه أن أحمدبيك كان قد توجه صحبة حصانه الأعرج الى الطبيب البيطري في القرية الفوقانية لمعالجته. واذ سمع نوروز العتريس هذا توجه الى بيت أحمدبيك قاصداً والده، حيث سلمه عملة ذهبية، قائلا: «ادع لابنك لقد التقيته في الطريق. لسوف يكون في المستقبل بهلواناً كبيراً».

...بعد مرور عام مضى بهلوان نوروز الى الحرب، وبسرعان ما استشهد. ولقد أكد الثقاة أن العملة الذهبية التي تركها نوروز لأحمدبيك كانت من الذهب الخالص، وعليها كتابة باللغة الكشميرية القديمة.

وقد احتفظت زوجة أحمدبيك، بعد توجه زوجها الى الحرب، بهذه العملة عامين كاملين كذكرى من انسان طيب. ولما قام طلائع وكمسمول القرية بجمع الأصواف، والجلود، والملابس الشتائية والأحذية معونة للجبهة سلمت زوجة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحمدبيك بدورها هذه العملة اليهم قائلة: «ليعد سيدي حياً معافى، فهو أغلى عندي من كل ذهب».

لم يقص أحمدبيك لأحد عن نزاله مع بهلوان نوروز، لا في ذلك اليوم ولا بعده. وكان يحمر خجلا في كل مرة يتذكر فيها هذه الحادثة لخداعه دون قصد رجلا محترماً أكبر منه سناً. ولكن الحادثة اصبحت معروفة لقيام المصارع نوروز نفسه بسردها على الاسماع حيث كان ينهي ذلك دائماً بكلمات: «لم يطرح أحد منا الأخر على الأرض. ولكنني أعترف بأن أحمدبيك الشاب هو المنتصر. والله يشهد انه احترمني كضيف وكذا عابر سبيل».

ثم راح الناس يضيفون بعد ذلك الى هذه القصة من عندياتهم الكثير، يزينونها تارة، ويحرفون فيها تارة أخرى، كل على هواه، حتى تحولت هذه الحادثة الحقيقية الى أسطورة.

٧

حمل نسيم المساء الى أكوام الحبوب روائح النعنع وهدير مياه نهر بانج. وتناهى الآن من باحة البيت الذي أقيم الحفل فيه، صوت مغن واحد حسب، فيما تفرق الآخرون الى بيوتهم كما يبدو، فوجد هذا المغني الذي كان من قبل يؤدي وصلته حسب الدور، نفسه وحدها في الساحة، فراح يستعرض ملكاته بكل قواه.

كان بهلوان أحمدبيك ما يزال جالساً متكئاً الى شجرة الدلب عندما سمع فجأة وقع خطوات. هنالك من يسير على الطريق الممتدة من القرية، محتزاً بعنف العشب العالي النامي بموازاة الجدول بعود.

كان من الصعب تبين هوية طارق الدرب من بعيد رغم الطفاوة الساطعة للقمر المتربع في عرش السماء عالياً فوق الجبال.

واذ تطلع أحمدبيك الى القادم متفحصاً بامعان تعرف فيه على شخص محمد مراد، فأحس بشيء من الانزعاج، وفكر: «واذن، والوقت والمكان مناسبان تماماً. والشاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبحث عني بالطبع، فما العمل؟ أيعقل أن أستجيب لتحديه؟ ولكن أيستحق هذا العاق نزالا نزيهاً؟ ما العمل؟»

نظر محمد مراد بامعان الى الظلمة المتكاثفة تحت أغصان شجرة الدلب، وسأل:

– أ أنت هذا يا أحمدبيك أكا*؟

لم يرد أحمدبيك وظل رازحاً تحت ثقل فكره كما من قبل. يبدو أن القدر كتب عليه منازلة هذا الشاب الفج الحاد ليعلمه درساً، ويثبت له ان أحمدبيك ما يزال هو نفسه ذلك البهلوان طويل الباع. بيد أنه، رغم ذلك، لا يحسن له مصارعة هذا الشاب... فأين هو المخرج؟

بينما غمغم محمد مراد نصف سكران فوق رأس أحمدبيك:

– أكا العزيز، نحن في الحقيقة لا أكثر من رماد تحت قدميك، رماد لا أكثر. ولكنني فكرت أن امتناعك عن منازلتي في الميدان، ورفضك المشاركة في مصارعة اليوم، انما يعني انك لا ترغب منازلة أحد أمام الملأ، فهل أراك موافقاً على ذلك هنا؟ أم أنني أجانب الصواب، فالمعذرة يا أحمدبيك، نحن لا أكثر من رماد تحت قدميك، المعذرة رجاء...

كان محمد مراد اثناء ذلك يحل ويشد في زناره.

فجأة خطر لأحمدبيك فيما يشبه الالهام تلك الطريقة التي كان يلجأ اليها للتخلص من أولئك اللجوجين الذين كانوا يحاولون ارغامه على منازلتهم قبل عشرين عاماً أو خمسة وعشرين، فكيف لم يتسن له تذكر ذلك من قبل! فقال أحمدبيك:

– حسناً، حسناً، لا داعي لهذا التلبك طويلا. لقد خمنت منذ أمد بعيد ما يشحذ فيك...

فراح محمد مراد يغمغم من جديد مقاطعاً احمدبيك:

– المعذرة يا أكا...

ولكن أحمدبيك لم يفسح له مجالا ليكمل:

---

* الأخ الأكبر – صيغة لاحترام كبار السن. وهي تضاف الى الاسم أيضاً – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– اسمع، انني مستعد لمنازلتك مادمت جئت الى هنا من أجل ذلك. غير أن لي شرطاً واحداً...

– ليكن ألف شرط، انني موافق مقدماً عليها من كل قلبي...

– بداية عليك تنفيذ شرطي الوحيد.

– بكل سرور ورضى، قل حسب! فديتك قرباناً!

– أرفعني من مكاني.

– أنت؟ من مكانك؟ لحظة لا أكثر...

تقدم محمد مراد الى الأمام، فمد أحمدبيك يمناه اليه، فيما اتكأ بقوة على جذع الشجرة غارزاً عقبيه في موطئين مناسبين، وابتهل في داخله: «أتوجه اليك يا شفيع المصارعين ان لا تدع العار يكلل رأسي... سند يا شفيع، سند...» كان أحمدبيك يلجأ في اللحظات الحرجة دائماً الى أحد الائمة الصالحين، غير المرئي لعينيه، من كان يعتقده شفيعاً ومعيناً له في كل الأمور.

اعتصر محمد مراد مجتذباً يد أحمدبيك، الا أن نأمة من الحركة لم تلح على البهلوان القديم. فقال الشاب دهشاً:

– ولكنك لا تنهض من مكانك!

– عليك أن تحاول اذن انهاضي!

باعد محمد مراد بين ساقيه، وجر أحمدبيك من رسغه بيد، ساحباً اياه بيده الأخرى من كتفه، بكل ما لديه من قوة. غير أن كتف أحمدبيك الأيمن حسب تزحزح قليلا، ولا غير. بينما ظل البهلوان القديم جالساً في مكانه.

لم تكن تلك المحاولة على الانهاض سهلة حتى لأحمدبيك نفسه. وعندما بذل محمد مراد محاولته الثانية لجره اليه، بدا لأحمدبيك أن قبة شجرة الدلب قد اهتزت، فيما أخذت تتراقص أمام عينيه بشدة نقط حمراء وسوداء.

واذ فشل محمد مراد في هذه المحاولة أيضاً صاح محتدماً:

– هذه ألعوبة! ليس في هذا عدالة! ماذا لو كنت أنا الجالس؟! هيا حاول زحزحتي عن مكاني، فاعترف لك بهذا...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهنف أحمدبيك ونهض. فيما ايقظت الضوضاء الحارس العجوز، فتوجه اليهما منادياً:

– من ذا هناك؟ ماذا حدث؟

– انه أنا يا نذار بآبا*.

طمأن البهلوان القديم الحارس العجوز، وانحنى نحو محمد مرداً الذي جلس في مكان أحمدبيك السابق، قائلا:

– اسند قدميك جيداً.

عدل محمد مراد من جلسته، سعل، ثم مد يده الى أحمدبيك.

تذكر أحمدبيك تباهي محمد مراد في الشارع نهار اليوم، فأمسك يده بقوة أشد وراح يجره عمداً ببطء ودون انقطاع حتى انهضه على قدميه.

واستفسر الحارس العجوز مقرباً منهما:

– أحمدبيك؟! ومن هذا الذي معك؟ وماذا تفعلان هنا في هذا الوقت؟ وبدا على محمد مراد أنه عاد لصحوه تماماً، بينما قال بصوت رشح بنبرة مترجية:

– مرة أخرى، أكا، أرجوك!

وفي المرة الثانية أيضاً أنهض أحمدبيك الشاب عن الأرض كما لو كان كيساً مملوءاً بالقش، وبقوة ماحقة جعلت الشاب يثب عن مكانه ويندفع الى أمام بضعة خطوات، مما أفار غيظه حد التمخط بصوت عال.

واذ تعرف الحارس العجوز على الشاب في نور القمر الساقط عليه الآن، راح يعنفه:

– ماذا لو دققت عنقك أيها الجرو! كيف تجرؤ أيها الكافر على رفع يدك على أحمدبيك؟! لتنزل لعنة على عظام جدك! ولترقص الشياطين على قبرك أيها التعس!..

وهنا حدث ما جعل الحارس العجوز يخرس، اذ صاح محمد مراد بكل صوته:

– صه!

غطت صيحته لحظة على كل ما عداها من أصوات في

---

* لمخاطبة المسنين احتراماً – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوادي وتصادت في الجهة الثانية من نهر بانج وقد عكستها منحدرات الجبال الممتدة طويلا. وأطلق المصارع الشاب صيحة ثانية:

– كلا! لسوف تصارعني كما ينبغي!

وقفز الى أحمدبيك جامحاً للامساك بزناره، ولكن أحمدبيك زاغ عنه بمهارة، مختطفا نفسه زنار محمد مراد بكلتا يديه، وكما لو كان رأفع اثقال عزم على رفع آخر وأثقل وزن في حياته، قرفص أحمدبيك على ركبة واحدة ورفع البهلوان الشاب فوق رأسه عالياً وفره مثل مروحة...

اقترب أحمدبيك بحمله من كومة القش، وهو لا يني يفره فوق رأسه، بينما محمد مراد يدافع ذراعيه وساقيه في الهواء دون حول ولا قوة، كما لو كان طفلا يلاعبه أبوه. جمد الحارس العجوز في مكانه، فاغراً فاه على سعته، ثم ضرب عصاه أخيراً بالأرض هاتفاً:

– أحسنت يا أحمدبيك! ليسلم رأسك من كل هم وغم! لقد نقدت هذا الولد العاق ما يستحقه!

واذ أصبح أحمدبيك قريباً من كومة القش قذف بحمله – محمد مراد اليها كما لو كان شيئاً فائضاً...

وعند ما عاد الى الشجرة نظر أحمدبك الى جانبيه دهشا كأنه يبحث عن أحدما، فقد تهيأ له أن عدداً من الأشخاص قد أطلقوا صفيراً في مكان ما قريب. وتوقف وقد ألصق راحتي يديه قوياً وراء أذنيه متنصتا لما قد ينبر، الا أنه فهم فيما بعد أن ذلك الصفير لم يصدر الا من رأسه نفسه، تماماً كما حدث قبل أربعة وعشرين عاماً عندما أطاحت به القذيفة المعادية.

دب القلق في ذهن احمدبيك خاشياً أن يعاوده مرضه القديم لهذا السبب أو ذاك، الا أن قلبه سرعان ما عاد الى وجيبه المعتاد، وخف الطنين والرنين في أذنيه، ثم اختفيا تماماً بعد مرور ربع ساعة.

ومد نذار بآبا يده اليه بابريق مسود من الهباب:

– خذ هذا، اشرب شاياً بارداً.

ارتشف أحمدبيك بضعة جرعات، ثم نظر جانباً الى كومة القش:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– أين ولى؟

– ذهب نزولا ينفض القش عنه مثل كلب، شكراً لك على ما فعلته معه يا أحمدبيك رغم أنه ابن أخي. يا سلام، أعطيته درساً لا ينسى. اوخ من ذلك الثعلب الصعلوك.

والتفت الحارس العجوز الى جهة النهر مدمدماً شاتماً، ثم ابتعد عنه هاشاً بعصاه.

واصلت الجداجد الأرقة أغنيتها القنوط كما لو كانت مرغمة على ذلك. بينما لم يتناه أي صوت من جهة الباحة حيث كان الحفل قائماً ثمة، ودغدغت روائح العشب والحبوب المدروسة بلطف خيشومي أحمدبيك.

سار هنا وهناك قريباً من كومة القش ناوياً العثور على الحارس العجوز لتوديعه، لكن هذا كان قد اختفى في مكان ما، فقال لنفسه: «لابأس، سنلتقي صباحاً». ومضى متفكراً الى القرية، بيد أنه لم يقطع مئة خطوة حتى استدار متوجهاً الى النهر نازلا.

كان العجوز واقفاً على المنحدر تحت شجرة.

فسأله أحمدبيك:

– وجدته؟

– ذاك هو، أنظر اليه.

كان محمد مراد جالساً على صخرة قريباً من مجرى البانج.

وأخشن الحارس العجوز القول:

– يبكي الثعلب، كان عليك أن تلوي عنقه. الوغد!

وفي نور القمر أصبح واضحاً تماماً كيف شلح محمد مراد قميصه وراح يخلع جزمتيه، بينما ودع أحمدبيك الحارس العجوز، ومضى الى بيته.

وفكر: «لسوف يسبح فتهدأ أعصابه، يقولون ان مياه البانج شافية...».

تربع البدر التمام كبد السماء، وسكتت الجداجد، وانداح نور القمر في السهب، وزمزمت مياه النهر.

١٩٦٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسول هادي زاده ولد عام ١٩٢٨ في سمرقند، في عائلة معلم. ناقد، اختصاصي في علم الأدب، ناثر، مسرحي. دكتور في علوم اللغة والأدب. مؤلف العديد من المقالات والبحوث في تاريخ الأدب التاجيكي الكلاسيكي والسوفييتي، وكذلك في أعمال كتاب مختلفين. أعطته معرفته العميقة بتاريخ شعبه مادة غنية لتأليف العديد من ساطع الأقاصيص والقصص والروايات والمسرحيات والسيناريوهات التاريخية.

الريح الهابة من شواطىء موليان

ينزلق القمر بين غيوم الربيع، ويضيىء من حين الى حين السهب الواسع الأخضر، فيما لهب النيران في الجنوب تنوس هافتة انذاك في بياض ضوء القمر، وتبرز أشباح الخيام ومن فوقها الرايات، لتذوب من جديد في غدراء الليل ما أن يتوارى الهلال وراء تلك الغيوم، وكأن يداً سحرية غير مرئية تؤجج مرة واحدة لهب النيران بسطوع يعشي الأبصار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتصب فارسان دون حراك عند الجدول المفعم بالمياه، ووجهاهما الى الشمال، ملتفتين أحياناً الى المعسكر النائم وراء ظهريهما. بينما تناهى من الغرب أحياناً نباح كلاب وصيحات ديكة من القرى البعيدة.

كان الجوادان الكميتان الموقفان، المتشبعان بالسكون يطرقان الأرض بحوافرهما، ويجران بخطميهما، وقد عيل صبرهما، لجاميهما الموشين بالفضة، كأنما يدعوان فارسيهما الى التحرك في الطريق.

تراقصت انعكاسات القمر على سطح الجدول الأملس القاتم المنداح في المدى حيث توارى وراء أشجار الحور. وتدحرج من تحت حافر الجواد حجر سقط في الجدول فشطر الهلال، بينما تلقفت المويجات شظاياه التي انتشرت على سطح الماء، وتشكلت من جديد في حلقة، فابحرت سفينة القمر المشعشعة الأضواء مرة أخرى بين أشرعة الغيوم المنفوخة السارية على الماء القاتم، واذ تمتع الفارسان بتلاعب الماء والضياء غفلا أمر الغيوم الزاحفة من الغرب، التي لملمت ماتبقى من طيوف الليل، فلم يعد بالامكان حتى تبين ملامح وجهيهما.

Telegram:@qbooks2018

استحث أحد الفارسين نفسه، فوضع رمحه على العشب الفتي، وراح يشد أحزمة السرج دون أن يتخلى عن الرسن من يده.

وناداه رفيق دربه دون أن يسحب نظرته عن لهب النيران:

– يا سفر! أنظر، ان معسكرنا ليشبه مقبرة في سكون الليل، حيث تتوهج شمعة فوق كل قبر.

يبدو أن سفر لم يسمع صاحبه. تناول رمحه بصمت، ووثب الى السرج.

– آن أوان العودة. كل شيء هادىء. هيا!

ودون انتظار «استدار بجواده ومضى مدربكاً به الى المعسكر. فلحق صاحبه به على عجل. وسارا خبباً، رأساً الى رأس. واذ نظر رفيق الدرب الى وجه سفر الغائم، قال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– لم أعد أرى ابتسامتك منذ أيام، فلعل مصاب قد أصابكَ وأنت تخفي عني ذلك؟

– لم يصبني شيء.

قال سفر ذلك بلهجة قاطعة، وواصل دربه الى أمام مطأطىء الرأس جامحاً.

وفجأة جمد جواده عند كومة أحجار، وانتصبت اذناه، فقد ركض أمامه بسرعة، على مبعدة بضعة خطوات، سولق عبر الطريق، وكانت عيناه المضيئتان المتلامعتان قد انخطفتا كجمرتين تحت خطمي الجوادين. فصهل جواد سفر عالياً مطمئناً الى حدما وواصلَ طريقه. بينما قال سفر وكأنه استفاق من نوم عميق:

– انني أفكر بأمي المسكينة ليلا ونهاراً منذ شهر، عندما سافرت وأنت تعرف يا عباس، انها لم تستطع النهوض من الفراش. ومنذ سبعة شهور وأنا لم أسمع عنها خبراً، فلا أعرف ما الذي جرى لها. حتى أنه يعذبني في الآونة الأخيرة خوف أنني لن أستطيع بعد رؤيتها. وقد قلت لها عند الوداع انني مسافر مدة شهر، شهرين،

– بلى، الحملة لم تعد تستهوي أحداً، وحتى اولئك الذين دفعوا الأمير اليها تجدهم آسفين الآن على ذلك، ولا يعرفون ما العمل، وكيف سبيل العودة الى بخارى.

ظل سفر صامتاً ينظر كما كان الى لهبات النيران قرب الخيام، فيما طارت فوقهما بومة صاحبها نعيق حاد، فعلق:

– يالبومة النحس، أترى؟ فأل سيىء، شارات الشؤم تلاحقني في الآونة الأخيرة، وقلبي خائف!

– وهل تصدق جميع الشارات؟

– لا ياعباس، الغيب يضمر شيئاً، في انتظارنا فجيعة، فجيعة! اليوم الثالث أرى هذا الحلم المخيف، فلا أستطيع الاثابة الى نفسي. لقد طاف لي أنني وحيد على حصان على مبعدة من معسكرنا. واذا النهر أمامي عريض، جد عريض، انظر الى المياه الصخابة، فأرى في الجانب الآخر هنا شيئاً ما يتحرك، أمعن النظر، فاذا بها أمي، تضطجع على الرمل، وترفع رأسها بين حين وآخر، لتنظر الي. وشعرها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشذب الأشعث يتهدل على وجهها المعذب القاتم السمرة. تمد يديها وتناديني، وصوتها يكاد لا يسمع. أما أنا فقد تحجرت: هنالك أفعى ضخمة تزحف من اليمين اليها ستلدغها ما أن تبدر مني حركة. نخست حصاني، وارتميت في الماء، فهج النهر وماج، بينما الحصان يصارع الدوامة بكل ما تبقى له من قوى، أنظر الى أمي، الا أنني لم أعد أرى شيئاً حولي، سبحت الى وسط النهر فسمعت هديراً رهيباً، لقد راح التيار يجرفني أقوى فأقوى، وهنا بهرت بصري نار، واذا بيد ما ماحقة تنتزعني من على الحصان وتقذف بي مرجعة الى الشاطىء حيث كنت واقفاً. أصرخ... فأفتح عيني لأرى فوقي قبة الخيمة، وكذا بعد ذلك ابا الفضل، وقد انحنى المسكين علي ينظر الي دهشاً متهيباً، فيما السيول تنهمر في الخلاء، والرعود تجعجع:

- ماذا دهاك تصرخ هكذا؟

أجيبه متقلباً على جنبي الآخر:

- تطوف لي أحلام سيئة.

ولا أستطيع النوم فترة طويلة، ما أن أغمض عيني، حتى تظهر الأفعى أو تناديني أمي. وها قد تذكرت الآن حين وقفنا عند الجدول، وتدحرج الحجر من تحت حافر الحصان فشق صورة القمر المنعكسة على صفحته، تذكرت ذلك النهر الصخاب والنار، مما رأيت في الحلم، فتخايل لي أن أمي تضطجع على ذلك الجانب من الجدول...

صمت سفر، وسمع عواء الثعالب في المدى، واومض البرق متكسراً الى الغرب مضيئاً الغيوم الواطئة.

تناهى من اليسار حيث القرية صياح بومة واهن، فذكر سفر ببومة أخرى، تلك التي حلقت فوقهما قبل قليل، فاستشعر مجدداً، وقد استثار صياح الطائر الليلي ثانية هواجسه، شارة الفجيعة تقترب منه لامناص من ذلك، فيما تلامعت أمامه عينا البومة المرعبتان، فطأطأ رأسه عاقداً حاجبيه.

أثارت حكاية رفيق الدرب عباساً بدوره، فيما خلعت لبه أصوات الطبيعة الغامضة. فراح يحاول تفسير أحلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحبه سفر بما يجلب الطمأنينة له، بيد أن أفكاره تاهت وتشعبت، فاستعصت الكلمات على عقله، ولم يجد بدا من أن يسعل. بعد ذلك قال:

– ان ما يربكك انما هو الشيطان يا سفر، فلا تهتم له. تشجع، ولسوف يكون كل شيء على مايرام!

لم يرد سفر. وكان المعسكر قد أصبح على مقربة، بينما تبدت للعيان أشباح الناس هنا وهناك حول لهبات النيران، وقد جلس ثلاثة محاربون عند خيمة رثة، وتغطى اثنان غيرهم باغطية صوف خشنة، وقد ناما ظهراً الى لهبة النار، عاقفين سيقانهما.

ما ان سمعوا دربكة الجوادين حتى التفتوا ناحية الفارسين المقتربين دون أن يشيحوا البصر عنهما، حتى اقتربا من لهبة النار. وسأل عباس بعد أن ربط جواده، جالساً الى النار:

– لم ينم الجميع؟... أعط يا سفر الجوادين قشاً وتعال الى هنا لتأخذ لك قسطاً من الراحة!

رمى الى النار حزمة من الحطب، وراح ينفخ عليها ماسحاً عينيه اللتين ادمعهما الدخان. فارتفعت ألسنة النيران أعلى فأعلى بين أعمدة الادخنة الزرقاء، منيرة وجوه المحاربين الوسنى، الشاحبة، التعبة. وتسربت حمرة خفيفة الى خدي سفر، الا أن البرد والقلق ظلا مهيمنين في روحه. وكان قد جلس الى جانب، ناظراً الى النار بجمود، محركاً جمراتها بعصا طويلة. وقال عباس مبتسماً مشيراً الى النائمين:

– نم جيداً قبل الخروج الى نوبة العس، ولسوف تظل نشطاً حتى الفجر. هل رأيت اليوم يا يعقوب منصوراً؟ كيف حاله؟

كان السؤال موجه الى جاره، فتنهد يعقوب، وأجاب:

– رأيته. يبدو أن حاله أفضل، ولكن عوده جف كما لو أصبح عصا، انه مسكين لاينظر الى أحد.

فعلق سفر بهدوء لئلا يسمع الآخرون:

– فقدان مثل هذا العملاق، كأخيه الياس، مصاب فاجع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– كأن الياس بحث عن الموت بنفسه، تذكر ذلك اليوم الذي لعبوا فيه الجافغان*. كنت ومنصور قد قلنا له ان لا يمتطي جواداً، اذ لم يكن قد أبل من مرضه بعد. الا أنه لم يستمع الينا: لكأن رغبة الأمير قانون.

اعتبر سفر موت الياس المفاجيء، تحطمه اثناء اللعب، شارة منذرة غامضة من القدر، وقد كان يفكر دائماً برعب ان بالامكان أن يموت هو نفسه هكذا، بهذه الطريقة الحمقاء، أثناء حملة أو صيد، من يدري، دون أن يرى أمه بعد. لم يكن الموت المفاجيء ما يرعبه، بل التفكير بمصاب الأم العجوز وهي تثكل بابنها، مما لا تستطيع احتماله أبداً. فلم يتدخل سفر في الحديث بعد ذلك محاولا أن يطرد من دخيلته هواجسه السود. ونظر الى الجوادين وهما يعتلفان القش بخشخشة، ودفع بيده حطبة الى النار.

قال يعقوب:

– الشاعر ردكي قادم.

استفاق الجميع من جمودهم، وولت الأفكار المبهظة عن رأس سفر في الحال.

سرى في العتمة، على مبعدة عشرين خطوة، أهاب رجل غير طويل القامة. بينما قفز عباس ووضع كلتا يديه على صدره مرحباً، وتبعه الآخرون في ذلك. كان ردكي يسير مطأطئاً رأسه. توقف بعيداً عن اللهبة ببضعة خطوات، ونظر ناحية المحاربين. فكان بالامكان تخايل ابتسامة سمحاء على وجهه فيما تبعثه النار من ضياء.

حياه المحاربون جميعاً بصوت واحد:

– السلام عليكم، يا محترم!

فأجابهم ردكي:

– وعليكم السلام. تصونون سكينتنا؟

– تمام، أيها السيد الكريم.

رد محارب بذلك، واسمه أبوليث، بصوت خاشع، بينما حنى الآخرون رؤوسهم باحترام علامة التأكيد.

---

* نوع من الرياضة الفروسية – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– لكم الثناء والشكران أضعافاً مضاعفة! الذود عن سكينة الناس فعل من أفعال البر. فليحفظكم سبحانه وتعالى!

عدل ردكي بردته على كتفيه، وتوجه الى خيمته دون انتظار رد. بينما تبعه المحاربون بإنظارهم حتى ذاب جثمان الشاعر الطويل ببطء في العتمة، فيما بدا من خلف انه محدودب الظهر.

وعلق يعقوب فيما كان الأول يعود جالساً الى مكانه:

– يبدو ان شاعرنا كدر النفس مادام قد غادرنا بسرعة هكذا. حدث، لو تذكرون، انه جالسنا حتى فترة متأخرة من الليل، تمازح معنا، قرأ الشعر، وأنشد الأغاني... ليست المرة الأولى التي رأيته فيها يجول بين الخيام وحيداً، فاذا أصطدم بي يستفسر لماما عن الصحة، ثم ينسحب بهدوء الى خيمته.

فلاحظ ابو ليث:

– تراه ربما ينظم شعراً جديداً، النور في خيمته ينوس كل ليلة حتى الصبح.

ونبر سفر، وأبتسامة ترتسم على شفتيه:

– أمس قرأ يحيى لي شعراً، قال عنه بأن ردكي نظمه أثناء سفرة مع الأمير الى ساراخس، يتغنى فيها ببخارى وذكرياته عنها. وما ان سمعت هذه الأشعار بمصاحبة الطار* حتى نسيت خلال لحظة وعثاء الأيام الأخيرة. فرجوته ان ينسخ لي هذا الشعر. يالها من لكلمات!

أخرج سفر من عبه ورقة وراح يمعن النظر فيها في ضوء النار ويقرأ:

من بخارى يهب النسيم ملآن
بعطر النعناع والياسمين والريحان

فيما يقول الغير: «يهب من خوتان
البردة يفوقها المرج زهى ألوان»

---

* آلة موسيقية وترية – **الناشر.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نسيم بخارى يجعل المرء سكران
يهب من حيث فالعشب بالحب ريان

أترنم باسمك يا بخارى صامتاً ولهان
وأخشى ذكره مسموعاً، فما يسمع له جنحان

لكنه يهجر الشفتين عامداً طائراً سرحان
وان كانت هناك عقوبة بادية للعيان!

لم يشح عباس بنظرته عن وجه سفر مادام هذا يقرأ في الشعر، وما تلذذ قلبه الحساس به انعكس على محياه، بينما سفر يرسل الطرف الى مكان ما في العتمة، دون أن يطاله شك في انصات صاحبه له، وكذا الآخرين. وقال عباس:

– شعر مجيد، سمعته من قبل، بل أنني أحفظ منه غيباً بعض الأبيات.

واستطرد يعقوب:

– شاعرنا يحب بخارى جداً، فكأنه بعيداً عنها كالطير بعيد عن عشه. وهو يمجدها في الكثير من أشعاره...

فقاطعه أبوليث:

– آن أوان العس بالنسبة للاصحاب يا يعقوب، هيا لنبعث بهم، ولننم نحن قليلا. هيا يا ابو الحفظ! مراد! انهضا!

نهض المحاربان النائمان بالقرب من لهبة النار، اعتليا سرجيهما بصمت، ودربكا بجواديهما الى الجنوب. تمطى عباس، ثم تغطى بلحاف من قماش الكربوس القطني الخشن، وأغمض عينيه فتبعه الآخرون، منطرحين على فرشة لينة جديدة.

غفى الجميع. الا سفر، الذي راح ينظر طويلا الى السماء السوداء الواطئة التي تهصر كسقف قبو. لقد أضناه كرب النفس والارق. وكانت صور الماضي المنثالة في ذاكرته دون ترتيب تعيق التفكير بأمر المستقبل، وكلمات الأصدقاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعبر في رأسه سريعاً الى درجة أنه لم يستطع التلبث عند أمر معين. أطبق أجفانه لحظة فرأى من جديد الماء الصخاب والظل الأبيض البعيد ولمعان الأفعى المقرف. فتح عينيه وانقلب على جنبه الآخر متنهداً.

استولى التعب عليه أخيراً، فأخذه الكرى. ولم تستطع ايقاظه الآن لا خشخشة غامضة في ليل البادية، ولا نعيب بوم، أو رعود ماتني تجعجع في المدى. لقد نام كطفل في حضن امه أسكره دفؤها الحيي.

٢

كان ردكي يجلس الى القراءة كل يوم بعد تناوله الفطور. وها هو يدرس، يومه الثاني، فلسفة عالم اغريقي غير مشهور، وقد سدر عن كل شيء حوله، وراح يخطر في عالم الفكر، متغلغلا الى أبعد الزوايا الغامضة، مقلباً الصفحات المبرية بعناية واهتمام.

وكان يمسك أحياناً بالقلم ليسطر مقاطع مما يعجبه واستنتاجاته عنها.

تصرمت ساعات، فلم ينقطع ردكي عن القراءة، وقد شغف بها، ولم ينتبه الى دخول ثلاثة من الوجهاء الأميريين المحترمين عليه في الخيمة.

أعادته تحاياهم الى عالم الواقع، فنهض وأجاب عليها، ودعا ضيوفه الطارئين الى الجلوس والارتياح. قائلا، وقد صالب ساعديه أمام صدره مرحباً:

– هذا شرف عظيم لي، انتم افعمتم مسكني المتواضع بنور من السعادة...

ثم راح يجمع على عجل الأوراق والمخطوطات ليخفيها في سفط مزركش جميل.

لقد أدهشه قدوم هؤلاء الوجهاء الثلاثة، ذوى المقام والجاه الرفيعين. فماذا وراء ذلك؟ لقد حدث من قبل أن زاره أبوجعفر ذراع الأمير، وكذا محمد صالح جليسه الموثوق به. أما أن يزوره طاهر بلحي قائد العساكر فهذا ما لم يحدث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطلقاً. وكان ردكي على معرفة به لم تتعد حدود مآدب الأمير، فما الذي جاء به الى خيمة شاعر؟

افتتح محمد صالح الحديث ما ان شغل ردكي مكانه:

– نادراً ما اصبحتم تغادرون خيمتكم الآونة الأخيرة، عسى الله أن لا تشكو مرضاً ما؟

– لا، أنني عفي. ولكن السماء الجهماء والمطر الهطال يحولان بيني وبين الخروج، فتجدونني عزوفا عن مغادرة الخيمة، فالقراءة في مثل هذه الأحوال للروح خير منال.

نظر محمد صالح الى طاهر بلحي كأنه يطلب عوناً منه. ولكن قائد العساكر طأطأ رأسه صامتاً، وأوقف عيناه السوداوان الكبيرتان على القيثارة المعلقة بصارية الخيمة. بينما قال ابو جعفر معززاً الحديث:

– أنتم على صواب أيها الشاعر، ففي مثل هذا الجو لا يحبذ المرء أبداً مغادرة الخيمة.

وأضاف محمد صالح:

– اضافة الى ذلك، فالرحلة تستغرق زمناً طويلا، تجعل الحياة بعيداً عن البيت حيث الأطفال والزوجة شاقة للجميع.

فسأل ردكي:

– الا ينوى حاكمنا اذن عودة سريعة الى بخارى.

– حاولنا التحدث بطريقة وبأخرى مع الأمير، ولكن سيادته لا يولي كلماتنا اهتماماً.

التفت ردكي الى قائد العساكر:

– وهل يعقل ان سماحة الخوجا الكريم لم ينشغل بأمر أن يبدي الأمير رغبة في العودة الى بخارى؟

– سألت الأمير على انفراد عن هذا الأمر، الا أنه اكتفى بعقد حاجبيه تجهما، ورفع الكأس بدل الجواب، ملمحاً لي أن أشرب معه حتى الثمالة.

وعلق أبو جعفر:

– يبدو أن الجو هنا يناسب سيادته.

فدهش ردكي:

– جو بخارى وضواحيها، بخاصة في الربيع، لا أسوأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبداً من جو هذا المكان. وهل أن جمال موليان والهواء القريب من النهر لايضاهي ما هنا؟

فأجاب محمد صالح حالما وبنبرة ممطوطة:

– بلى. ما أروع تقضية الربيع في بخارى صحبة الأطفال والزوجة، فالتوجه في الصيف الى سمرقند لو وافق الأمير على العودة لتخلصنا جميعاً من العذاب.

صمت ردكي، ونظر خطفاً الى طاهر بلحي: ما الذي سوف يقول؟ ولكن قائد العساكر كان جالساً، مطأطئاً رأسه، لا ينبس بحرف. فيما بدأ محمد صالح من جديد:

– أيها الشاعر المحترم. جئناك نحن خدمك بطلب خاص واثقين من أنك سوف تبرر هذه الثقة، والأمال التي تحدونا.

واذ انتبه محمد صالح لنظرة ردكي المستحسنة. استأنف بجرأة أشد:

– لقد قررنا أن ندير الكلام أثناء المأدبة القادمة التي سيقيمها الأمير العظيم الى الحديث عن بخارى، عله يميل فيجنح الى العودة الى ديارنا. الا أننا نخشى ألا تفي كلماتنا النزرة، غير المنمقة، بالمرام. ونحن على ثقة بأن قصيدك الجميل وكلامك الطلي قادران على فعل الأعاجيب في قلب وروح الأمير. فعساهما يكونان لنا عوناً في بحثنا عن مخرج مما نحن فيه. أفصح ردكي بصرامة:

– أشك تماماً أن يكون للشعر تأثير أكبر على الأمير، مما لخطاب السادة والوجهاء من بطانته.

فاستوثقه قائد العساكر:

– نحن نعرف جيداً، أيها الشاعر المبجل، قيمة أشعارك، وكذا الاحترام والتقدير اللذين تحظى بهما لدى سيادة الأمير. لسوف تؤثر الكلمات التي تصدر عن شفتيك على حضرته وافر التأثير.

وأدلى محمد صالح بدلوه أيضاً في بئر الحديث:

– ان عزمت على القيام بهذه الخطوة، فانك سوف تجنبنا العذاب لا وحدنا حسب، بل وأولئك المساكين عبيدنا.

وهنا لا حظ المتحدث أن عيني ردكي قد حطتا ساهمتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الصندل*، فاربكته هيئة الشاعر المتأملة، وأحس بنفسه فاقد الحول كطفل. فكأن حال هؤلاء السادة الثلاث من حاشية الأمير الأفاضل في الواقع، وهم يجلسون في خيمة الشاعر، يرجونه، ويلتمسون منه العون، حال أناس معدومين لا أصل لهم ولا فصل. بل ان حججهم تافهة بحيث يبدو عنادهم معها نوعا من الغباء الفاضح. وان ردكي يعلم كل شيء أفضل منهم جميعا. فشعر محمد صالح بالحر بسبب هذا. بل أن أباجعفر حشر نفسه في الحديث انذاك بخطبه الخرقاء. حتى أن ذراع الأمير أحس بوجهه يتضرح حمرة: عندما سمع أبا جعفر يعسل في الكلام:

– أما بشأن المكافأة فأن على شاعرنا أن لا يقلق، ونحن على أستعداد أن ندفع له مقابل رجائنا فضة وذهبا ودراهم ضعف ما قد يتفضل به الامير عادة.

ونظر ابو جعفر أثناء هذه الكلمات ناحية طاهر بلحي.

أبرقت عينا ردكي، وأرسل طرفه الى أبي جعفر، ثم أعلن، وابتسامة هازئة تعلو شفتيه:

– سيدي! لا الكلمات التي تقيم بالجواهر والدراهم، ولا الأشعار المكتوبة من أجل الذهب والفضة قادرة على أحداث التأثير المطلوب من قبلكم. فليست أكوام الذهب، بل حنيني الى بخارى والى دياري الحبيبة ما بامكانه أن يمنحني القوة اللازمة التي تستطيع انتزاع السطور الكامنة في أعماق روحي، تلك السطور القمينة بشق درب لها الى قلوب الآخرين.

لم يرد أحد على كلمات ردكي هذه. فقد كدرت سخرية الشاعر صفو الوجيه. الا أنهم تلمسوا فيها أيضاً أملا بالموافقة، فشخصوا الى وجهه بعيون تشع فرحاً. بينما أفصح أخيراً محمد صالح:

– لك الشكران يا شاعرنا المبجل. لسوف يفرح لطفك أهالي بخارى، بخاصة سيادة معالى الوزير.

---

* مدفئة بالجمر توضع تحت طاولة أومنضدة عادة وتغطى ببطانية – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يقل ردكي شيئاً تعقيباً على هذا. وحاول ابدال موضوع الكلام، كي يعدل مزاجه، ولا يبدر منه في حموته مايهين أحداً من ضيوفه الحاضرين جواباً على كلماتهم غير المناسبة. ولكن الحديث لم يجر بعد طلياً طلقاً، ولم يرغب الضيوف اقلاق الشاعر أكثر ماداموا قد أصابوا مرامهم، فماذا يريدون منه بعد؟ بينما أحس ردكي أن سخريته اللاذعة اوشكت أن تسبب الزعل للوجهاء، فراح يوصلهم الى مدخل خيمته بعناية خاصة.

لما عاد ردكي جلس في الحال قريباً من الصندل، محاولا نسيان ماجرى: وطفق يتعمق في قراءة المقال الفلسفي الذي أصاب هوى في نفسه.

* * *

تسربت اشعة الشمس خلل شقق قبة الخيمة وسقطت على الفرشة والغطوة مضيئة الخيمة وكأنها تصدر من شمعة ضخمة نصبت في شمعدان هائل عال. وتناهت من الخارج جلبة العبيد المتنعمين بطيب الجو، بعد أيام ماطرة طويلة عديدة. فيما راح ردكي يرقب شعاع الشمس الزاحف ببطء الى حافة الصندل.

لقد كدرت زيارة الوجهاء المفاجئة، وحديثه القصير معهم، صفوه الداخلي. وبينما نظر الى الكتاب المنطرح على غطاء السفط المزركش الذي كان يقرأ فيه قبل دخول زواره عليه، وبدا له ان البناء الفلسفي المعقد الذي أنشأه الاغريقي معالجاً فيه قضايا خلق العالم وتطوره، واه الآن لسبب ما. ان فكره الآونة مشغول باولئك الذين قدموا اليه طلبا للعون، باولئك الذين أبعدوا، غير معلوم لم، عن ديارهم وأهاليهم معانين من رذاله العيش ومصادرة الأفراح بعيداً عنهم...

رزح قلب ردكي تحت نير الحنين، فاشتد وجيبه، وتذكر ديرته الحبيبة، طرق سمرقند، الأيام التي قضاها في بخارى. فمنحته هذه الذكريات من المسرات ما جعله يغلق عينيه كي لا يزعجه شيء من رؤية صور الماضي. اية قوة غامضة ماتني تدفعه دائماً الى الدوران حول الذات؟ زوجته، أطفاله؟ كلا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فما هي اذن؟ واحس فجأة بوحدته، لا داخل هذه الخيمة حسب، ولا داخل هذا المعسكر، بل وداخل هذا العالم برمته...

برزت له أمام ناظريه ديرة صغيرة، سكنت في أحضان جبال عالية، بيضاء القمم. والعشب الأخضر الذي كان يجري عليه حافياً في صغره، ثم في فتوته. والينابيع البلورية الصافية التي كانت تسقي عطشه، ولكن ليس قلب الفتى الملتهب ناراً. سمع أصوات ناي الرعاة ورفيف العشب، وضحكات وجلبة الصبيان الحفاة في طرق الديرة، سكون الليالي القمراء، حكايات الأصدقاء والأخوة، مزحهم، وأغانيهم. لقد مر كل هذا دفعة واحدة أمام ناظريه، فكأنه مياه جدول جبلي صخاب.

واستعادت ذاكرته محطات حياته: بانجرود اولا، فسمرقند، فبخارى بعد ذلك. أليس هو من حكم على نفسه بالوحدة؟ كلا، لقد أحب بخارى كما أحب قريته الأم. فقد تحققت هنا في بخارى آماله في طلب العلم، واحلامه في نظم الشعر والأناشيد. وها هنا قضى سنوات شبابه. واكتسب أصدقاء القلب ومسامرى العقل، الذين قطعوا المسافات الطوال، حالهم حاله، قادمين الى المدينة من مختلف الأصقاع. فنظموا أشعارهم بلغتهم (الداري) التي هان شأنها ذات يوم، بمزيد من الفخر والكبرياء، كما ألفوا بها كتبهم. فيما استجمع ردكي له وسط أصدقائه قوى جديدة، وشعر بنفسه فتياً أبداً.

بيد أن ردكي كان مكآبا ويشعر نفسه متوحداً أثناء رحلاته الطويلة في المناطق الرائعة لاقطاعية سامانيد المترامية الاطراف، وكذا في المآدب الاميرية.

واذ تذكر كيف تحدث الوجهاء عن الزوجات والأطفال أهنف الى جانب: «لو كانوا دون عائلات وأطفال، حالهم حالي، لتخلوا بالتأكيد عن كل المهام الحكومية. وهل كان بمستطاعهم أن يصدوا لهم هوى لبخارى؟» انهضته الذكريات، وآلام النفس، والغضب، من مكانه عند الصندل، فقفز، وراح يتمشى جيئة وذهوبا في الخيمة، فيما صدره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضاق تنفسه وعسر حتى أحس بان هواء الخيمة قد أصبح مسموماً.

خرج الى الخلاء. وتوقف عند مدخل الخيمة واهن القوى. متنفساً بعمق، مد مضيقاً عينيه الغامقتين بوجه الشمس الصبوح. نظر الى الجانبين، هنالك على مبعدة تنتصب خيمة الأمير نصر الكبرى. لم ير بالقرب من مدخلها سوى حارسين حسب. فيما الالوية الزرقاء والبيضاء مرفوعة بتراخ. ودون أن يشيح بنظرته عنها فكر ردكي أن والد نصر قد سلم الروح قبل اكثر من عشرين عاماً في مثل هذه الخيمة ربما، قيل أنه كان قد عاد سكران في وقت متأخر من المساء الى الخيمة، فأمر برفع الحراس عن المدخل وكذا الأسدين المدربين ممتعضاً من مثل هذه الاحتياطات مادامت سلطته راسخة ولا يهددها خطر ما. وفي الصباح وجدوه مقتولا. فظل الكبار في السن يتحدثون آسفين حتى الآن عن لا ابالية الأمير العظيم الطائشة. واذ استمع ردكي الى ما نقل من أخبار عن موته فكر في نفسه صامتاً: أيبقى الامير العظيم في سلطانه طويلا اذا ما اطمأن الى أن حياته وسطوته رهن الحراس والأسود المدربة؟ ولكن، ألا توجد أسباب أقوى لحفظ الحياة والسطوة؟

استفظع الشاعر اذ تصور أن مصير الأب ذاته قد يصيب الابن أيضاً بين يوم وآخر. ما العمل أنذاك؟ أن كل تلك المعارك الدامية، والتضحيات مما قدم الناس، قد أقيمت بفضلها سلطنة آل السامانيين، وارتفعت المباني العظيمة، والقصور الباذخة، وفي بخارى اجتمع العلماء والمفكرون من كل صوب وحدب، فاذاعوا صيت سلطنة السامانيين وعاصمتها حتى مدينة الخليفة الرئيسية، فهل يعقل انه قد تطلب كل ذلك من أجل ان يلهو الأمير اليوم ههنا في الخيمة، وينام دون هم وغم بعيدا عن مدينة عرشه، وعن مهامه وأشغاله الرسمية؟

عاد ردكي الى الخيمة، بلا قوى تعينه على القراءة أو نظم الشعر. أما تلميذه الذي ظهر في الساعة المحددة فقد أخلى سبيله الى صباح غد.

وعندما أرخى المساء سدوله على السهب، اكتسى ردكي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بردة نظيفة، وضع عمامته على رأسه، ثم تناول عصاه وخرج من الخيمة. كانت الحياة تفور في أرجاء المعسكر. والعبيد يجولون هنا وهناك يعدون الطعام، يمسدون الجياد، يغسلون ملابس السادة، يتناقشون في ضوء لهب النيران. فتوقف ردكي مراقباً حركة الناس اليومية المتصلة هذه، ثم توجه الى هناك حيث كان عددهم قليلا. سار، مميلا بنيانه الضخم الى الأمام قليلا، معتمداً على عصاه، بحذاء خيام العبيد الممزقة ونيرانهم، مجيباً على التحايا الموجهة اليه بهزة خفيفة من رأسه، متعجلا الخروج الى السهب، والانفراد، فلا يسمع صياح الناس، ولا يرى هذا الهرج.

تذكر ردكي وهو يمر الى جانب خيمة قائد العساكر ارتباكه ووجهه المتوسل، فاستحث خطاه راغباً عن الالتقاء به.

وما أن ابتعد في السهب مسافة تقارب ثلاثين من الخطوات حتى أخذ يسمع عزف ناي ينطلق من أحد الخيام. توقف، وأرهف السمع: انها المعزوفة الساحرة: «عشاق». تلفت ردكي كما لو أنه يريد رؤية العازف، ثم عاد ادراجه مقرراً الاستماع الى الانشاد حتى نهايته، دون التفريط بنغمة واحدة. هفتت الاغنية بالتدريج حتى سكنت. ولكن ردكي لم يتحرك، فقد تهيأ له ان الموسيقى على وشك الانبعاث مجدداً. غير أن الناي كان قد خلد الى صمت. فاستأنف انذاك طريقه، مردداً في نفسه معزوفة «عشاق» التي كان قد سمعها في التو.

ذر القمر بسخاء فضته في أرجاء السهب المترامي الأطراف، فيما كانت أجمات صغيرة منتشرة هنا وهناك تذكر المرء بيورطات* الرحل القاتمة. وفجأة أضاءت روح ردكي، وافعمت بالحبور، بسبب من صوت الناي أو من جمال السهب الأخاذ. فيما تبدد ذلك القنوط والارتياب اللذان عذباه طيلة النهار وأثقلا على رأسه فعل سحب سود. فاستقام بجذعه

---

* خيام دائرية الشكل يستخدمها رحل آسيا الوسطى مساكن لهم – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكأنه اكتسب قوى جديدة، وتحرك بخطى ناشطه مواصلا دربه. تبدت أمامه أشباح قلعة...

فاقتعد صخرة على شاطىء بحيرة كبيرة تكونت خلال وقت الأمطار، ولم يحد بنظرته عن القلعة. فاستعادت ذاكرته صورة آرك بخارى وما يحيط به من بساتين. ان مياه نهر موليان تجرى الآونة بمهل متلامعة هكذا أيضاً تحت ضوء القمر، بين الشواطىء التي مهدتها أيدي الناس بمهارة، فيما انعكست على السطح الرقراق أطياف حدائق الفاكهةوالقصور. لقد حدث أن تلا ردكي على شواطىء موليان لأصدقائه الشعر، وأقام المباريات الشعرية، بل ونظم في بعض الأحيان أبياته في هدأة من الليل تحت أغصان الصفصاف... لقد تجسدت كل هذه الاخيلة بوضوح مدهش لبصيرته.

وكرت أيامه الأولى في بخارى على ذاكرته مجدداً، حيث بدت له الحدائق التي صنعتها يد الانسان في هذه المدينة غريبة، بعد البساتين الجبلية في ديرته الأم، أعوزه فيها الفضاء والشعور ببهاء الطبيعة الأصيل. وظل فترة طويلة لم يستطع خلالها التعود على القنوات المستقيمة، والشوارع الرتيبة، الممتدة كالخيوط. فقد كانت الأنهار الصخابة هي مايستهويه وكذا قمم بلاده العالية الحبيبة. بيد انه راح يعتاد شيئاً فشيئاً على هدوء الحدائق الممتدة بموازاة موليان، على مياهه الرائعة التي تمنح المرء في الحر الابتراد والارتياح، حتى أسر ذلك لبه تماماً، فكان لا يشبع، أثناء تنزهه على شواطىء النهر، من ذلك الجمال الذي صنعته يد الانسان، وقوة عقله وسط تلك الصحراء القاحلة.

وها هو ردكى الآن متوحد، بعيد عن بخارى، وعن النسيم العذب الهاب من موليان، وفي منتأى عن قلوب الأصدقاء الطيبة. فألم الاكتئاب بفؤاده مجدداً، وعاوده الحنين الى ديرته الحبيبة، والى أصدقائه المحبوبين. حتى تهيأ له بأنه ينظر الى عيني كل واحد منهم، فيما يدور مع كل واحد منهم حديث لايسمع.

أرسل ردكي طرفه الى سماء الليل الصافية، فتنهد، وهمس:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– يسقسق موليان ويسقسق، داعياً أياي اليه، تلك التي لبي سلبت تدعوني اليها*.

تساقطت الكلمات من شفتيه على غير انتظار حتى انه لم ينتبه لايقاعها المتناغم، ولم يلحظ قافيتها ولا بحرها، فيما نظم. أعاد تلاوتها همساً، ثم راح يرصف الأبيات بيتاً وراء بيت منسابة من أعماق قلبه، متذكراً بخارى، معانياً من شوقه الى أصدقائه الذين واكبته أطيافهم طيلة اليوم. فكانت تلك الأبيات ذات بهاء كقلعة أرك البخارية، ومتناغمة كلحن الذي الذي سمعه أثر خروجه من المعسكر: ونقية، صافية، منعشة، كبساتين وحدائق، كمياه موليان العذبة: جامحة حيية كلقاءات الأصدقاء: فاغمة كأنفاس الحبيبة. لقد استولت السطور المتوالدة لذاتها عليه كلياً، وليس الا في الأعماق تململت الفكرة: «لعل هذه الأسطر بالذات هي ما سيفعل فعله في الأمير» ظل ردكي جالساً في مكانه دون حراك فترة طويلة وقد استلبه السكون والفضاء، فاندغم تماماً بالطبيعة، فيما راح يصب في أبياته الملتهبة النفاذة ثورة قلبه، المتمرد على أحكام العقل.

٣

اثر الجو الرطب بصورة سيئة على الأمير نصر ضعيف البنية، المعتل. فكان يسعل بقوة، وتخض البرداء جسده، ففضل البقاء والاعتكاف على نفسه أياماً في الخيمة، عازفاً عن الخروج منها. فيما حولته الوحدة والمرض الى كائن نزق مستوفز الاعصاب، فكان الخدم لايعثرون لهم على سبيل أمامه، والحاشية أطبق عليهم اليأس. الا أن السحب تبددت في اليومين الأخيرين، فراح المقربون يلحظون على وجه الأمير بشائر المرح، وكذلك لانت معاملته للخدم.

---

* النهر بالروسية، وبالتاجيكية كما يبدو، مؤنث، خلافاً للعربية مما اخل بالمعنى والصيغة هنا – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استدعى الأمير في ذلك الصباح محمد صالح ليمثل بين يديه، فتحادث معه بهدوء، دون نزق أو مماحكات. وعندما توجه ذراعه في الحكم، متراجعا على عقبيه قاصداً الخروج بعد السماح له بذلك من قبل الأمير، استوقفه معاليه فقد كان راغباً أن يجتمع المقربون في خيمته ذلك المساء كي يتسامروا قليلا، طالباً منه أخبارهم بذلك، وقد أشار بخاصة الى ضرورة حضور ردكي.

نقل محمد صالح دون ابطاء أمر الأمير الى أبي جعفر، ثم راحا يتداولان هذا الشأن بينهما طويلا، وبدآ الاستعدادات اللازمة لاقامة المأدبة. فمضى محمد صالح الى ردكي بنفسه لدعوته، فيما لم يستطع تكرار الطلب الذي جاءوا من أجله الى الشاعر قبل بضعة أيام، وقد رأه على حال من التفكر والتأمل الجادين: معللا نفسه في دخيلته: «أخشى أن يرفض ذلك الآن فيفسد لي الحفلة بتكدير المزاج، من الأفضل الانتظار حتى المساء».

حضر مأدبة الأمير عدد قليل من الناس، خلافا للمألوف: فاضافة الى المسامرين المقربين المعتادين، كان هناك بين الحاضرين ردكي ومريده، وعازفان على الطنبور والناي. وكان ردكي قد جلس في مكان معتبر الى جانب محمد صالح. وقد أنشد شعره من الغزليات مستصحباً القيثارة. فيما نصر يعب من الشراب دون توقف ويصيب من مختلف صنوف الطعام دونما رغبة كبيرة، غير ملتفت كثيراً الى ملاطفات ابي جعفر الملحاحة. ولم يتأخر قائد العساكر في مجال الشرب بدوره عن الأمير. وعندما سكتت الموسيقى استدرك محمد صالح وابو جعفر الحال لبعث السرور في قلب الأمير، فراحا يقصان عليه مختلف الملح والأخبار الطريفة. وكان ردكي يساهم في الحديث لماماً، بحكاية مرحة أو ببيت من الشعر عميق المعنى والمغزى. فكان نصر يرد عليه بابتسامة دمثة، هاتفاً، وهو ينظر اليه بعينين معجبتين:

— عافرم ردكي! عافرم!

طال الحديث وتشعب دون ان تبدو نهاية له، فدب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضجر الى دخيلة ردكي. وعندما تصاعد عزف الطنبور ثانية، لحظ ان عيني الأمير قد اغرورقتا بالدموع.

نقل ردكي نظرته بسرعة الى القيثارة المنتصبة الى جانب مريده فقد تذكر سطوره التي ولدت أمس في البادية، واسترق نظرة أخرى الى محمد صالح، الذي كان قد عقد حاجبيه متجهماً، وطأطأ رأسه مستمعاً بانتباه الى عزف الطنبور. وما أن خبت بقايا اللحن، حتى نهض ردكي وصالب يديه على صدره علامة الاحترام، وأعلن بصوت فخم واضح النبرات:

— اواه يا مالك السلطان! اين كنا موجودين، نحن خدم دولة الأمير المترامية الأطراف، فأن افئدتنا تظل تنبض في بخارى. نحن نعلم أن عصب دولة الأمير انما هو بخارى، بخارى التي تضم تربتها أيضاً رفات أجداده، مما يجعل أرضها في اعتقادنا مقدسة غالية. لقد نظمت قبل بضعة أيام قصيدة غير طويلة استوحيتها من ذكريات بخارى العامرة في النفس: هذه المدينة الحبيبة المحظوظة، ومن قلوب الأصدقاء الطيبة، الذين أمض بهم انتظار عودة سلطاننا رفيع الجاه والمقام، فلو سمح لي سيادتكم انشدتكم منها بعض الأبيات...

تململ محمد صالح، فيما أرسى ابوجعفر وطاهر بلحي نظرتيهما الالقتين الى ردكي. بينما رفع نصر رأسه ببطء، فيما الدمع يترجرج في عينيه المحمرتين، مستثيراً بنظرة اسوانة الاشفاق والتعاطف. وقال بصوت يكاد لايسمع:

— تفضل...

تناول ردكي القيثارة، ومن غير ان يشح بنظرته عن هيكل الأمير النحيف، راح يضبط مفاتيح آلته. ثم ضغطها الى صدره، وبدأ العزف ناظراً الى قيثارته. فسكن الجميع تماماً، ليس الا الريح كانت تهفهف قبة الخيمة لماماً. أرخى ردكي أجفانه، وانشد بصوت راعش صداح مقدمة من نغم «عشاق»، حيث وشى ذلك الصوت عن العزم أكثر من التبلبل، فقد كان يرغب في احداث تأثير على الأمير. وشيئاً فشيئاً كان صوته يتصاعد أشبه بموج بحر هادىء ويتسلل ببطء الى قلب الأمير، كارهاً اياه على الاستجابة اليه بارتعاشة انفعال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسقسق موليان، يسقسق، داعيا اياي اليه
تلك التي لبي سلبت تدعوني اليها...

لكان الأغنية كانت حبيسة أياماً طوالا في قفص روح الشاعر، وها هي انطلقت حرة، فراحت تحلق الآن تحت قبة الخيمة الفسيحة. بيد أن ردكي كان يتصور أن هذه الخيمة ضيقة بالنسبة لكلمات شاعر وهواءها فاسد أوخمته سكرى الأنفاس.

لقد كانت فترة طويلة قد مرت على ردكي لم يغن فيها بمثل هذا السرحان. فيما الأنغام الخافتة لأنشودته المفضلة تفعم القلب بسحر غريب، حتى انه نسى وجود الأمير قريباً منه، وكانت كلماته التي تؤسر الروح عن بخارى، وعن عظمتها، وتبتهل لمن كان السبب في رفع مجدها وعمادها، قد أضفت على غنائه طابعاً احتفالياً نفاذاً. فيما حوت اشارة خفية الى تفاهة امر سليل اولئك البانين الأول الأسير الفاقد الحول لأصحاب السوء من الشاربين المتعطل في هذه الخيمة دون فائدة. ولاح التعب أخيراً في صوت ردكي المتعالي النبرات، فقد كان الشاعر قد خلف شبابه منذ أمد، بيد أن أوتار القيثارة ظلت تعول تحت أصابعه كالسابق بنشيج جامح.

فتح ردكي عينيه ونظر الى الأمير، فوجده قد غطى براحة يده كأس الشراب، فيما اسند براحة اليد الاخرى رأسه المطأطأ، وراح يهتز بشكل لايكاد يلحظ من جانب الى آخر. ففهم الشاعر آن الامير يبكي. أما طاهر بلحي فقد حلا له أن يسهو عن أمره وقد أسكره الشراب والطرب، ونظر ابو جعفر الى الشاعر مباشرة، وقد وشت عيناه بأنه على استعداد لان يجثو على ركبتيه أمامه، غير أنه لا يستطيع التعبير عن امتنانه في حضرة الأمير. وجمد محمد صالح في مكانه مأخوذاً، يرنو الى ردكي بانتظار ما سيفوه به الامير العظيم.

أشار ردكي بعينيه الى مريده ليتناول منه القيثارة، ففهم المريد ان الشاعر قد تعب ولا رغبة لديه بعد لمواصلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الانشاد خشية افساد ما أحدثه من انطباع. فاستأنف المريد الانشاد بصوته الفتي الرنان الذي كادت سجف الخيمة تهتز له قبل ان يخفت صوت ردكي تماماً.

أغذ الخطى يا أمير
بخارى السعد دعتني
وتخصك بالتحايا
هي السما
وأنت... أنت...
لها قمر منير
وهي البساتين
وأنت الدلب المتين
وشوشت أوراقه
فاصغي... واصغي...
خذوني اليها قبل ان تأخذني المنايا.

وما أن هفت الانشاد وتصاعدت هتافات الثناء والاعجاب، حتى تناهى الى الاسماع نشيج مكتوم، واذا الأمير نصر قد انكفأ على الوسادة منخرطاً في البكاء فعل الأطفال، فيما تداعى قدحه أمامه.

عمت البلبلة الخيمة، فأمر محمد صالح العازفين بمغادرتها، وراح يحاول تعديل الوسادة تحت رأس الأمير العظيم.

دفع الأمير يد محمد صالح، ثم رفع رأسه، وأشار الى الكأس بعينيه آمراً أبا جعفر لملئه، فقفز هذا وتناول الابريق المنقوش فصب الشراب في كأس الأمير، ومن ثم في كؤوس الآخرين.

وكان نصر مايزال يمسك بالكأس بين يديه، اذ قال بصوت أجش بفعل البكاء:

– عفارم، ياشاعرنا المحترم. عفارم! لقد حملت السلوان الى قلوبنا المكلومة، وأشعت الدفء في أجسادنا المقرورة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأفرحت أرواح أجدادي الراقدين في ثرى بخارى، الغاضبين ربما مني بسبب غيابي الطويل. أحسنت يا ردكي، أحسنت!

ارتعش صوت نصر. وكيما يدرأ عن عينيه الدموع الفياضة، أفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة. ثم التفت بعد ذلك الى محمد صالح:

– ليعلن في المعسكر غداً: ليستعد الجميع للرحيل الى بخارى! أسمعت؟ الى بخارى بأسرع وقت!

واستدار الى ردكي:

– بلى، الى بخارى. لك الشكران أيها الشاعر المحترم! أحسنت. اما الضيوف فليذهبوا لينالوا راحتهم.

نهض ردكي، وانحنى مودعاً. ثم غادر الخيمة. ملأ رئتيه بهواء السهب، والأنغام الساحرة لما تزل تدندن في أذنيه بعد.

بقي الأمير نصر وحده في الخيمة. نهض، واتكأ بظهره على الموقد، الا أنه لم يستطع الوقوف على قدميه فتهاوى على السجادة. حاول النهوض. مرة، وأخرى، الا أنه لم يفعل سوى أنه انقلب على ظهره، بينما أسودت على وجهه الشاحب كالقطن أجفانه، وشاربه الخفيف. وظلت شفتاه الذابلتان تتمتمان، كما لو أنه كان يتذكر في سكرته أرواح أجداده الطاهرة، موجها الشكران للشاعر على كلماته.

... لم تكن الشمس قد بانت بعد، ولكن الافق تضرج بالشفق. وغطى الفجر القاني في زحفه الخضرة القاتمة للعشب وأوراق الأشجار بلون ذهبي. ولم يكن في هدأة الانبلاج يسمع سوى تغريد الطيور من الحرش القريب، ودندنة أجراس لقافلة طويلة ارتحلت في طريقها قبيل نصف ساعة حسب. وكان البعير الذي في الوسط يحمل عرشاً مهودجاً منقوشاً بألوان ساطعة، اعتلاه الأمير نصر في بردته الموشاة بالذهب، وقد أغمض عينيه المنتفختين بفعل الشراب والأرق، وراح يحاول الاخلاد الى نوم، مجفلا مستثاراً بين وقت وآخر. كانت الافكار المقلقة تزدحم في رأسه دون انتظام، تعيقه عن النوم. فهل تراه سيصل سليماً معافي حتى بخارى، حيث يوجد أصدقاؤه وقصوره الباذخة؟ وهل يستطيع جسده المريض المنهك تحمل وعثاء الطريق الطويلة الشاقة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتستقبله بخارى في أحضانها الوسيعة كما رسم لها الشاعر أمس أم أنها تضمر له قدراً مميتاً؟

لقد تمنى الأمير نصر أن يغفل لحظة واحدة عن هذه الأفكار السود والاستمتاع بعبير البرية الفواح بهدوء، لكنها أبدا ما كانت تدعه يسكن، بل ما تني تثقل صدره بأسوأ المشاعر المعذبة.

وكان ردكي يتبع القافلة صحبة مريده، في مكان ما من المؤخرة. ينظر الى الأمام مباشرة، فكأنه يرى ثمة ملاذ أحلامه وآماله، مهد الأفراح والمسرات، متحسساً بجذل دفء الشمس الآخذة في الصعود أعلى فأعلى، متنصتاً لهمس الطيور الممراح، الذي طفق يعلو معلناً عن استيقاظ الطبيعة.

١٩٧٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بولاد توليس. ولد عام ١٩٢٩ في لينين آباد بعائلة معلم. عمل بعد انهائه دراسته الثانوية منضداً للحروف وطباعاً في مطبعة، ثم صحفياً، فمحرراً للجريدة الأدبية «صدى الشرق» نشر أول أقاصيصه عام ١٩٤٦. وخلف خلال حياته القصيرة (توفى عام ١٩٦١) أثراً ملحوظاً في تطور النثر الواقعي التاجيكي. مؤلف بضعة مجاميع أقاصيص وقصتين طويلتين: («الصبا»، «الصيف») أبطاله عمال شباب، كلخوزيون، مثقفو مدينة وقرية، وطلاب. أغلب أعماله تتسم بطابع نفساني، مكرسة لقضايا عائلية حادة، وكذا أخلاقية، ويومية.

الخزامى

اذا كنتم قد زرتم لينين‌آباد فأنتم تعلمون أن نهر السيرداريا ينحني الى شمال المدينة، لتبدأ بعده البرية الحجرية المنداحة حتى سفوح جبل موغول. هذا الجبل ليس شاهقاً، ولا تكلل الثلوج هاماته، ولا تشخب المياه بأنهر فيه، كما ليست ثمة أدغال. الا في الربيع حيث تكتسي جنبات الجبل بعشب حيي، تطرزه الأزاهير ببقع مبرقشة زاهية براقة، فيمضي أهالي المدينة آنذاك الى جبل موغول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لجني زهرات الثلج بدء، وبعد فترة من الزمن يجنون الخزامى والراوند بحموضته المعسلة، حيث ينتشر الكثير منه في هذه الأرجاء. بلاشك أن الأولاد يعاودون المضي أغلب من غيرهم الى هذه الرحاب.

أذكر وأنا مازلت بعد صبياً صغيراً أنني اتفقت مع صاحبي يوسف، في أوائل شهر نيسان، للذهاب الى موغول من أجل جمع أزاهير الخزامى. قضينا يوماً نتداول الأمر فيما بيننا، ثم توجهنا الى غرضنا في الصباح التالي، والنور لم ينبلج بعد.

عبرنا الجسر، فملأنا قنانينا من مياه النهر، مضينا مواصلين طريقنا عبر البرية.

كان الجو بارداً، وريح الصباح الطازجة تهب بلا مبالاة، فكنت أقشعر من البرد.

– لسوف تشرق الشمس فتشيع الدفء، – شجعني يوسف السمين، الذي لم يكن يبالي ببرد، بل انه حتى لم يزرر ياقة قميصه.

حسدته دون ارادة على امتلائه، وصفقت بطنه قائلا.

– آه يالشد سمنتك!

فأجاب يوسف دافعاً اياي بكتفه:

– لا أنت النحيف كعصا!

بدأت الأرض ترتفع الى أعلى.

وسأل يوسف ماسحاً العرق عن جبينه:

– ألم تشعر بالدفء؟

كنت قد شعرت بالدفء بالطبع، الا أن البرد سرعان ما بدأ يلم بي من جديد. كانت الريح جفولا، ورغم أن الشمس كانت قد اشرقت منذ أمد بعيد، الا أنها ظلت متوارية خلف آهاب الجبل. ورحنا ننظر الى السماء الغائمة متهيبين، مقلبين الفكر فيما لو كان علينا مواصلة السير أم النكوص، ومهما كان الحال فقد كان لى من العمر احد عشر عاماً، وليوسف اثنا عشر.

وعلق يوسف متفكراً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– لعله قد تحسن العودة، ولكننا سنجلب العار لنفسينا ياهاشم. فالأولاد سيضحكون علينا و أي ضحك.

فأجبت متنهداً:

– يا له من جو نحس!

– كانت السماء صاحية طيلة ما مضى من أيام. ليس الا اليوم تكدرت لكأنما تعمدت ذلك. أم انها قد تصحو أخيراً؟...

فلوحت يدي:

– ليكن ما يكون. لن تأكلنا الذئاب في نهاية المطاف؟

– ولكن، قد تحسن العودة؟

فقلت ساخراً:

– آه، يالك من شجاع! أتعود القهقرى؟

– من؟ أنا؟ هيا!...

كان العشب، الذي غطى البرية، قد تبقع بنثار من الألوان، وهبات الريح تماوجه. فيما انحنى الخشخاش البري نحو الأرض هنا وهنالك، وتصاعد منها عبق الحشائش والأزاهير البرية. وبين حين وحين تفر من بين أقدامنا مذعورة جنادب الأرض، أو تزحف سحلية مخشخشة، لتختفي في ذات الوقت، حيث يصعب تمييزها في ذلك الوسط لما لها من قابلية على الدفاع عن نفسها بتبديل لونها.

وهتف يوسف وقد توقف فجأة:

– أنظر يا هاشم!

ثمة، تحت قدميه، طيرما ممزقاً، أدمى رأسه ومخلباه.

– المسكين! يبدو أن ثعلباً او ذئباً قد وقع عليه.

وأعلن يوسف واثقاً:

– انه حجلة، ولا وجود لذئاب هنا.

واصلنا طريقنا صامتين، وقد أحزننا هلاك ذلك الطائر المسكين. ثم نبر يوسف فجأة مقلداً معلمنا:

– الصراع من أجل البقاء قائم على قدم وساق في الطبيعة.

ضحكت بالطبع، ثم ثرثرنا بمرح، وجرينا...

سرعان ما وصلنا سفوح الجبال، فرحنا نرتقيها صعداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنا قد خلفنا البرية وراءنا، فيما الريح تلاعب سجادة العشب التي تغطيها، فبدت لنا الآونة بحراً واسعاً وبلا حدود، تماماً كما كنا نراها في السينما.

صعدنا أعلى فأعلى حتى وصلنا أخيراً أحد الشعاب. وكانت الريح قد ارتخت هنا، بل ونامت، فيما الطيور تشقشق حولنا في كل مكان. وتسمع بين آونة وأخرى هفهفة جناحي حجلة، والعشب أكثف مما في البرية، يلامس ركبنا، وأرجلنا ابتلت بندي الصباح، غير أن انتباهنا توجه أساساً الى المنحدرات التي غطاها عشب أخضر ريان. لم يعفره الغبار، كالذي في المدينة. وكان الهواء، هو الآخر مختلفاً تماماً، فهو رائق فواح، فكانت أنفاسنا تجري خفيفة سهلة. ونحن نلقي نظرة الى الجمال الذي تكشف لأعيننا أمامنا. ونسينا خوف انتابنا قبل قليل.

الا أن فرحتنا لم تدم طويلا. فقد تقدم نحونا من مكان ما جهلناه كلب يهر هريراً شنيعاً، عيناه تضمخت باحمرار دموي، وقف شعره على رقبته كالابر، ولولا أذناه المبتورتان لكنا حسبناه ذئباً لامحالة.

نظرت الى يوسف، فاذا الشحوب كساه، وقد فتح عينيه على وسعهما كالمصعوق، وراح يرمق بهما الغول المقترب منا.

تمتمت متسائلا:

– أقذفه بحجر؟

فهز يوسف رأسه مستنكراً:

– كلا،لا يحسن هذا! لا تتحرك... عليك النظر مباشرة الى عينيه حسب. والا قطعنا ارباً ارباً.

– لنهرب يا يوسف، هيا لنهرب بسرعة!

اختطف يدي متشبثاً بها بيده، قائلا:

– لا تتململ أيها الأحمق. أسمع ما أقوله لك!

لا أدري ما اذا كان يوسف قد أصاب فيقوله أم لا، ولكن الكلب توقف على مبعدة خطوات منا، ثم طفق ينبح، كأنما يدعو أحداً ما اليه، فيما همد الشعر المنتصب على قذاله، وأصبح نباحه الآن أقل شراسة الى حدما. هدأت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليلا، فأخرجت من جيبي قطعة خبز، ومددت يدي بها اليه.

– خذ!

ولكن الكلب راح يهر مجدداً، قافزاً الى جانب عاوياً أعلى من قبل، فيما خرت ركبتاي، و عصف بهما الارتجاف رعباً.

ودمدم يوسف مغضباً:

– لا تتململ، اسمع، يا أنت!

لم نتحرك في مكانينا، ولم يكف الكلب عن نباحه، وقد استمر ذلك طويلا،

وتصاعدت صيحة ما آمرة فجأة:

– كارو، الزم مكانك!

وخرج من وراء النتوء الصخري رجل مرتفع القامة. فصمت الكلب في الحال، هازاً ذيله، جارياً الى صاحبه.

ارتكز الرجل على عصا طويلة مما يستخدم في الرعي، وقد نتأت بندقية خلف كتفه، فيما كان رأسه معتمراً بقبعة قرغيزية محاطة بفراء ثعلب ذي لون ساطع، وقد تحزم بنطاق عسكري عريض حول قميصه الأسود المتدلي حتى الأرض تبرز من وراء الرداء ياقة القميص العسكرية. كان وجه الرجل الغريب أسود بفعل الشمس، وعيناه الضيقتان الشبيهتان بحبتي فستق، تنظران الينا دونما ترحاب.

وبعد أن أكمل الرجل تفحصنا قال بلغة تاجيكية تشوبها لكنة تشي أنه لم يكن تاجيكياً بالمرة:

– ما الذي تريدانه ها هنا؟

نظرنا اليه مرتبكين، دون أن نعلم بم نجيب.

فكرر الراعي غاضباً:

– أنني أسألكما: ما الذي تريدانه هاهنا؟

ففكرت بيني وبين نفسي ممتعضاً: «وهل هذه الجبال ملك لك؟» ثم قلت فجأة بخشونة:

– لقد جئنا لجني الخزامى.

فمط الراعي ما قلته مكرراً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– جني الخزامي...
وأضاف:
– تقصدان الجبل والحليب لم يجفّ بعد على شفاهكما! ماذا سيفعل لكما الخزامى اذا وقع لكما حادث!
ثم نادى الراعي كلبه ومضى مبتعداً، مدمدماً بشيء ما تحت انفه. فيما قال يوسف بعد صمت طويل ماسحاً جبينه العرق:
– يا له من حقود! انه لا يشبه التاجيك أبداً...
فقلت متسائلا بعد ذلك:
– انه قرغيزي بالتأكيد. ولكن أيعقل أن يكون جميع القرغيزيين حقودين هكذا؟
فأجاب يوسف مستكبراً:
– القرغيزيون أنواع.
لم يكن يوسف يشك أبداً في تفوقه، معتبراً نفسه أذكى مني. وأكثر معرفة، وواصل:
– كان هنالك قرغيزيون يعيشون عند عمتي. كانوا أناساً جد طيبين.
استأنفنا سيرنا، وما أن قطع يوسف بضعة خطوات حتى راح يضحك:
– لكننا خفنا من الكلب خوفاً عظيماً، أليس كذلك؟
سرعان ما وصلنا هوة عريضة. كانت خيمة بيضاء تلوح في جانبها المقابل، وقطيع من الخراف يسرح الى جانب الخيمة، فيما تصاعد منها عمود من الدخان الى الأعالي، بالقرب منها صبي قميص أسود يدير يد جهاز ما شبيه ببرميل فقال يوسف وكنت قد لمحت ذلك بدوري:
– انه يستخرج السمن.
ورجل في رداء أسود، ينحني وسط القطيع، على خروف يتحسس بطنه، فعلق يوسف:
– انه هو، ذلك الرجل الحقود نفسه.
– دعنا منه! هيا بنا من هنا يا يوسف!
قررنا الالتفاف حول الهوة، كي لا نلتقي ثانية بالراعي الحقود وكلبه المسعور، وكانت الطريق التي ننتهجها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تضيق كلما اوغلنا فيها، والجبل يزداد وعورة فوعورة، والمشاهد تتجلى أمامنا، أحدهما أجمل من الآخر، فيما السرور طاغ بين جوانحنا وعلى الرغم من المسافة الكبيرة التي قطعناها لم نشعر بتعب على الاطلاق. والسكون سادر في كل مكان، حتى لم يكن يتناهى الى سمعينا زفيف ريح أو هديل طيور أو رفيف أجنحة، لم يكن يسمع ايما شيء على الاطلاق، الا وقع أقدامنا، وخشخشة الأحجار تحتها.

– خزامى! – هتف يوسف، فركض.

انه دائماً وأبداً يلحظ كل شيء قبلي! وها هو نفسه يقتطف أول الأزاهير قبلي أيضاً، وهكذا نظرت حاسداً الى الزهرة الحمراء تختفي داخل كيس صاحبي. ولكني لمحت في نفس الوقت بقع ساطعة على مبعدة فارتميت نحوها مطلقاً صيحة ظفر. واذ قطفت سوسنا معمماً رأيت على المنحدر الحاد حوضاً زاهياً من الأزهار يمتد على سجادة العشب: مئات من الخزامى – صفراء وحمراء!

وهتفت صاعداً الى أعلى:

– هنا، يوسف، هنا!

كنا نجنى الأزاهير عجلين حتى أننا لم ننتبه الى أننا ارتقينا صهوة الجبل، ورحنا ننزل على منحدره الآخر.

وأخيراً قال يوسف:

– كفى! لم يعد عندي ثمة متسع لأزهار أخرى.

– ماذا، أتقصد أن نعود؟

استفسرت، وأنا أشعر بثقل كيسي.

– وماذا تعتقد؟ ما الذي سوف تفعله هنا؟ غير أن علينا أن نأكل أولا. ها هنالك ينبوع، فأنظر اليه!

كان ماء الينبوع يجري تحت شجرة حور أسفل صهوة الجبل. جلسنا بالقرب منه، ورحنا نأكل ما جلبناه معنا، فكنا نغمس قطع الخبز في الماء البارد ونحشرها وراء كلا خدينا. واذ عززنا نفسينا بالطعام كما ينبغي، قلت انها بداعة أن يبنى كوخ ها هنا، فاعترض يوسف كشأنه دائماً، متحججاً أن الضجر سرعان ما ينتاب المرء ثمة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اضافة الى أنه لا يوجد في الجوار سوق أو مخازن، فكيف بامكان الانسان أن يعيش فيه اذن؟

مر الوقت في الحديث خلسة، واذا الريح ترقفع، بغتة والسماء تغطيها سحب سوداء، فقفز يوسف متلهوجاً وهتف:

– لسوف ترى كيف تصب ميازيب السماء!

استولى الذعر علي. اذ لم يكن ثمة مكان هنا يلجأ اليه، فيما نزول الجبل والمطر هطال محفوف بالخطورة، مع احتمال الانزلاق الى أسفل كل لحظة. ولكن أيعقل أن تكون الكارثة قريبة هكذا؟ جمعنا حوائجنا بسرعة، وجرينا نزلا على المنحدر، والسماء تزداد قتامة بين دقيقة وأخرى، والريح تقوى فتقوى طاردة ايانا.

عاد الجو براداً. واختطف البرق الأبصار منا بضيائه الساطع لحظة، فيما جعجع الرعد فوق رؤوسنا في ذات اللحظة رهيباً مفزعاً. اهتزت الأرض تحت أقدامنا. وأعولت واصفرت الريح عنيفاً لكأن البرق والرعد أمداها بالنشاط، دافعة ايانا الى الأمام، حتى وقعت موشكا السقوط في الهوة، فصوخت مرعوباً:

– يو... سـ... ف!

غير أن الريح كممت صرختي، وحملتها بعيداً.

وفي نفس الدقيقة انهمرت قطرات ثقيلة من الماء حصبت جبهتي: واذن فقد تساقط المطر.

أصبح تساقطه مدراراً، وفي خلال لحظات معدودة نقعنا بالماء حتى عظامنا، وانحنت أعواد العشب خارة على الأرض، فغدت زلقة الى مدى فظيع. ثم لمحنا، والبرق ينبر الأمداء بسطوعه، صخرة ناتئة أمكن الاحتماء تحتها، فهرعنا اليها بسرعة. بيد أننا لم نجد ملاذاً حتى هنالك من مطر مدرار، فكانت المياه تتدفق بين الشقوق جارفة معها الأحجار، لتنهمر علينا جداول مشخابة. كان السيل يهدد باغراقنا في الشعب. وتردد هزيم الرعد المصم. وتواثبت الى جانب ملجئنا صخور كبيرة، هاوية على المنحدر الى أسفل، فجمدنا الذعر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكنت أكرر بيني وبين نفسي، فعل جدي اذ كان يستظهر دعاءاته: «آه لو نصمد حسب! آه لو لا ننزلق حسب!»

بيد أن المطر ظل ينهمر مدراراً، فيما نرتعش نحن مبلولين بردا، دون أن أعلم كم استغرق كل ذلك من وقت. اذكر حسب أن أصابع يدي تشنجت أخيراً، ولم نعد نأمل بنجاة، عندما سمعت فجأة خلل ضجيج الأمطار صوت أحدهم، بينما بدا لي في البداية أن أذني انما تخدعاني، ولكن الصيحة ترددت ثانية، عقبها نباح كلب فكم كان فرحنا بذلك النباح عظيماً!

فهتفت دون وعي:

– يوسف! يوسف! أتسمع؟

صاح يوسف:

– بلـلـلـلـ...لى!

وهنا رأينا كلباً ضخماً يشق سيول المياه، اندفع نحونا نابحاً بصوت عال، غير أننا ما عدنا نخشى ذلك النباح، بل ليعضنا حتى اذا شاء، وماذا في ذلك! فلقد كتبت لنا النجاة أخيراً! وخرج الراعي القرغيزي من وراء الصخرة، وكان الآن يضع معطفاً واقياً من المطر فوق ردائه الرعوي، وفي يده تلك العصا التي رأيناها من قبل. وثب الكلب اليه، ثم الينا، ومرة أخرى اليه، معبراً عن سروره. فيا له من كلب ذكي طيب محبوب! أخرج الراعي زمزمية دون ان يفوه بحرف، صب لنا في غطائها سائلا شفيفاً، وأعطاه لنا لنشرب بالتتالي، فشعرت في فمي شيئاً ما حارقاً لاذعاً، ثم شاع دفء لذيذ بعد لحظة في كل أطرافي وكأني عدت الى الحياة مجدداً. وليس الا بعد ذلك أمرنا الراعي:

– هيا معي!

سرعان ما وجدنا أنفسنا قريباً من الخيمة، حيث كان فحم يتقد داخلها في موقد له.

– جففا نفسيكما!

ثم خرج الراعي، دون أن ينبس بكلمة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طفقنا نجفف ملابسنا، بينما دخل الى الخيمه ذلك الصبي، الذي لاحظناه في الصباح يستخرج السمن. قال ضاحكاً:

– نلتما جزاءكما، ها؟ أخفتما كثيراً؟

أجاب، يوسف، وقد احمر:

– لا، وماذا يمكن أن يخيفنا؟

– أحسنتما! غير أننا، عمي وأنا، خفنا كثيراً.

فقلت غير فاهم:

– انتما؟ ولماذا؟

– وكيف لا! فأنتما لا تعلمان ماذا كان بالامكان أن يصيبكما. وأما عمي فهو عالم. أتسمعان كيف تخر الصخور متدحرجة؟

حقاً. لم يكن الرعد وحده ما يجعجع، بل الانهيارات كانت جارية في كل مكان. وسألنا ساكن الخيمة الصغير عن اسمينا، فأجبناه. فأعقب:

– وأما اسمي فهو ميرتيمور. لماذا لاتجلسان؟

بسط سفرة الطعام، ثم وضع عليها خبزاً وجبناً، وقصعة عليها لحم مسلوق، ولبناً رائباً. فهجمنا على الطعام بشراهة.

وعندما كف تهطال المطر عند المساء، رافقنا ميرتيمور وعمه، وكلبهما المخلص، حتى حدود البرية. ثم قام الراعي بمصافحتنا كما لو كنا كباراً، وقال بهدوء:

– تصحبكما السلامة.

– شكراً لكم على كل شيء، شكراً لكم.

هتفنا بذلك، وسرنا قدما في البرية.

ثم التفتنا وقد قطعنا مسافة، فرأينا الراعي يقف مرتكزاً على عصاه، مرسلا طرفه في أثرنا، فيما بدا لنا عملاقاً في غسق المساء. ولوح لنا ميرتيمور بيده، وكارو يقعي الى جانبهما. صحت:

– الى اللقاء!

فسمعت صوت ميرتيمور يردد مجيباً:

– الى اللقاء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولوحنا بيدينا مودعين مواصلين دربنا، ونحن نستشعر فرحة ودفئاً في قلبينا رغم أننا كنا عالمين أن عقاباً «جيداً» ينتظرنا في البيت.

وليس الا حين كبرت فهمت سبب تلك الفرحة الغامرة الغابرة فأكبر الافراح في الحياة تلك التي تجتنيها. أثر الالتقاء بانسان طيب.

١٩٥٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جمعة آدينايف. ولد عام ١٩٣٠ في قرية نيقنوط في عائلة مربي مواشي عمل بعد انهائه دراسته الاعدادية في كلخوز سائقاً لتراكتور، وفي مختلف أنواع المهن الحقلية. وفي عام ١٩٤٨ أنهى المدرسة التربوية. فعمل معلماً في مدرسة. عام ١٩٥٦ أنهى الكلية اللغوية بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين فعمل في ادارات تحرير المجلات الأدبية والجرائد، فرئيساً للقسم الأدبي في دار نشر «عرفان» بدأ النشر في بداية الستينات. مؤلف بضعة كتب قصص وأقاصيص مكرسة بخاصة لتصوير حياة الجيل الشاب – ترعرعه فتطوره.

قصة صورة

كان هنالك، عند مقر الفرقة الثالثة العديد من الناس في ذلك المساء، تحلق بالقرب من الميزان لا الطلبة القادمين من المدينة حسب، بل وشباب الكلخوز الذين لم تمنعهم الأشغال البيتية عن الحضور كان التعارف قد تم، فجرى الآن تبادل ملاحظات حريفة، ملحة وراء ملحة، غير أن أحد القادمين من المدينة قال بنبرة تشي بالقلق:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– اسمعوا أيها الاخوان، أين صالح؟ انني لم أره منذ الصباح...

– اوه، عثر على من يقلق عليه! هذا الخنفس ليدخل الماء فيستطيع أن يخرج منه جافاً، بل وقد يدخل النار فيقفز منها سالماً. أنه، كما تعلمون، يحاول اكتساب تجربة، يتكرم أن يجتهد الى جانب رئيس الحلقة آوغولآي...

اقتربت عربة نقل محملة عالية بالأكياس، قفز من فوقها بمهارة شاب يناهز العشرين من عمره، في جزمة عالية مدعوكة، القى على ظهره في الحال كيساً مليئاً، ثم أنزله بصمت عند قدمي الفتاة الواقفة متعبة في الطابور عند الميزان، وتوجه لحمل كيس آخر. واذ انتهى من وضع الأكياس واحداً على آخر اتكأ عليها كما لو سيصور. فهمست الفتاة لقبها وهي ترفع كيساً فتضعه على الميزان:

– آجيلوفا.

وحاد رئيس الفريق بنظرته عن مؤشر الميزان، قائلا:

– أربعة وثمانون! أحسنت نفيسه، لقد تفرقت اليوم على نفسك!

تناولت الفتاة الكيس بصمت، الا أن أحد الفتيان، استبقها. فقال الشاب ذو الجزمة العالية، دون أن يغير من وقفته:

– ايه، اذا كانت أربعة وثمانون كيلوغراماً تستأهل هذا القدر من الشكران، فلسوف أستحق أنا الضعف.

فرد أحدهم على كلماته، فيما ضاق المكان فجأة حول الميزان:

– اها، صالح ظهر، ونحن الذين اعتقدنا انه ضاع في جدول او تاه، لذلك لن نعرف لمن نسعى: الى الاسعاف أم الى الميليشيا...

كوم صالح أكياسه على كفة الميزان، فهدأ الجميع وراحوا ينظرون الى رئيس الفرقة، الذي أعلن بعد تفحص طويل لمؤشر الميزان:

– مئة وأربعة وعشرون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فصاح قادمون من المدينة منبهرين:

– أحسنت حكيموف!

المسألة أن أحداً منهم لم يفلح اليوم بجني حتى سنتنار* واحد. الا أن الفتاة زعلت لسبب ما. ثم حاولت. تبرير الأمر قائلة:

– ولكنك تجني منذ الصباح أما أنا فلم أبدأ الا في منتصف النهار.

فمزح صالح اذ سمع نبرة الزعل:

– لن تلحقي بي حتى لو بدأت الجني منذ بواكير الصباح أو منذ المساء. أتعلمين على يد من تدربت؟ على يد رئيس الحلقة اوغولآي. فهيا غداً نجني بجنبنا!

٢

استيقظ صالح وما زالت في الليل بقية. والقمر يسفح فوق السهب نوراً كدراً، حيث الضباب عالق لما يزل، فيما بدا أشبه بصحن هائل مترع بالحليب. اغتسل بماء الحنفية، وتناول فطوره في الحال، وكان عثمان مشغولا بالقدر فلم يلحظ لذا توجهه الى الحقل، فصاح في أثره:

Telegram:@qbooks2018

– الى أين صالح جان؟ الشاي على وشك التقديم!

– لسوف استغني عن الشاي هذا اليوم.

– الجو بارد، فعليك تناول شيء ساخن...

– لا بأس.

– انتظر اذن لحظة.

كان الطباخ بعد دقيقة يقف الى جانبه.

– خذ هذا.

– ماذا؟

– لا شيء الا شطيرة.

شعر عثمان بالخجل لسبب ما ثم اقترح:

---

* مئة كيلوغرام – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– أتعلم؟ عندي بضعة ساعات حرة بين الافطار والغداء، فهل تريد أن أعينك؟

فاعترض صالح:

– اوه، كلا. ليس هذا من شيم الرجال. وعلى العموم، فما الفرق بين أن يجمع هذا أو ذاك الكمية الاكبر؟

فاتسعت عينا عثمان:

– بالطبع؟

– مع السلامة، يا أيها الطباح.

صفقه صالح على كتفه بقوة، ومضى بخطى عريضة الى القاطع الذي أفرزه له في المساء رئيس الفرقة.

كان النور يتدفق في أرجاء السماء، فيما ظل المكان خالياً حوله.

وضع صالح الأكياس قرب الجدول، ربط فوطته لجمع القطن جيداً، وبدأ يعمل، فكان قطر الندي المتجمع على الجوزات يلسع ببرودته أصابعه، فأسرع في عمله كيما يشيع الدفء في جسده.

بعد مرور نصف ساعة اضطر الى خلع دراعته، وكان يشد بفوطته عندما سمع خشخشة فالتفت نحو مصدرها، فاذا به يرى فتاة قادمة نحوه بسرعة وثقة. وها هي تقف الى جانبه مبتسمة.

– آه، هذا أنت؟ مرحباً!

لم يكن قد أمعن النظر في فتاة الأمس. فقد كان مشغولا بأمر نفسه قبل أي شيء آخر. ولو لم تتحدث الآن ما كان بامكانه التعرف عليها أبداً. انها لابسة بصورة عملية، رداء من القطيفة، وحذاء مناسب، يسمحان لها العمل بحرية في الحقل. للفتاة شفتان رقيقتان ورديتان، وعينان سوداوان فستقيتان، وابتسامة تكشف عن أسنان بيض، وهي لاتتجاوز السابعة عشر على الأغلب. وفكر صالح جان:

«أنظر، يا لها من فتاة. ولكن حذار من أن يدعكني شباب القرية هنا. فهنا عقدة مسألة تكدر أمزجتهم أمس،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فانصرفوا كل الى مهجعه في الحال». وشع بريق ابتسامة الفتاة ثانية، وهي تسأل:

– يبدو أن المدينة عندكم لاتخلو من المتباهين؟

– ليس الجميع، بالطبع... وكل عائلة لها بلوعتها أنا هكذا وليس سواي...

– ما الذي أيقظك مبكراً هكذا؟ ألم تستطع النوم دون سرير؟

– كلا، لست من المنعمين الأماليد، بل وأنام جيداً حتى على الأرض. ولكن، ما أيقظك أنت هكذا في وقت مبكر؟

– أنا بنت قرية، تنام مع الدجاج وتصحو مع صياح الديك.

– ولا تزورين سينما ولا ناد؟

– لا أزور. – أجابت بذلك، ثم أطفأت ابتسامتها في الحال، وأضافت:

– هيا الى العمل، والا افتضحنا.

– يمكننا التحدث ومواصلة الجني. هذا لا يعيق ذاك.

– من أي معهد أنت؟

– من الفني.

– أنت اذن فنان؟

– بلى، فنان مؤجل.

– وهل تستطيع رسمي.

– ولم لا؟ هنالك، بالقرب من الجدول، عندي قلم، ولسوف أعثر على ورقة. وسوف أرسمك في الحال.

– كلا، لا داعي لذلك... سوف يسخر أبناء المدينة منك قائلين لك: من أين عثرت على هذه القبيحة.

فاعترض صالح محتدا. – قبيحة؟! ان صورتك لتزين أي معرض للرسوم.

كان واضحاً أن هذا المديح قد أعجب الفتاة الا أنها دمدمت:

– يبدو أنكم أبناء المدن لاتتباهون حسب، بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتسخرون أيضاً لا بأس بكم، ما ان تروا فتاة قروية وديعة حتى يخطر في بالكم الضحك منها: «صورتك تزين أي معرض للرسوم» ما أجملها من كلمات! تعتقدون أننا بنات القرية لانفهم شيئاً؟

كانت الفتاة تقلد طريقة العجائز في الكلام عن عمد، بيد أن صالحاً لم ينتبه الى هذا الأمر، فراح يبرر عن جد:

– صدقيني، لم أفكر في السخرية منك، المعذرة، رجاء.

غير أن الفتاة قاطعته مستأنفة:

– ما أن نصل الى النهاية تجني أنت الى اليسار وأنا الى اليمين.

– ولم؟

– كي نكون بعيدين عن بعض.

– ولكني أفضل الجني قريباً من بعض!

علق صالح بجرأة ثم ندم في الحال مفكراً: «ماذا لو زعلت». بينما أجابت الفتاة:

– مازلت لا تفكر الا فيما يخصك.

كانت الفتاة راغبة ان تقول ذلك بجد، غير أن ابتسامتها الخائنة فضحتها ثانية.

وصلا نهاية الحقل. أشارت الفتاة الى اليسار، ثم الى اليمين.

– لسوف تجني أنت في ذلك الجانب، وأنا في هذا.

ثم أضافت بعد قليل من التفكير:

– أنت لا تزعل بالطبع؟

ابتسم صالح: أزعل؟ ممن؟ ولم؟

عندما تحولا الى حوض جديد، كانت الشمس قد ارتفعت عالياً فوق الجبال ذات الصهوات البيضاء. مضت الغريمة تجمع الفوط الملأى التي تركت بين الأحواض. وبعد أن أهالت القطن في الكيس، ظللت عينيها براحة يدها ونظرت بعيداً الى الجبال العالية، التي كانت الشمس ترتفع فوقها عالياً فعالياً. وكان قطر الندي الذي استقر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أوراق شجيرات القطن يتلامع أشبه بالخرز أو بحبات من اللؤلؤ.

رغب صالح أن يرسم هذا الحقل الكلخوزي، وهذه الفتاة، امام خلفية عرمة القطن الكبيرة جداً. نظر الى حقيبته حيث قلمه وألبوماته، بيد أنه غير رأيه لسبب ما: «حسناً، لندع ذلك الى وقت آخر».

٣

كان تجمع الناس عند مقر الفرقة الثالثة أحشد من ليلة أمس. وها قد ظهرت العربة أخيراً، وكان السائق ونفيسه يجلسان على أكوام الأكياس المملوءة بالقطن في المقدمة. أما في مؤخرتها فقد جلس صالح، وظهره اليهما، مطلقاً أغنية ما.

فقال كلخوزي شاب لواحد من المدينة دخل في حديث معه:

– صوت حسن، يغني من كل قلبه، أخشى أن يكون قد سقط في الحب.

– وهل هذا أمر سيىء؟

– كلا، ولم؟ غير أن نفيسه تنهي هذا العام مدرستها. وتنوي التقدم الى معهد الطب، لتعود بعد ذلك الى هنا...

مغزى الكلام كان واضحاً. كل وما له. لكم المدينة، ولنا القرية.

توقفت العربة عند الميزان. قفز صالح، فأمسك بيد عثمان وتنحى به جانباً، وسأله مهتماً:

– من الأكثر؟ هي أم أنا؟

– هذا غير مهم.

– كيف غير مهم؟! أتدري، اذهب الى حقيبتي الظهرية وأجلب كتاب فاتح نيازي «الاخلاص».

– وما حاجتك به؟

– لغاية! أسرع رجاء!

انتهوا من وزن قطن نفيسه. فراح الزملاء يضعون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن أكياسه في الميزان. فاتضح أن صالح قد جنى من القطن أقل من نفيسه بثمانية كيلوغرامات، ولكن القادمين من المدينة والكلخوزيين راحوا، لسبب ما، يهنئون لا الفائز بل «المغلوب».

– أحسنت، يا بني!

– شغال، لا لبس في ذلك!

في ذلك اليوم لم يستطع الا هو، نفيسه، ورئيس الحلقة اوغولآي من جمع أكثر مئة كيلوغرام.

استنطاع صالح أن يتخلص بصعوبة من أترابه الذين حاولوا ايصاله أو ربطه بهم. فيما دفع عثمان الكتاب في يده، فكتب عليه بسرعة بضعة كلمات وأرسله الى نفيسه، مما جعلها تبتسم وهي تنظر الى الاعيب ابناء المدينة. وقال صالح ماداً يده:

– أعلن استسلامي. النصر حليفك. والمنتصر يستلم عادة غنائم، فأسمحي لي...

وقدم لها الكتاب. بينما اقترب منه في هذه الأثناء رجل ضخم البنية، فلم يستطع صالح قول ما عنده الى النهاية. فقد جعجع قائلا:

– واذن، أين من فكر بالتبارى معك يابنيتي؟

ثم أضاف بلهجة متوعدة:

– الي به هنا.

أشارت نفيسه برأسها الى صالح. فجعجع الرجل ثانية:

– لنتعرف الى بعض أيها الشاب. أنا آجيلوف رئيس الكلخوز. – وصافح باليد التي مدت اليه – كنت في مركز المحافظة ولذلك لم أعلم بأمر المباراة. والا كنا أقمنا اجتماعاً صغيراً ووجهنا الشكر اليك. ليحالفكم الحظ. – ثم وضع يده على كتف الفتاة، وأعقب، – هيا يا بنيتي، هيا الى البيت...

تساقط المطر ليلا. وأذيع بالراديو أن الجو السيىء سيستمر بضعة أيام. وعندما ذهبت نفيسه الى المدرسة ألقت نظرة على الشايخانة التي عاش الطلاب فيها فترة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجني، ولكن أحداً لم يكن هنالك. اتضح أنهم سافروا منذ الصباح، دون أن تتيح لها فرصة رؤية كيف رحلوا.

وما حدث معها بعد ذلك أمر غريب، فقد أصبحت كالمأخوذة، وكأنها أضاعت أو نست شيئاً ما في مكان ما. وفي البيت غالبا ما كانت نظرتها تحط على الكتاب الذي أهداه لها صالح، وتمسك به بين يديها متمعنة الاهداء المسطر عليه، فيما بدا عليها وكأنها مشغولة بحل مسألة جد معقدة. كان قد نقش على الكتاب بحروف كبيرة وبصورة واضحة: «أتمنى لكم نجاحات كبيرة في مجال الدراسة والحياة الخاصة، وأثق من انكم سوف تنجزون الكثير بما تتمتعون به من غيرة وحماس. ص. حكيموف».

باغتتها في أحد الأيام صديقتها حليمة وهي متلبسة بمثل هذا الانشغال، وكانت هذه قد علمت بأمر المباراة، وان ذلك «الطالب المتباهي» قد أهداها كتاباً. فسألتها قبل القاء التحية، وقد اتسعت عيناها:

–واذن، ماذا نقرأ؟ اها، ذلك الكتاب؟ كل شيء أصبح واضحاً الآن، وأنا التي صدعت رأسي بالتساؤل ما الذي جعل صديقتي العزيزة تصبح هادئة هكذا! ما الذي يجعلك تنظرين الي هكذا: أنني وقعت على بيت القصيد؟ هل وقعت في الحب يا شاطرة؟ وهل هو يكتب اليك؟

أرادت نفيسه الدفاع عن نفسها بالمزاح الا أنها أفلتت: «كلا» رداً على السؤال. فأعلنت حليمة وهي تنتزع ورقة من دفترها:

– ان لم يكن يكتب اليك فسوف نكتب له نحن.

فمالت نفيسه نحو صديقتها مذعورة:

– كيف ذلك، كيف ذلك! أمالكة أنت عقلك؟ ما الذي سيفكر به؟

فاتسعت عينا حليمة دهشة:

– ما الذي سيفكر به؟ لسوف نكتب له أن لا يفكر بشيء. هكذا على الأقل: «تحية من غريمتك السابقة في مباراة جني القطن. اقترح عليك الدخول في مباراة دراسية...»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– كلا، لا داعي لأية رسالة.

فمضت حليمة وراء صديقتها وألقت ذراعها على كتفها:

– أتعلمين؟ اتضح أنك حمقاء قليلا. قريباً سوف ترتحلين الى دوشنبه لمواصلة دراستك.

– وماذا في ذلك؟

– لسوف تلتقين به هنالك.

فاستدارت نفيسه عنها متنهدة:

– اوه، يالك من صديقة. دوشنبه اولا مدينة كبيرة، قد نلتقي وقد لا نلتقي. وثانياً: ماذا يعني لو التقينا؟

– هم – م... أكاد لا أستطيع التعرف عليك في الآونة الأخيرة.

– ولكن أفهمي، نحن حتى لم نحدث بعضنا بعضاً كما ينبغي، بل أنني حتى لا أعرف اسمه!

– وماذا في ذلك، لنسرع والا تأخرنا عن السينما!

وها هي نفيسه الآن طالبة في معهد الطب.. مرة زارت صحبة صديقاتها معرضاً للرسوم فراحت تنظر الى احدى اللوحات حيث رسم فيها شاب يكاد يلامس بأصابعه مفاتيح البيانو وقد نظر الى فتاة كما لو انه يهتف: «واذن، هيا!» كانت اللوحة مرسومة بتلقائية جعلت صوت الفتاة السعيد يبدو كما لو كان مسموعاً. لم تنتبه نفيسه الى ابتعاد صديقاتها عنها، وعندما التفتت عن اللوحة راحت تبحث عنهن في الصالة، وكان الناس قد تجمعوا بشكل خاص بالقرب من احدى اللوحات، حيث لوحت لها صديقاتها. ابتسم الجميع بصورة غريبة، فاقتربت منهن. فيما قالت احداهن وشيء من الزعل يشوب صوتها:

– اتضح انك صموتة!

– ما الذي حدث؟

– أنظري، من هذه؟

– من أين لي أن أعرف من هي؟

– وتتظاهرين وكأنك لاتعلمين؟

نظرت نفيسه بامعان الى اللوحة. كانت ثمة شمس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرة تشرق من خلف الجبال، فيما قطرات الندي تتلامع مثل اللآلىء على جوزات القطن المتفتحة، وفي الوسط مزرعة واسعة، حيث وقفت فتاة الى جانب عرمة القطن الكبيرة. كانت الفتاة تظلل عينيها براحة يدها، فحاجباها معقودان، وعلى شفتيها تتراقص ابتسامة غير مفهومة، فبدت كأنها على وشك الضحك، والانطلاق من مكانها لتجري الى هنالك حيث تتألق صهوات الجبال تحت الشمس. وفكرت نفيسه «أيعقل أنني أشبه هذه الفتاة، أيعقل أنني هكذا جميلة؟».

شعرت برغبة لرؤية نفسها في مرآة.

– ولكني لا أعرف أي فنان فلم القول أنني على شبه بفتاة الصورة؟

ثم رأت تحت اللوحة عنوانها وتوقيع الفنان على الرقعة النحاسية الصغيرة: «ص. حكيموف. فتاة من الكلخوز».

فارتسم في مخيلتها في الحال حقل الكلخوز وقت الخريف، والشاب الذي أحمر وشحب اذ تحدث اليها زمناما. ففكرت نفيسه: «أين هو الآن؟ وهل تراه يفكر بي؟».

بينما كان صالح يقف على مبعدة، ينظر الى لوحته، وقد شغلته ذات الفكرة.

١٩٦٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد السلام عطابايف. ولد عام ١٩٣٤ في مدينة ايسفارة. أنهى عام ١٩٥٨ كلية اللغة والأدب لمعهد دوشنبه التربوي. عمل صحافياً. ينشر منذ الستينات. مؤلف بضعة مجاميع أقاصيص ومسرحيات، تعالج بخاصة قضايا العصر الراهن الأخلاقية.

ملامح الأب

كل مرة أسافر فيها من دوشنبه الى ايسفارة، أتوجه الى قريتي الأم، لزيارة ضريح والدي.

ثمة يرقد الوالد تسمق شجرة دلب وارفة الظلال، ألتجيء اليها، فاجلس تحتها، مستمعاً الى خشخشة أغصانها.

لم تكن شجرة الدلب هذه هنا من قبل، أذكر ذلك جيداً: لم تكن هنا من قبل. فمن غرسها يا ترى هنا عند قبر والدي؟ انها ليست أمي، وكذلك ليست جدتي، لأنهما كانا أخبراني بذلك، بل انهما ما كانتا لتغرسانها من غيري، كانا اصطحبتاني معهما بالتأكيد... فهل يعقل أن تكون الشجرة طلعت لوحدها هاهنا؟...

9—75

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أستمع الى وشوشة الأغصان فأتصور أن والدي يقف الى جانبي، هامساً لي شيئاً ما، كما لو أنه عاد الى الحياة مجدداً في صورة هذه الشجرة السمحاء.

ما ان تتحرك الأغصان قليلا، فتهتز أوراقها الكبيرة كراحة اليد، وتلامس بعضها بعضهاً، حتى تبدأ وشوشتها دفاقة، فماذا تراها توشوش لي ياترى؟ وما الذي يريد والدي قوله لي؟... أنني جالس بهدوء، مطأطىء الرأس، أستمع الى كلام الوالد...

عندما نمت فوق قبر والدي هذه الشجرة قام أبناء القرية بغرس جانبي الطريق بأشجار الدلب منها الى هنا احتراماً لذكرى الوالد، فنشأ مع مرور الوقت ممشى وارف الظلال جعل المكان هنا جميعاً أكثر جمالا.

كان لي من العمر ثلاثة أعوام عندما غادرنا والدي الى الجبهة، فلست أذكر ملامح وجهه تقريباً، الا شاربيه الطويلين فاذا كنت ألتقي فيما بعد برجل له مثل هذين الشاربين كنت أجمد في مكاني، متسائلا ما اذا كان هذا الرجل انما هو والدي نفسه. فكنت أسير وراءه أنظر الى وجهه بانتظار ما اذا كان سيبتسم لي أم لا. فقد كنت لا أذكر والدي ولا أتصور ملامح وجهه، اما الرجال بشاربين طويلين فقد كانوا كثاراً. وكانت جدتي ووالدتي قد وصفتا لي من قبل كيف كانت عيناه، حاجباه، جبهته، انفه، ورغم ذلك لم استطع تركيب ملامحه من هذه التفاصيل. لم أكن أرى سوى شاربيه حسب، انما كنت أطمئن نفسي بأنه سرعان ما سوف يعود من الحرب فأستطيع رؤيته انذاك. والتعرف على ملامحه تماماً...

كنت أعد الأيام منتظراً أوان أوبته، واقفاً الساعات الطوال على قارعة الطريق...

ثم استلمت جارتنا العمة حنيفة اشعاراً بـ«الاستشهاد» فعلمت أن زميلي سراج قد أصبح دون أب... انخرطوا في البكاء في بيتهم بمرارة، وتليت ايات من القرآن، وجاء اليهم من القرية أناس يطيبون خاطرهم ويشدون من ازرهم في المصاب، فسكن الرعب قلبي انذاك. كنت أعتقد أن الجميع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يأتون من الحرب أحياء وأصحاء: يذهبون الى الجبهة، يؤدبون الفاشست، يدمرون دباباتهم وطائراتهم، ثم يعودون الى بيوتهم. الا انه اتضح أن الأمر في الحرب مختلف تماماً، فالناس يستشهدون هنالك، ويدفنونهم في الحال في ساحة الوغى. فراح الخوف، خوف معذب، يعتصر قلبي، وهاجس يطوف بي: ماذا لو حدث الشيء نفسه لوالدي... فكانَ كل ما في داخلي يهتف: «كلا! كلا! يجب علي أن أرى والديَ! اريد رؤية وجهه!»

بعد ذلك الاشعار بـ«الاستشهاد» الذي استلمه جيراننا جمدنا جميعاً – جدتي، أمي، وأنا – من الخوف عندما رأينا العم بابا رحمة الطويل اللحية، – موزع البريد عندنا، يأتينا الى بيتنا. اهتزت الأرض تحت أقدامنا، وسقط القلب في منأى ما، وأظلمت الدنيا في عيوننا، ما ان استطالت لحظة ذلك الاظلام. لقد أدركت كل ذلك بالطبع فيما بعد، بعد أن كبرت.

كان بابا رحمة رجلا طيباً، ذكياً، رهيف الاحساس، طمأننا حال شعر بما يساورنا عند ظهوره:

– لا تخشوا شيئاً!..

فتنفسنا الصعداء في الحال. وقالت جدتي، وقد أمض بها الكبر، «الحمدلله» مرتكزة على عصاها أشد من قبل. اما أنا فقد كنت أهز طرف رداء بابا رحمة متقافزاً من الفرح:

– أين رسالة والدي؟ هات رسالة والدي!

مست والدتي باحترام كتف العجوز بيديها مشيعة اياهما بعينيها، وكررت:

– لك الشكران، ولينزل الله عليك بركته.

تطاير الخوف من القلب بسبب كلمات بابا رحمة البسيطة فأفعم بالأمل. فقد عنت هذه الكلمات انه يحمل لنا أنباء طيبة، وأفصحت أنه يحمل لنا رسالة لا اشعاراً بـ«الاستشهاد» فما ان استلمت الرسالة حتى ضغطت على العيون، وجيىء لموزع البريد رغم رفضه، بحفنة من الكشمش والمشمش المجفف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما اذا كان بابا رحمة يتوقف عند العتبة صامتاً، مطأطئاً رأسه نحو الأرض، فقد كان الناس يفهمون أنه يبدي تعاطفه معهم، فكانوا يتخشبون في أماكنهم، وقد أخرسهم المصاب.

لم يكن بابا رحمة الحكيم يجاهر باستشهاد أحدهم فيوقع المصاب مقتلا في قلوب ذويه، انما كان يواسيهم بلطف، ويمضي بدماثة.

– لا تحزنوا، لعلها هفوة، العالم يعيش بالأمل.

وكان لايسلمهم «الرسالة السوداء» انما يعود بها معه، فكان حين يمضي يرتفع العويل، وتغرق القرية في حزنها وحدادها. تلك الأيام التي كانوا يبكون فيها على الفقيد كانت تسمى عندنا بـ«الأيام السوداء».

كنت صغيراً، والحليب لم يجف بعد على شفتي، كما كانت أمي تقول، حين عرفت معنى الحداد، وخبرت الحزن الجماعي، وعانيت من ذلك اسوة بالآخرين.

لم نلعب، أنا وسراج، لعب الأطفال الصخابة، فقد كنا نخرج كل يوم تقريباً الى طريق موميناك لملاقاة موزع البريد معرفة منه ماذا يحمل اليوم من الأنباء ولمن.

وفي احدى المرات عن لي أن أسأل سراج، عن سبب خروجه الى الطريق، فأجاب:

– ماذا لو عاد أبي رغم كل شيء.

ولكنهم كانوا قد استلموا «رسالة سوداء» تحمل خبر والده، فلماذا لايني يأمل؟ وهل يعود الموتى الى أهاليهم؟

فأجاب سراج كأنه حزر أفكاري:

– في المدينة قد عاد عدة أشخاص على رغم أن أهاليهم استلموا «رسائل سوداء».

– أيعقل ذلك؟

– بلى. لقد قال بابا رحمة لأمي، – أجاب سراج ناظراً الى جهة ما.

فهمت ان كلماتي قد سببت له ألماً، فقد مضى الى شجرة التوت دون أن يفصح عن شيء آخر، قطع منها غصناً ثقفه من أوراقه، وراح يرسم بالعود على الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحسست بالذنب، دون أن أعرف ما الذي علي أن أفعله لأكفر عن ذنبي. غير أنني كنت راغباً بقوة مده بالسلوان، فسألته بغتة:

– سراج، وهل تستطيع أن تتعرف على والدك لو جاء فجأة قادماً على هذه الطريق؟

أجاب سراج مفاخراً:

– كيف لا! كان لي من العمر خمسة أعوام حين مضى الى الجبهة! كان قد أخذني الى السوق العامة واشترى لي حمصاً مملحاً. فأضفت مكتئباً:

– أما أنا فلست أستطيع التعرف على والدي أبداً. أذكر ان له شاربان طويلان حسب. وأمي تقول أنه كان لي من العمر انذاك ثلاثة أعوام...

نظر سراج الي دهشاً: كيف لي ألا أستطيع التعرف على والدي! لعلي أكذب! ثم قال:

– غير أني أعرف والدك عبد الله!

فلم أصدقه:

– أنت؟! أنت تعرف والدي؟

– بلى أذكر، كان يجلسني في تراكتوره غالباً، كان مرتفع القامة، طويل الشاربين.

كنت أعرف أن والدي كان سائق تراكتور، وبعد مضيه الى الجبهة قامت سليمة بقيادة تراكتوره.

أشار سراج الى الحقل الواسع، وقال:

– هذه الأرض كلها حرثها والدك بتراكتوره.

نظرت الى الحقل الأخضر، بيد أني لم أستطع أن ألحظ كيف انبجست الدموع من عيني: دموع التحنان والشوق الى طلعته.

* * *

كانت جدتي تذكر والدي أثناء صلاتها متوجهة الى الله مبتهلة:

– ليشتعل بيت هتلر وليكرف الموت عساكره! وليعد الغاربون الى بيوتهم، ومن بينهم ابني، آمين!.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي أحد الأيام أيقظتني أمي وشيك الفجر، قائلة:

– استيقظ يابني، لقد عاد والد نعيمجان من الحرب!

قفزت، وهرعت الى الباحة، مفكراً ان والد نعيمجان قد جاء الينا الا أنني لم أعثر على أحد هنالك. فصحت لأمي:

– أين هو؟ أين هو اذن؟

فأوضحت أمي:

– انه في بيتهم، ماذا دهاك؟

جريت الى بيت نعيمجان حافياً كما كنت، لكأن أبي قد عاد من الجبهة لاغيره، وماذا لو كان العائد أبي لا أبيه؟ فلربما كان قد نسى الطريق الى بيتنا فمضى الى آخر؟ أم لعله قد مر عليهم، وبيت نعيمجان لايقع الا في الطرف الآخر من الشارع.

اقتحمت باحتهم فاذا بي أرى والد نعيمجان، فخبا أملي: كان الرجل من غير شاربين، فهو ليس أبي اذن. وكان نعيمجان جالساً في حضنه معانقاً اياه شابكاً ذراعيه حول رقبته، وهنا رأيت سراج قادماً مثل الطير، فرحت معه أنظر الى نعيمجان بحسد، من زاوية الباحة.

كان العم محي الدين – هكذا كان اسم والد نعيمجان – قد نضا بدلته العسكرية عن نفسه، وارتدى رداءه، فكانت احدى الردنين خالية لسبب ما، فدهشت لذلك كثيراً. فيما سألت سراج بهدوء:

– وأين ذراعه الأخرى؟

أجاب سراج:

– أكلها الفاشست.

فنظرت الى سراج متشككاً. ولم أصدقه:

– كيف هذا؟! وهل يأكل الفاشست أذرع الناس؟

فافصح سراج:

– الفاشست مثل المردة، انهم أكلة لحوم بشر، ولذلك يسمونهم الفاشست.

شعرت بالرهبة، أيعقل أن الفاشست يأكلون الناس؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم؟ وهل يعقل انهم أكلوا والد سراج أيضاً؟ لقد أكلوه فعلا كما يبدو. والا لماذا استلم أهله «رسالة سوداء» لاغير ذلك؟!

اتممت العام السابع من عمري. عدت أعرف الآن من هو هتلر، ومن هم جنوده. انهم اكلة لحوم بشر، أشرار، وقساة. يهدمون المدن، ويحرقون البيوت. فيما عرفت الآن أيضاً أن الحرب لا تبعث لنا برسائل سوداء حسب ، بل وبرجال ذوى ذراع واحدة.

رحنا، أنا وأمي وجدتي، ننتظر، بعد عودة والد نعيمجان، عودة والدي أيضاً، غير أننا لم نستقبل سوى الرسائل.

وكنا في أحد الأيام جالسين مساء في الباحة عندما رأينا سراج وأمه راكضين، فيما صاحت العمة حنيفة ملتقطة انفاسها بصعوبة، وقد امسكت قلبها بيدها:

– اهنئكم، اهنئكم بالنبأ السعيد!

فنهضت أمي من مكانها:

– ما الخبر، ما الخبر افصحي بسرعة!

فهتفت العمة حنيفة حسب:

– لقد جاء! لقد جاء!

– أيعقل حقاً؟!

قالت جدتي ذلك وقد انتوت النهوض أيضاً غير أن قواها خانتها وكأنما عدمتها تماماً، ولم تطاوعها ساقاها. ارتبكت امي ولم تعرف أين تضع من يدها قدح الشاي الذي كانت تشرب منه. بينما قفزت أنا ونظرت الى العمة حنيفة وسراج مفكراً. «واذن الرسالة السوداء لم تكن صادقة! وبابا رحمة كان على صواب عندما قال: قد تكون هفوة!»

وأعلنت العمة حنيفة متلهوجة:

– أهنئكم، أهنئكم! لقد رأوه في موميناك!

وعت جدتي الأمر أخيراً وفهمت أي خبر سار جيىء به اليها، فنطت عن الدكة، وافرعت شعرها ساحبة المنديل من حوله، وجرت من الباحة، بسرعة لم نستطع لحاقاً بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأينا رجلا في معطف عسكرى طويل بالقرب من المدرسة. يستند على عكازين قادماً الى جهتنا، حيث بدت ساق واحدة لاغير تحت معطفه، تئط، ولما أمعنت النظر فيها تبينت أنها خشب! لم تكن ساقه التي تئط، بل الخشبة. فما الذي كنت أراه؟ كنت أرتعش كلية، فأين ساقاه؟ وهل أكل الفاششست حتى ساقيه! اواه، يالهم من أكلة لحوم بشر...

كانت الأوسمة والميداليات تتلامع على صدره، فيما تلاصفت بينها ساطعة نجمة ذهبية جميلة.

مدت جدتي ذراعيها مفجوعة، واحتضنت الرجل ذا المعطف العسكرى بقوة، فيما ضغطت امي وجهها الى كتفه.

وعندما استطعت أخيراً انتزاع نظرتي من الأوسمة والميداليات نظرت الى وجه الرجل فرأيت الشاربين الطويلين الأسودين، شاربي والدي لاغيره! فاهتزت الأرض تحت قدمي، ودارت الدنيا أمام عيني. لقد كان الرجل ذو المعطف العسكرى والدي، والدي الذي أستطيع أن أقول له: ابتاه، أخيراً!

– ابتاه، بويه!

صحت واندفعت اتشبث برقبته.

* * *

استمر العيد في بيتنا أسبوعاً بأكمله، وكان والدي يحملني على كتفه، وانا أمشط شاربيه، ما يبدو لي أنه أجمل اسبوع في حياتي.

في أحد الأيام سمعت أمي تقول لجدتي:

– الجراح تغطي جسده كله، كل جسده ندوب، ما أقواه هذا الانسان...

– ليس عبثاً أن يقال ان الانسان أصلب من الصخر وأرق من الزهر...

بلى، استمر العيد أسبوعاً كاملا في بيتنا. غير أنه استحال بعد اسبوع آخر الى فجيعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيقظني في الصباح عويل ثبور تطلقه أمي وجدتي، فركت عيني فاذا بي أمام والدي ميتاً. كان مضطجعاً الى جواري وقد ضغط رأسه الي، واحتضنني بذراع واحدة، رأيت ذلك بأم عيني ولم أصدقه.

عصى علي الدمع، ولم أستطع أن أصرخ:

— بويه! بويه!

وبعد مرور فترة طويلة، فهمت وقد أصبحت راشداً، أن والدي، شأنه شأن والد سراج، احتمل أن يسقط شهيداً في ساحة الوغى محطماً الفاشست غير أن الحظ كان قد حالفني. انه عاد، وان ثخنت جراحه، الي ابنه عبر كل ذلك الطريق الطويل الشاق، عبر الدخان والنار، وعبر العذابات والآلام، ليبقى لي من ملامحه في ذاكرتي نظرته المتفكرة، ابتسامته الجميلة، وصوته.

١٩٧٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تيمور ذو الفقاروف. ولد عام ١٩٣٦ في مدينة دوشنبه في عائلة عالم استشراق. أنهى عام ١٩٦١ معهد غوركي الادبي بموسكو. بدأ النشر في الستينات. مؤلف قصص عن مشفقي، عمر خيام، خوجا نصرالدين وكاتب عدد من السيناريوهات. ولقد حاز فيلم «الانسان الذاهب وراء الطيور» الذي كتب له السيناريو على جائزة «الطاووس الفضي» للمهرجان السينمائي الدولي بدلهي. يتميز نثر ذو الفقاروف بجدة الشكل، وبخاصية الأسلوب، وسطوعه.

الخوجا نصر الدين يحلم بالسفرجل

(مقتطف من كتاب)

يا اماه، بيبي لبق، هل هاتان ذراعاك؟.. يا اماه هل هذه أغصان؟.. أغصان؟... انني أطير؟ انني نائم؟.. كلا، لست بنائم. ازيحي يابيبي لبق، انزلي أذرعك — الأغصان... انني أطير. دون صوت، سريعا، متوغلا في الأشجار.

أيتها الشجرة الأم العجوز، أذرعك جافة، متخشبة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرضية... أيتها الأم أنت شجرة يابسة. أنني أحبك أيتها الأم، فلا تموتي، ولا تمضي. لا ترفعي أذرعك عن وجهي. لاترفعي أذرعك – الاغصان... لا تنزليها...

ثمة شجرة يابسة تنتصب عند حدود القرية، شجرة دلب صينية قذيمة. تمر بها طرق قوافل النمل الجرارة، في الليل وفي النهار، يسير النمل في الظلام وفي النور، تحت ضوء القمر وفي نور الشمس!..

اما الشجرة فقد كانت متحصنة بصمتها، لانها يبست، ونفقت. انها ميتة، ولهذا تمر بها، دون ماتني، جحافل النمل الدؤوب...

...أيتها الأم، أن النمل يزحف على أذرعك، يتزاحم، يتوغل، يجرى ويجرى، ولكنك لا تنفضينه عنك، ولا تهلكين، بل تبتسمين لي حسب وتلاطفين وجهي بأصابع هادئة...

ولكن!..

انني أطير فوق أشجار السفرجل الذهبية... فوق تلك شجرة الدلب اليابسة عند طرف القرية...

أنني أطير! أطير يا اماه!... ووووووو!..

– بني، بني، استيقظ. لاتصخب يابني. لسوف توقظ الجيران. كفى طيرانا. اهبط الى الأرض... استيقظ... لقد بزغ النور... آن أوان الاحتطاب في الشعب... استيقظ يابني.. لقد طرت فكفى. استيقظ يابني، استيقظ يا نصرالدين..

– دعيني يا اماه أطير بعد قليلا... انني أطير في بساتين السفرجل الذهبية الغائمة البعيدة، هائم فيها كطير!...

ويستيقظ نصرالدين فجأة على كلمات ابيه، ويقفز، مع بطانيته السميكة الرثة، عن المخدة الضيقة المسطحة وسنا، فتيا، عنيفا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عيناه غائمتان، وبأصابعه النحيفة يحك ويتعذب. والقشعريرة تلم به بسبب هواء الصباح الخريفي الحاد المرعش. انها القشعريرة والقنوط...

لقد مضت أطياف شجرات السفرجل الذهبية.

مضت. مضت. مضت.

فارقته...

اليخشور حمار عجوز هو الآخر عندنا. انني أشفق عليه، فقوائمه ترتعش من الكبر، وشعره عليها قد انحسر وتساقط وانكفأ فكأنه عشب الخريف الكامد، فهي تكاد أن تكون صلعاء...

انني اسير بمحاذاة الحمار، ولا امتطيه. فأنني أعطف على القريب، حتى لو كان حماراً... اعطف على قوائمه الهرمة المرتعشة الصلعاء، فسرعان ما ستمر به بدوره جحافل النمل، نذر الموت...

ولكن ما الذي يدعونني لتوجيه النظر اليها دائماً؟ ولا أشيح ببصرى عنها؟...

فصباح الطيور الخريفي الرائق الصافي ينتشر ويتجلى حولي، أما أنا فلا أفعل سوى النظر الى قوائم الحمار. بل وعينا الحمار تخران دمعاً مكآباً حزيناً سخيناً...

فما دعواى بهذه القوائم المرتعشة المهلوسة والعينين الدامعتين؟ ما دعواى؟...

ان من يمتلك روحاً رقيقة حساسة، طيبة جداً، تشعر اكثر من اللازم لايعيش طويلا. فلسوف تتعب، وتتبدد، وتنضب. او انها تصبح فريسة للاقوياء والأشرار...

هكذا تكلم والدي.

أنني أتذكر كلماته وأحاول نسيان أمر قوائم الحمار وعينيه.

أنظر الى السماء، فالسماء مدرارة، طازجة، باكرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خريفية. لقد انبثق الفجر، وطارت الطيور جميعاً، فالسماء متوحدة، مضجرة... السماء الباردة للطيور الباردة...

...واما بكور الضباب الرهيف فما تزال حاضرة في شعب الجبل، والنهر البلوري الصغير يسقسق بنعومة ووهن ووسن على الأحجار. أنه شعب أشجار الدلب. فيما الأشجار القوية المتماوجة تنتصب وسط النهر، بين الأحجار، في المياه المشخابة السريعة. انها ما تزال خضراء أشجار الدلب الجبلية هذه، رغم أن الخريف قد حل، وبساتين السهل قد اصفرت، وتعرت، وخلت...

أرانب الخريف، وثعالب الآلاي الحمراء، تنشط هنالك في بساتين السهل، أرانب وثعالب خريفية صفراء.

اما هنا فثمة أشجار الدلب الخضر النهرية، وارفة الظلال، الشعثاء، الطازجة الباردة.

أنني أحب هذا الشعب، وأعرف كل حجر فيه، وكل شجرة، وكل وحش. أنني أحب كل حجر، وكل شجرة، كما لو أنها كانت أحياء، بل هي أحياء، تنبض حياة...

وأنني أعرف بأن الأحجار والأشجار تحبني بدورها. كما لو كنت قريباً لها.. أعرف، فهي تحس بذلك...

انني ارغب بعد الموت أن أستحيل صخرة أو شجرة في هذا الشعب.. أو حيواناً.. ولكن ليس مفترساً، فلأكن أرنباً خريفياً، أفضل من ثعلب...

هذا العشب مهدي، ومرتع صباي، وأنني أصطاد في هذا النهر الحجري بسلة من الخوص سمك الفاريل، الفاريل الرشيق اللؤلؤي الملوكي!...

يقول والدي:

– كن يابني طاهراً مثل فاريل الينابيع هذه، وعش بين الناس الشرفاء كما تحيى هذه الأسماك في المياه الصافية...

ولكن أين هم هؤلاء الناس الشرفاء، وأين هي هذه الأسماك النقية، والمياه الصافية؟...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشرب الحمار العجوز اليخشور مياه الينابيع الثلجية الحادة من النهر.

ويحتطب الشاب نصرالدين ببلطة طويلة غير عريضة من أشجار الشاطىء اليابسة: الحور والصفصاف...

فيما البلطة تهوى في الهواء مقحامة، تشق فيه شقاً، فنصر الدين حطاب ماهر حاذق سريع.

وتتهاوى قطرات العرق البلورية من وجهه الدائرى الحامي لتتساقط في نهر البلور...

أوخ! أيها الشعب يامرتعي ومربعي! ويا ايها الصباح الطازج الندي... أريد أن أكون بعد موتي صخرة من صخورك، شجرة، حيواناً.. لاقف هاهنا دون حراك الى الأبد، أتنفس وأعيش، وأشم، هواءك الخريفي الفواح!..

ولكن، حتى اشجار الدلب تجف وتموت، وكذا الصخر يتفتت، وكذا الوحوش تنفق...

اواه، فالأفضل أن أكون انساناً اذن رغم كل شيء...

فالدلب شجرة حسب، والصخر جماد حسب، والحيوان وحش حسب. أما الانسان فهو شجرة وجماد ووحش، وأمور أخرى... وقد قيل عند الشيخ الرومي:

ليس هنالك في العالم ما هو خارجك
فكل ما تفكر به انما هو في داخلك...

وقيل أيضاً في الكتاب المقدس: «كل شيء وأنتم انفسكم الا أنكم لا تعلمون!..».

ولكن، لم يموت الناس، لم، ولماذا يبادون؟...

لم أمي، بيبي لبق الوديعة الهادئة الصامتة عجوز لم؟.

ولم والدي مصطفى آتا*، الخزاف العجوز، متهدم الأسنان، الفخار، صاحب اللحية البيضاء تماماً – لم عجوز، لم؟

ولم قوائم الحمار اليخشور صلعاء مرتجفة واهنة، لم، لم؟

---

* كنية احترام للكبار – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تزحف جحافل النمل، نذر الموت، قوافل قوافل، لم، لم؟
لم؟ لم؟ لم؟ لم؟
العقاب لايناسب الجرم.. بل وأي جرم هذا؟ لم؟ لم الموت؟.
اوه!...

أصابت البلطة العمياء موجعاً من قدم نصرالدين، على نعل أبيه العتيق الرث.
انسابت الدموع على وجه نصرالدين، بسبب الألم هذه المرة، الا أنه يضحك، ويضحك، ويتقافز على قدم واحدة...
أواه، لقد عاقبني ربي على التفكير بأمور لايحسن التفكير فيها!..
ان الألم يحل عقدة اللسان. ولكن الحكيم لا يكثر الكلام، فقد قيل: «من يتكلم لا يعلم، ومن يعلم لا يتكلم...»
صمت نصرالدين، خلع عن قدمه النعل الممزق، الذي حماه من وقع الضربة، ورمى به الى النهر.
فطفا النعل سريعاً على سطح المياه حتى اختفى فى المنعطف.
وهنا سمع نصرالدين صيحة سكرى، مصمة، قوية، قريبة:
— آي! آي! آي!
ان دراويش خوارزم الصعاليك وحدهم يصيحون هكذا، بمثل هذا العمى والحذر والعته.
— دوست! خاك! خو!...
راح نصرالدين يجرى نحو مصدر الصوت، بنعل واحد في قدمه، تاركاً آثار النعل وقدم حافية بتتال غريب على رمل الشاطىء البكر الناعم...
من ذا يصيح بهذه القوة والقدرة في الشعب المضبب في هذا الصباح؟ لقد رشح الصوت بخوف وطلب للمعونة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– أيها الناس، النجدة، أنني أموت! عفريت يقتلني، يميتني! اوخ! النجدة! أيها الناس!

يهرع نصرالدين الى فسحة رملية قريبة من النهر، فيرى عجوزاً أبيض اللحية في رداء خراساني فضي خفيف، قصير، من ذلك الذي يستعمل في الصيد، وقد تمنطق عليه بحزام أحمر عريض. وفي قدميه جزمتان عاليتا الرقبة من تلك التي ستعمل في الصيد أيضاً، وتصنع في ساسانيد. فيما العجوز يصيح ويدور متواثباً على قدم واحدة على حجر الشاطىء الزلق الرطب كعنز جبلي نزق...

ويتعرف نصرالدين عليه في الحال: انه كوبرى هندية ملكية. لقد شدت على ساق العجوز بقوة، بينما رأسها المنفوخ المقدس يهتز ويتأرجح بفعل تواثب العجوز المسعور الأعمى...

المعتاد أن تهاجم الكوبرى في الحال، فلم احتاجت لي ساق العجوز والاحاطة بها؟ قلم تصفر لها؟... أمر غريب...

ولكن رأس الافعى الملكية يهتز يتلوى، يتهادى، بليونة وتبصر أمام العجوز، بينما يحاول هو الاستدارة والتخلص من ناب الافعى السديد المميت:

– آي! آي! آي! أنني أموت! النجدة! عفريت تلتهمني، يميتني، النجدة!

يلحق نصرالدين بالعجوز الصارخ المشرف على الهلاك.

– ش‌ش‌ش‌ش! أيتها الأفعى! يا قريبتي! أنظري الي! أتعرفينني؟ أنا نصرالدين! ها! هيا الي!

يحرك نصرالدين يده ببراعة خلال لحظة أمام رأس الافعى، يحاول خلب لبها، ولفت انتباهها عن العجوز المحتضر، رأس الكوبرى يتمايل الآن، يفح، يقترب من وجهه، رأسها حامل الصواعق، رأس الموت... هاهو... ساخن.. أعمى!

ولكن يد نصرالدين أسرع...

وها هي تختطف بقوة وقسوة الكوبرى عند رأسها تماماً تقريباً، ثم هاهما كلتا يداه تحيطان، وتعتصران

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الافعى، عند قاعدة رأسها.. الأفعى تشعر بالاختناق.. رأسها يتململ.. يفح.. ويتهاوى منفوخة، مستثارة، متموجة، محتقنة، وجلدها المشدود المهشهش خشن، كتلك السفرجلة الذهبية الليلية...

يبتعد نصرالدين، ويحرر ساق العجوز... فيما الافعى تفح طويلا، وتضربه بذنبها على وجهه... ما أشدها! ما أعنفها! ما أوعرها!

ولكن رأسها يتطامن مرتاحاً متعباً متهالكاً بين يدي نصرالدين القويتين.

يسحب نصرالدين الافعى عن العجوز:

– لا تخف أيها المحترم، يبدو أنها تصورتك جذع شجرة. والا كانت عضتك ببساطة...

فقال العجوز بصوت أجش:

– بلى، أنني عجوز، أشبه جذموراً.. أما الآن فأقتلها! اخنقها! انها عفريت! انها تطاردني منذ أمد بعيد!..

– كلا، أيها المحترم أن عفريت قزم له شعر ذهبي... وهو يعيش في مدن الصحراء المهالة بالرمال السادرة.. وفي المزارات البعيدة... أما هذه فهي كوبرى.. أفعى خسب.. ملكية! انني احبها!.. فهي خيرة!..

– اقتلها! أنني آمرك!

– لا يجوز!

– لم؟

– نحن من جئنا الى مأواها، فنحن من أراد قتلها. فهل هذا عدل؟ لو كانت قد جاءت الى بيتنا لحق لنا قتلها. أما هنا فهذا الشعب بيتها، ونحن فيه غريبان.. نحن ضيفاها.. فهل يقتل الضيف سيد الدار؟...

هرع نصرالدين الى جانب، فوضع الافعى على الرمل، وابتعد.

راحت الكوبرى تعود الى الحياة، تحرك رأسها، تتلوى، وتتناهض ثم ابتعدت بعد ذلك دون ضجيج واختفت بين الأحجار. لقد ذهبت، فيما خلفت، وراءها أثراً رقيقاً طائراً رائعاً على الرمل...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– انت فتى لايخلو من حكمة، فمن أين أنت؟ ومن انت؟ وكيف حدث أن دخلت أملاكي؟..

– أنا نصرالدين من قرية الدلب العجوز ابن الخزاف مصطفى آتا...

– عرفتني أنت؟

بالطبع كنت قد تعرفت عليه في الحال: أنه محمود طلعت بيك. نصف ولايتنا تعود اليه، وكذا هذا الشعب مهدي ومرتع صباي، وكذا سمك الفاريل يعد اليه.. وكذا الكوبرى.. والدلب.. أما أنا فلست أملك سوى حماري العجوز اليخشور، فلم ذلك؟

– عندما كنت تركض وتصرخ ما تعرفت عليك ايها المحترم، الا أنني الآن أرى من أمامي، انه عالي المقام طلعت بيك...

– لك لسان لاذع كناب الكوبرى.. انقذتني من الافعى، وها انت الآن تعضني. ولكنني أغفر لك. فانك من خلصني من الموت، من عفريت.. لقد طاردنا نمرا طورانياً حتى هنا، غير انه عبر النهر سباحة كسمكة، ومضى الى مستنقعات البعوض وتهت، بينما يبحث عنى موكبي للصيد... أتسمع نباح الكلاب، وقرع الطبول؟

وهنا سمعت قرع طبول مستثار واهن، ونباح كلاب برية ذئبية واطئة. ثم برزت من بين الأحراش جياد وحشية فحلة لا تعرف التعب، خاصة بصيد النمور، وعلى رأسها آتابيك الشرس قارابوتون... فانزلقت عيناه الصفراوان النفاذتان كعيون الثعالب علي... فكأن سهمين منغوليين ازا... رنانين.. مرعشين!..

وقد قيل عند عصام بن منقذ: «الصقور تصطاد ماتريد وتخلي سبيل من تريد».

ولقد اخلت عينا قارابوتون سبيلي، الآونة...

وكان الصيد فاشلا، لم يأت بطائل، فالطبول تقرع هدراً، فتوقظ الشعب البرىء الصباحي البكر..

والجياد تدربك عبثاً، تبحث، تشمشم، وزبد الطراد، يعلوها، ويتقاطر منها...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلاب البرية الذئبية الواطئة تدس اخطامها عبثا هنا وهناك..

والرمح المميت ينتصب هباء في يد قارابوتون، بانتظار...

ولا شيء يطير، لا شيء يطير، لا شيء يطير!..

ولم يقع على خلائق، ولا على وحش هرب، دمى!...

لم يقع! و.. كان ذلك عبثاً!...

والنمر، النمر مضى، عبر النهر مثل سمكة، الى المستنقعات الآوية! الى الأماكن الآمنة!

مضى، مضى سمكة!

الحمد لله!...

وأبتسم نصرالدين.

فما أن رأى طلعت بيك هذه الابتسامة وفهم مغزاها ومعناها، حتى صاح:

– الصيد غير مرزوق وغير دموي، لسوف أستبدل جياد لوكاي بأفراس خفاجة الصحراوية القائظة! وجياد كراشير آكلة اللحوم ومهاجمة الذئاب! لسوف أستبدل كلاب البرية الطرشاء بكلاب الرعي طاردة الذئاب! ولسوف أستبدل طبول خوارزم الخرساء بتركية تصم! لسوف أطاردك، واستبدلك! اوخ، اوخ، يا آتابيك قارابوتون! النمر سبح سمكة في النهر، هارباً من الجميع، وأنا الذي أحب الدم! الدم! فأين هو؟ مضى الى المستنقعات؟ بلى!؟ مضى!..

جلس طلعت بيك على منحدر الشاطىء.

كان الزبد يخرج من فم العجوز كما لو كان جواداً من لوكاي تسمم، بل وأصبحت عيناه بيضاوين مثل غيوم أيار الحليبية...

– أنني أحب، أحب، أحب الدم الفتي العنيف! ولكنه مضى، مضى الى المستنقع! الذنب ذنب عفريت كله! انه يعيقني في كل مكان... لم يتبق لي الا القليل لاعيش واتنفس... وكما قال الصيني القديم: «لقد آن أوان انقطاع أوتار العود!..» بلى! بل وجلد الطبول عتيق ورث، حاله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حال جلدي! المهترىء، بلى، لذلك تراني أريد دماً فتياً غريباً! ولكنه مضى الى المستنقعات!.. لم؟.. مضى؟.. الدم؟.. الى المستنقعات؟..

– الكهول متعطشون للدم الفتي، فكأنه يستطيع أن يدفيء دمهم الذاوي الأصفر الخريفي... والدجاج يقوقيء أيضا، وهو معفر بذروقه ويصفق بأجنحته القصيرة، عندما يرى طيور الربيع المهاجرة... فيا أيها المحترم طلعت بيك، تذكر أنه قد قيل عند حكيم هرات الشيخ انصري: «كنت أحين، فاذا الملاك عزرائيل يدق طبل النشور، وكنت دون زاد للطريق، وأعمالي غير منته منها... والحسنات لم أقم بها... ولكن الأوان لم يفت بعد... فلم تعجل الذهاب على جوادين الى مدينة الشر؟ لم يفت الأوان بعد.. بل، وممكن القيام بعمل الخير حتى على فراش الموت.. ومايزال هنالك متسع من الوقت حتى أوان اعداد تابوتك، فهل يعقل ايها المحترم محمود طلعت بيك سليل آل المانغيت أنك ترغب أن تجعل من موتك الخير الوحيد للمحيطين بك؟...

كانت عينا نصرالدين الجريئتان تنظران بوضوح وبراءة الى الصياد العجوز...

– كيف تجرؤ على التحدث هكذا مع سلطاننا رفيع الجاء وانت الصعلوك التافه ابن الخزاف؟ – صاح بذلك آتابيك قارابوتون من جواده، ورمح الصيد المنكود الحظ يستعيد الحياة في يده – لعل دم هذا الحطاب الوقح الملعون يعوض لنا دم النمر الضائع؟ فهذا لن يهرب منا الى مستنقعات البعوض!...

– يا صاحب المعالي، يا آتابيك قارابوتون، صنو الصقور الذي لا يلين: لمن الأسهل لكم الحصول على دم الحمير! ها هو حماري اليخشور، لا يهرب ولا يمضي سمكة. فهو عجوز. فانفذ به رمحك العادل الغضوب الثابت! ولكن لا تخطىء الرمية، والا فهو يرسل ناحيتك ريحاً مرة ثبور! – وابتسم نصرالدين.

– دعه يا قارابوتون. لقد انقذ حياتي. انتزع عن ساقي التي بردت، وخطت الى جهنم، العفريت المميت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لسوف يأكل معي في قلعتي. أنني أريد توجيه الشكر له. وكلماته تعجبني... يجب أن يكون هنالك في كل بلد انسان واحد على الأقل يقول الحقيقة... والا فالضجر يصيب الحاكمين... ولكن ليس أكثر من واحد! فهيا معي يا نصرالدين يا ابن الخزاف!..

– علي نقل الحطب الى البيت. والدي ووالدتي يجلسان دون نار، وهما شائخان...

– لسوف ينقل الحطب اليهما قارابوتون عقاباً له على افلاته النمر! ليمض آتابيك بالحمار والحطب مكللا بالعار دون طريدة! هاها... هاها! هيا الى قلعتي يانصرالدين! اواخ، ولكن الدم، الدم فلت من يدي! وهو الذي كان جد قريب، لكنه مضى!..

– لم يمض! – همس قرابوتون بذلك، فيما عيناه الصفراوان الثعلبيتان النفاذتان المهلكتان تنزلقان مجدداً على وجه نصرالدين، ومن جديد أز سهمان منغوليان بدويان قرب أذني نصرالدين... اذا لا أكثر، الآونة...

ومضيا في سماء الخريف الباردة المرعشة...

الآونة...

ولكن نصرالدين الشاب، الحر، النحيف، المديد القامة ابتسم، لانه اعتاد منذ طفولته العمل بالبلطة والمسحاة...

اقترب من حماره، ثم احتضن رقبته الطويلة الدافئة:

– هيا، لنمض أيها اليخشور! لقد دعونا الى القصر... الى قلعة البيك... أنه لشرف كبير! هيا يا صديقي، بقوائمك الصلعاء.. لنمض الى البيك، رغم انه يتوجب الخوف، من حسنة وحب الحاكم قبل أي شيء آخر في الدنيا... لنمض يا صديقي...

١٩٧٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محي‌الدين خوجايف. ولد عام ١٩٣٨ في قرية نيكوله – الكسندروفسكي بمنطقة ستافروبولسك، في عائلة معلم دين. أنهى عام ١٩٦١ كلية اللغة والأدب بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين. عمل ويعمل في المجلات الأدبية. ينشر منذ بداية الستينات. مؤلف بضعة مجاميع قصص واقاصيص. وفي بداية السبعينات عمل في بناء محطة نوريك لتوليد الطاقة الكهربائية في مجال أعمال الخرسانة، حيث جمع مادة روايته: «الماء شارة خير في الحلم» الصادرة بكتابين، والتي حازت على جائزة كمسومول تاجيكستان.

هنهونة آكسانا

رنت اكسانا الى ابنائها، ثم ابتسمت لشيء ما... و... ترنمت بلطف.

كلا، ليست هنهونة، فآكسانا لم تعرف أية أغنية من هذا القبيل. انما ترنت بأغنية قديمة غابرة، سمعتها في احدى المرات من أمها، حول أربع شجرات كرز مكلكلات على النهر، كانت فتاة تحدثهن واحدة واحدة عن أفراحها وأتراحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويا للدهشة فاذا بضنوها يغرقون في النوم العميق ببهاء. وأما ماجرى عبر هذين العامين فان آكسانا لتستطيع التحدث عن ذلك لأكثر من كرزة.

* * *

لقد اقترب الموعد خلسة رغم أنهم تحدثوا عن أمر توزيعهم قبل ذلك بكثير، وكانت قائمة الأماكن قد نوقشت في الفصل من قبل الجميع. وكان على البعض السفر الى تاجيكستان، ولكن الجميع وجد عذراً للامتناع عنه، الا آكسانا هذه عدمته تماماً، بل انها لم تبحث عن ايما عذر. كانت آكسانا مستقلة: تسريحة على المودة، عينان زرقاوان، طروبا، لا تقنط الا نادرا، مقابل لسان حاد لها كأنه الموسى، فكانت تستطيع الدفاع عن صويحباتها أمام كائن من كان. وليس عبثاً ان كن يتحلقن خلفها اذا ما اقتضت الضرورة شرح أمر ما مع العميد.

— ...أجئت بمحض رغبتك أم أنهم أجبروك على ذلك؟

أربك سؤال مدير المدرسة آكسانا ارباكاً كاملا، فلم تستطع العثور على جواب مناسب لهذا الرجل في أواسط العمر، الذي كان يبحلق في تنورتها جلد الشموة الحديثة ممتعضاً بوضوح، نظرته التي كانت ملحاحاً، حتى أن آكسانا شعرت وكأنها مست شيئاً ما لزجاً.

كانت الطريق قد أتعبتها. لم تلجأ آكسانا الى العناوين التي زودتها أمها بها، مراداً أن لا تزعج أناساً لا تعرفهم. توجهت في دوشانبه مباشرة الى وزارة التعليم الشعبي، ومن هناك سافرت الى نوريك، وهاهي تقف الآن عند مدرسة قرية ديخي بولو. ولقد فكرت وهي تواجه المدير: «وما شأنه بي على العموم، هذا الأب الروحي الطالع لي من تحت الأرض؟» ولكنها أجابت بصوت مسموع:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ليس من الصعب الحصول على مكان لتأدية مدة العمل، ولكني رغبت أن أعرف كيف تستقبلون هنا ذوى الاختصاص من الشباب.

فتخلى المدير عن صرامته:

– حسناً، لا تزعلي. ولكني لم أوجه سؤالي عبثاً. فالظروف عندنا حاليا ليست من السهلة. انتقلنا الى هنا هذا العام حسب. فنحن لا نملك نوراً ولكننا نصبنا المصابيح بانتظاره. هيا معي لأريك غرفتك.

اقتاد المدير آكسانا الى غرفة غير كبيرة حوت سريرين نقالين.

– الغرفة معدة لاثنين، الا أنك الوحيدة من النساء في هيأة التعليم عندنا.

وبحلق المدير من جديد بها بنظرته الموخزة. ولم يفارقها الشعور باللزوجة حتى استدار على عقبيه ناوياً الخروج.

كان هنالك ينبوع يجري وراء المدرسة في الحديقة، انتبهت آكسانا اليه وهي تسير صحبة المدير الى غرفتها. فتناولت صابونة ومنشفة ومضت الى العتبة. كان الخلاء حولها ساكنا خلافاً لما ألفته، ليس الا الشمس توهجت قرصاً برتقالياً فوق صهوة الجبل القائم أمامها، فيما شعت من قبل، في الظهيرة، اثناء توجهها من نوريك الى هنا، قائظة لاهبة، حتى أن آكسانا رأت فيها في الحال العدو رقم واحد بالنسبة اليها. فاذا راح النمش يظهر على وجهها نقطة وراء اخرى، فذلك لايناسبها تماماً.

أما الآن فقد ابتسمت لقرص الشمس كصاحب طيب، ولكن أي صاحب، ولا صديق لها غيره ربما في هذه الأرجاء. فكانت أشعته الساطعة تتسلل الى عينيها محاولة يائسة، وكأنه مغرم ملحاح قرر لفت الأنظار اليه مهما كان الثمن. ولقد استجابت آكسانا لهذه اللعبة فأغمضت عينيها لحظة رداً لهذا الزميل الطارىء، فيما لامست الأشعة الدافئة الرقيقة وجهها وكتفيها، متلاشية في مكان ما. فتحت عينيها فاذا قرص الشمس متربع على صهوة الجبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كالسابق، الا أنه لم يكن دائرة ملتهبة هذه المرة، بل تفاحة ضخمة حمراء، اقتطفها لها فارس الأحلام.

نزلت آكسانا الى الماء، فشعرت بدفقة من البرودة، خلعت حذائيها، ولذع الماء البارد قدميها بعذوبة، فيما التعب يسرى منها هارباً مع الجدول الى أسفل... حتى تردد صوت مفاجىء:

– المدير يدعوك اليه...

استوت آكسانا بحدة، وهي التي لم تكن تتوقع أن يرقبها أحدما، بينما رأت أسفل السفح شاباً يقف ناظراً اليها. فامتعضت، وأنزلت أذيال تنورتها الشموة بقوة، بحيث كادت تتفتق، وهتفت:

– يالهذه الحملقة!

ثم هرعت الى الممشى المطروق، سائلة دونما ثقة:

– والى أين يدعوني؟

– الى بيتنا، اجتماع معلمين، قريباً تبدأ الدراسة، وينبغي التعرف لبعض.

فضحكت آكسانا من تطيرها:

– هذا هو الأمر اذن!

وأضافت:

– وأنت، أتعمل أيضاً في المدرسة؟

– بلى. رئيس لقسم التعليم، واسمي عمربك.

– رئيس لقسم التعليم؟ – وكادت آكسانا تطلق ضحكة الا أنها سرعان ما تمالكت نفسها: ذلك اذن أنها ستعمل تحت أمرته.

كان المدير والرئيس لقسم التعليم في نظرها يعلوان دائماً بشبر على الأقل فوق قامة أي معلم عادي. ولكن ها هو شخص من أترابها كما يبدو، بل ويحم خجلا، ساذجاً، ويقوم باعباء هذه الوظيفة، وربما لا يعرف عن الحياة شيئاً.

غيرت آكسانا ملابسها قبل الذهاب للانضمام الى هيأة المعلمين. فالحال هنا ليس حال المدينة. أفردت شعرها في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضفيرتين قويتين، وأزالت عن وجهها آثار المكياج. وبعد تلبث قليل أزاحت كل تلك الحاجيات الى جانب.

كانت وجوه المجتمعين تلوح غائمة رغم نور الفانوس المنتشر بمنتهى قواه. فبدت هذه الأمسية الأولى لها في القرية، بعد ما خلفت من أنوار باهرة في المدينة الكبيرة، غريبة غامضة في نظرها. فقد ولد الفانوس الكيروسيني، والأحاديث المتمهلة، والبخار المتصاعد من أقداح الشاي، في نفسها احساسا بسهرة محلية غامضة.

حنى المدير رأسه قليلا، ثانياً على حضورها في ملبس آخر، وأعلن بصوت عال وكلام منمق للمحيطين به عن وصولها الطوعي الى هذه القرية للعمل في مدرستنا. فتصاعد التصفيق وأبدوا كثيراً من الاهتمام بآكسانا مما سرها شديداً. ألا أنها ظلت تشعر باللزوجة والدبق في كلمات ونظرات المدير ما ان توجه اليها، فاعتذرت آكسانا وخرجت من الغرفة.

عند الموقد، ثمة امرأة عجوز جالسة منحنية، فيما ظهر عمربك بالقرب من آكسانا قائلا:

— تعرفي عليها، انها أمي. غير أنك ستجدين صعوبة في التحدث اليها، عائق اللغة كما يسمونه.

فجثت آكسانا بالقرب من الموقد، قائلة:

— وماذا في ذلك، قفز الموانع رياضتي المفضلة.

ابتعد عمربك مرتبكاً. فيما ألقت آكسانا نظرة الى القدر الكبير وخمنت أنهم يعدون «البلوف» كيف لا، وهي التي خبرت هذا الطبق العريق أيام مطاعم الطلبة، الا ان ثمة شيئاً هنا يختلف تماماً، هذا الضوع الساحر المنبعث من القدر، الذي يدغدغ الخياشيم لاذعاً، تتلمع الحبات كالعنبر في ضوء نار الموقد. وعندما كان كل شيء يجهز ويكتمل لم تكن تستطيع كبح نفسها رغم أنها، شأنها شأن كل فتيات الصف، كانت تثابر على الحفاظ على رشاقتها. لم تعد آكسانا الى مكانها، بل جلست بالقرب من أم عمربك. ولما كان المدير يقوم بصب البلوف ألقى اليها نظرة خاطفة من طرفي عينيه، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– هذه خطوة حاسمة أيتها الزميلة. قد تعجبين أم عمربك، وابنها اذا كنت لاتعلمين أعزب.

نظرت آكسانا الى جانبهما، فابتسم الرئيس لقسم التعليم الشاب بمصافاة، وبصراحة، وبلا تصنع.

عن هذه الأمسية الأولى، غير المعتادة بالنسبة لآكسانا، التي بدا لها كل شيء فيها آنذاك جديداً غريباً، كانت آكسانا راغبة في البوح لأول كرزة من تلك الشجرات.

* * *

«...ما دهى تلك الكرزة متدلية هكذا كفتاة أصابها مصاب».

بدأت الدراسة، وتكومت اشغال على كاهل آكسانا لاعهد لها بها من قبل. كانت المعلمة الوحيدة التي تدرس الروسية. وكان هنالك عدد كبير من الأطفال في الصفوف الأولى، فقدر لآكسانا بذل الكثير من الجهد معهم. مقابل ذلك كان هنالك اثنى عشر طالباً حسب في الصف العاشر، كلهم من الأولاد. كان الأهالي يسحبون الفتيات من الدراسة حال وصولهن الصف الثامن، فأوان عرسهن يكون قد حان آنذاك. وثارت ثائرة آكسانا فمضت الى المدير، الذي استمع اليها بانتباه، بيد أن رده كان جد ملتو، وفي النهاية أضاف أن الفتيات في خاتمة المطاف يتزوجن جميعاً، فيما هو يلقي نظرة ذات معان متعددة الى آكسانا، فغضبت المعلمة الجديدة في دخيلتها، مفكرة: «كما لو أنني لا أعرف ما العمل من غير تلميحاته! وعلى العموم فهو لم يجانب الصواب، فالواقع أن الأمر هكذا...»

لم تفكر آكسانا من قبل بهموم القلب، وكانت قد احبت آخر مرة وهي في الصف العاشر. ولكنها من الصعب تأكيد هل كان ذلك حباً أم لا...

أما هذا عمربك مضحك رغم أنه رئيس لقسم التعليم... في هذا الحر الذي لايطاق وهو متحصن في ربطة العنق...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقام درساً مفتوحاً عندها فيما هو يستمع الى كل كلمة تصدر منها كما يجدر بانجب تلميذ طيلة الدقائق الخمس والأربعين.

لم تكن الأعوام الأولى في حياة آكسانا سهلة. فقد كان والداها قد افترقا عن بعض وهي ماتزال تلميذة بعد في المدرسة، بينما كانت نفسها مهيضة الجناح بسبب كل تلك المشاكل والتفاهات الناشبة بين والديها، واذا بالانفجار يحدث! فتعذبت طويلا مترددة في اتخاذ هذا الجانب أو ذاك، ولقد ترعرعت في كنف أمها الا انها لم تذنب والدها. ثم ظهر زوج للأم في البيت، فانطوت آكسانا على نفسها. وأصبح البيت لها منفى غريباً، مما كان وراء نزعتها الاستقلالية ربما، والرغبة للذود عن نفسها، فهي لم تكن تعهد بآلام روحها لا لأمها ولا لزوج أمها، فيما كانت لاتبخل في صداقتها بين أترابها.

ويأتيك هذا الرئيس لقسم التعليم...

لو قال لآكسانا أحدما أن عمربك يعجبها لقهقهت من كل قلبها. انه اخرق لخمة، فكأنه فتاة خجلى. أتستطيع الانكار؟ لم تستطع آكسانا الرد على هذا السؤال... وعندما قارب اليوم المدرسي الحافل بالمشاغل على الانتهاء، وهدأت قرية ديخي بولو، راحت آكسانا تتصفح أوراق كتبها التي جاءت بها معها.

بلى، يا له من أخرق هذا عمربك! لقد استدعاها الى مكتبه ناوياً كما يبدو خضها قليلا بسبب صفها الذي لم يؤد ما عليه من واجب في الحصاد، لكنه احمر اللخمة مثل فجر وردي.

كانت آكسانا تسترجع في ذاكرتها طويلا أيامها التي عاشتها في المدينة الكبيرة في الامسيات، بخاصة عندما يكون الجو رخاوة وعبقاً بضوع الخوخ والكمثرى الناضج في البساتين، والشراشف حارة الى درجة لاتطاق. فكانت تشعر بالرغبة الشديدة آنذاك أن يكون الى جانبها أحدما، يلامس براحة يده الدافئة شعرها، ويربت على وجهها، فيرتعش الصوت اذا تحدث المرء فيما تحثك هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الارتعاشة، وتمنح صدرك الدفء، وتلقي بقلبك المتعطش للحب في اتون الاشتياق.

أما هذا عمربك...

واستعادها من متاهة افكارها طرق حاسم على الباب.

ألقت آكسانا روبها على كتفيها، وأضاءت الفانوس، ثم صاحت بالواقف خلف الباب:

– من الزائر المتخلف هذا؟

طلب صوت المدير أن يفتح الباب.

فيما فكرت آكسانا في دخيلتها: «انه مبال باخلاقيتي ليس الا». عدلت وضع الفراش على عجل، ثم فتحت الباب، فاذا برائحة كحول، وبلوف، وأشياء أخرى تضربها في أنفها. اجتاز المدير عتبة الغرفة. ألقى نظرة حواليه وجلس على كرسي. لم تكن هنالك قطع آخر من الآثاث، فاقتعدت آكسانا حافة سريرها.

غمغم المدير:

– م م م.. تلاميذك لا يعملون جيداً في الحقل... يبدو انك ملاينة معهم، أعلم، أعلم، – ورفع يده أمامه عندما شعر أن آكسانا على وشك الاعتراض – لقد استدعاك الرئيس لقسم التعليم... عليك بالحزم أكثر، والا فان تلميذاتنا أيضاً سيرتدين تنورات المدينة القصيرة على غرارك.

– لقد فهمت منذ اليوم الأول أي طول مسموح به هنا.

Telegram:@qbooks2018

فتململ المدير علي الكرسي بخيلاء:

– ولكن القصيرة أحياناً لا تضر أيضاً.

لم تستطع آكسانا الصبر أكثر، فدفعت رأسها الى الوراء، وانخرطت في القهقهة.

نهض المدير عن الكرسي بخفة لاتناسب قامته الجسيمة واضعاً أصبعه على شفتيه، هاتفاً:

– هدوء! والا سمعونا.

لم تفهم آكسانا فى الحال لم كانت الأنفاس الحارة تلفح رقبتها: لكنها أجابت وهي تهوي بصفعة رنانة على خد المدير:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ليسمعوا!

طرحتها الضربة القوية الى الجدار، ففكرت على غير انتظار: «انه من حجر بحق وحقيق!»

لملمت آكسانا نفسها ما استطاعت الى ذلك سبيلا، وجرت ساقيها الى ذقنها تدفعها الغريزة للتهيؤ لحماية نفسها. وعندما خيم البدن الجسيم المترنح في ضوء الفانوس فوقها، دفعت ساقيها الى أمام كلولبين ينطلقان من معقلهما، فيما ترددت صوت مكتوم، وراح المدير يتهاوى على أرضية الغرفة. ألا أن آكسانا لم تر شيئاً من هذا، فقد جرت الى الحديقة، وأغصان الأشجار تسوط يديها وساقيها وظهرها، مفكرة: «هذا ما كنت بحاجة اليه أيتها الحمقاء، حديث ماتع في نور القمر – حتى توقفت عند الجرف، فالتقطت أنفاسها، وعدلت شعرها. وفلتت منها ضحكة مريرة. – الى أين تجرين أيتها الفتاة؟ من يعرفك ها هنا؟ ممن ستطلبين العون؟».

أرهفت سمعها، فلم يتناهى اليها الا وشوشة الاشجار هافتة، وخرير الجدول في الأسفل. فتذكرت آكسانا الشمس التفاحة، وماء الجدول البارد حتى كسر الاسنان. وذلك الشاب المضطرب.

– «جئت أدعوك..» وماذا لو كان الأمر دون دعوة؟ وهكذا خطت آكسانا الى بيت عمربك.

* * *

«والكرزة الثالثة بيضاء كلها، فكأنها عروس منكن أيتها الفتيات..».

بكى الصغير حسين، فتلهوجت آكسانا ألا يوقظ أخاه حسن فرفعت ابنها على يديها، وضمته الى صدرها...

في اليوم التالي سرت في المدرسة اشاعة رذلة حقيرة. فذهبت آكسانا الى المدير، وكان هذا يكتب شيئاً ما وقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انحنى على أوراق، فقرعت الباب متعمدة لتستأثر بانتباهه. فاستولى الارتباك على وجهه:

– انني لم أستدعك.

– انني لا أحتاج استدعاءك كي أقول لك رأيي فيك. انك تتسلل في منتصف الليل الى غرفتي مثل هر آذار، ثم تدحرج فيما بعد اشاعة قذرة عني...

– أية أشاعة؟

– كما لو أني ذهبت نفسي الى عمربك.

– وماذا في ذلك، أهي سرقة؟

بهتت آكسانا، فقد شعرت مجدداً بفقدان حولها في حضرة هذا المخلوق، كما في تلك الليلة النكراء. واذا بها تفصح فجأة على غير انتظار من نفسها هي:

– كلا، ليست سرقة. انما سنحتفل بعرسنا قريباً أنا وعمربك.

انحدرت زاويتا فم المدير الى أسفل، وأصبحت عيناه دائرتين، فيما اكفهر جبينه. ودون أن تمنحه فرصة ليثب الى رشده، صفقت آكسانا الباب.

مضت في الحال قبل أن تبرد الى الرئيس لقسم التعليم، فتكلم عمربك كشأنه دائماً اذا التقى بها بأشياء لا تخطر في بال، ثم جلس عاقداً أصابعه ببعض محدثاً آكسانا أن المدير قد عاتبه لأنه سمح لآكسانا بالدخول عليه. فتوترت آكسانا كلية، وتساءلت:

– وماذا أجبته أنت؟

نهض عمربك، فتناول قلماً من الطاولة لسبب ما، وراح يديره بين يديه:

– قلت له أننا سنحتفل قريباً بعرسنا.

– ماذا؟ – سألت آكسانا مكرراً.

واذ فهمت كنه الأمر هوت على الكرسي الى جانب عمربك، وألقت رأسها بين يديها، متنهدة:

– يا له من مشهد سينمائي! لقد قلت له الامر نفسه تواً!

ومن غير أن تفكر بأحد قد يمد رأسه الى غرفة المكتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دفنت وجهها في كتف عمربك ناشجة كطفلة. فظل هذا صامتاً كعهده، مربتاً على شعرها بخراقة. ليس الا عيناه كانتا تقولان: «انه لمشهد سينمائي بالفعل!».

تغير العالم. والسماء الزرقاء لم تعد زرقاء حسب، بل وقريبة للنفس، والشمس ظلت تلتهب كالسابق، لكنها أصبحت أكثر لطفاً كما بدا لآكسانا. أما الجبال فما فتئت عالية منيعة، لكنها تمنح الشعور بالاطمئنان والحماية. كل ذلك لأنها وجدت الى جوارها الانسان الذي يمكن الركون اليه، والذي أحبته ببساطة.

* * *

«آه، وأنت ياكرزة رابعة ما الذي دهاك تضجين، لاتركنين الى سكينة!.»..

غفى حسين، وسحبت آكسانا بحذر ثديها الفارغ، واستعدلت. الساعة تشير الى الخامسة تقريباً، فهو أوان اعداد العشاء، وعودة عمربك القريبة من نوريك.

...كان العرس مدهشاً. وكانت آكسانا قد رغبت أن تتزوق وتلبس كما كانت فتيات قرية ديخي بولو يفعلن في أعراسهن دائماً، فيما حاولت استعادة كل تلك الطقوس حتى أصغر تفاصيلها. حتى أن عمربك دهش لفراهتها. ولكن آكسانا قررت تماماً أن تجعل الفتيات في خاركوف «يقعن صريعات في مكانهن» لما سيقال عن هذا العرس.

ورغم أن المدير قد ارتجل كلمة لطيفة اثناء المأدبة، الا ان خلقه الثعلبي قد استعرضه كاملا في ذلك الحين، فقد استطاع أن يدبج رسالة الى قسم التعليم الشعبي مفادها أن الرئيس لقسم التعليم بدل أن يرشد الفتيات في الصفوف العليا، قام، مستغلا مركزه لوظيفي، بدعوة معلمة الى بيته، فاغتصابها. اما الآونة فقد عجل بالزواج منها للخروج من المأزق. وانه كذلك اجبر عروسته في ليلة الزفاف على ارتداء جهاز العرس التقليدي، واذ علم الأهالي بفعلة الرئيس لقسم التعليم الشائنة هذه راحوا يسحبون بناتهم من المدرسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحول شهر العسل بالنسبة للعروسين الشابين الى أيام سود. فقد تمت تنحية عمربك من وظيفته. دون أن يحاول الاحتجاج وجد عملا في نوريك كمساعد سائق حفارة.

أما المدير فقد راح يسلك بعد زواج عمربك وآكسانا بأدب ولباقة. وقد استدعى في نهاية أحد الأيام آكسانا اليه، فاستفسر منها في البدء عن الصحة والأحوال، ثم تطرق لسيرة عمربك فجأة مشيراً الى أنه قد له صلة باحدى الفتيات في نوريك.

التهب وجه آكسانا غضباً. أما المدير فقد لمح لها هامساً بمكر أن أفضل رد عليه هو أن تقوم هي بفعلة مشابهة. وذكر لها المثل التاجيكي القائل: «اشارة من الصديق حسب، فاذا نحن تحت الطلب». ففكرت آكسانا: «الغراب الهرم يتصور نفسه حمامة» ثم قالت بصوت مسموع:

– لاغبار على ما تقول كما يبدو.

ثم اقتعدت حافة الكرسي كأنما عن غير قصد، مقررة التعرف على نوايا هذا الطاووس الشائخ.

ابدى المدير الجسيم خفة غير متوقعة، حتى أن آكسانا لم تلحظ كيف أوصد الباب بالمزلاج، واذا صب الكونياك في الأقداح. وتردد الصوت الماكر:

– نخب نجاح قضيتنا.

– أي قضية؟

أشاحت آكسانا عن الوجه الملتهب المقترب منها. فيما تحسست مقبض الباب بظهرها، فلم يطاوعها.

وأخيراً تمكنت آكسانا من التغلب على المزلاج الشاق وفتحت الباب، بيد أنها لم تتذكر فيما بعد أنها اطلقت صيحة، لم تر سوى المعلمين يهرعون في الرواق، فيما تصاعدت أصوات ممتعضة حولها لم تسمع آكسانا منها شيئاً. فقد ألم الدوار برأسها، واكتسح الغثيان حنجرتها.

استطاعت بجهد جهيد الوصول الى البيت، فالاضطجاع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما خمنت حماتها أن في الأمر شيئاً، فغطتها بعناية. واقتطفت لها ثباناً كاملا من المشمش الاخضر الحامض، ما أن تناولت آكسانا منه عدداً حتى استعادت رباطة جأشها، وابتسمت.

اعتزلت آكسانا عن وظيفتها في المدرسة، ولكنها لم تستسلم.

كانت قد أرسلت دفترين كاملين عن حالها ومآلها خلال هذين العامين الى مدير الجامعة، الذي باركها بالنصائح وتمنيات السلامة قبل سفرها. وما أن مرت بضعة أشهر حتى نست آكسانا تلك المصائب الغابرة، كيف لا وقد أنجبت ولدين لعمربك.

* * *

كان حساء الكرنب على وشك النضوج، عندما قدمت الحماة من السوفخوز، تناولت عند العتبة حسن وحسين، وضمتهما الى صدرها.

طرق باب السياج، وظهر عمربك في الباحة حاملا حقيبة ظهرية ضخمة وراء كتفه. فسألت آكسانا وقد شمت رائحة أمر جديد لا يسر:

– ماذا، هل لممت أغراضك من موقع العمل؟

لم يرد عمربك. مد يده الى الحقيبة الظهرية وأخرج منها مصابيح كهربائية. ثم مضى الى الغرف، محركاً الأزرار، فكأنه يعلق شمساً صغيرة في كل واحدة منها.

– محطتنا الكهربائية تعمل الآن. وقد قالوا لي هناك اذهب الى قريتك المكهربة واستأنف عملك.

ثم انحنى بهيئة متآمرة على الحقيبة الجلدية من جديد، وأخرج منها مجموعة من الأوراق راح يعطيها الى آكسانا كساحر، واحدة أثر أخرى:

– أما هذه فهي لك! هذه دبلومك. هذه رسالة الى المدير، هذا أمر الوزارة بتعييني مديراً لمدرسة ديخي بولو!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استقام عمربك على يديه وطاف بالغرف، فيما اكتفت أمه بهز رأسها، حاضنة الطفلين الى صدرها.

جثت آكسانا الى السجادة وراحت تلملم الأوراق مرتبكة، وقد ترطبت عيناها على حين غرة. وضمها عمربك الى صدره، هاتفاً:

– ماذا دهاك؟ كل شيء في غاية البساطة، لقد أرسلوا دفتريك من الجامعة الى موسكو، ومن هنا الى دوشنبه. فاستدعوني الى الوزارة وسلموني كل هذه الأوراق.

ما شعرت آكسانا به آنذاك كان مهرجانا من الأحاسيس والمشاعر: فمن الاحساس بالفخر تجاه عمربك الى الشعور بالشكران لأنه لم يفصح عن هذا السر حتى هذا الحين، الى ادراك الثقة مجدداً بقوى الذات.

وكأن موجة دافئة متأرجحة حملتها الآونة، فهل هي معجزة؟...

ان هذا الأمر لايحسن البوح به الا لشجيرات الكرز...

١٩٧١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهرام فيروز. ولد عام ١٩٣٩ في محافظة سمرقند، في عائلة معلم. أنهى عام ١٩٦٢ كلية اللغة والأدب لمعهد كيروف التربوي بلينين آباد. يمارس الصحافة. شاعر. ناثر. يركز جهوده في الآونة الأخيرة في مجال النثر. تصور أعماله بخاصة حياة الشبيبة المعاصرة، والقضايا الأخلاقية.

طعم الحقيقة المر

حكيت الكثير عن طفولتي، بيد أنني آثرت الصمت عن حادثة معينة. وهي مرات عديدة طافت الكلمات فيها على طرف لساني، موشكة البوح عما في داخلي. واستعصى النوم علي، فيما فهمت أن لا منجى لي الا بالكشف عما عندي، ولكن، أبالامكان عقد العزم مرة واحدة، وحالا! لو كان الأمر هيناً لافضيت به منذ زمن طويل. ففي هذه الحادثة إنما يكمن سري الخبيء. ولو أشركت به أحداً فأنه يكف عن كونه سراً، ولعرف الناس عني ما لا أرغب نفسي تذكره... ورغم ذلك قررت اليوم أن أتخلص من هذا العبء، الذي ظللت أحمله ما يقرب ربع قرن في أبعد زاوية قلبي. لم أعد أستطيع تحملا، الضمير يصرخ، يطالب: تكلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اذن، ما الداعي للكتمان؟ بلى، الحقيقة لا يمكن اخفاؤها. ومهما كانت مرة ينبغي التحدث عنها. وأنا الآن أعلم أن الناس الذين يخفون الحقيقة، لا يخدعون سوى انفسهم.

واذن، هذه هي حكاية تلك الحادثة التي أصبحت درساً مراً لي طيلة الحياة.

ولكنه، قبل أن أبدأ قصتي علي ذكر أن والدي في تلك الاعوام لم يكن شأنه الآن ذلك العجوز الطريف المرح. وعندما يرد على لساني قول «بابا» عليكم تصور رجل طويل كعصا، له بدل العينين حفرتان غائرتان، كالح دوماً وصموت. حتى أن أصحابي، صبيان قرويون من أمثالي كانوا يسألون: «ما الذي يجعله حقوداً هكذا؟» بيد أني كنت أعرف أنه ليس حقودا على الاطلاق، سوى أنه كان قليل الابتسام، قليل المزاح. أما لم كان قليل الابتسام فذلك يصعب قوله. ربما لأن ذلك ما كان ينبغي أن يكون عليه الحال أعوام ما بعد الحرب. من يدري.

كان يعود من الحقل وشيك المساء كالمعتاد، تعباً، جهماً، فيجلس متنهداً بعمق على جذمور قرب باب السياج، ويطلب أن يؤتى له بالماء. وحينما كانت أمي تمضي لتجلب له ضالته، كان يوجه لنا سؤالين، ثلاثة. ثم يرشدنا بكلمات قليلة حول مايتوجب فعله. يشرب بعد ذلك الماء، ثم ينهض بصمت فيحمل المسحاة ويمضي الى الحاكورة، فيعمل هنالك حتى حلول العتمة، ولقد كررت أمي غير مرة اننا ماكنا لنقف جميعاً على أقدامنا لولا فضل بقول هذه الحاكورة علينا.

كان لي من العمر آنذاك اثنا عشر عاماً، فما كنت أجيد في الحقيقة العمل مع المسحاة تماماً. بيد أني كنت أعين والدي في الشؤون الأخرى كما ينبغي. فكنت أسقي الحاكورة، وأعلف البقرة، وأجلب الاحطاب من الجبل، بل اني نقلت الذرة صحبة أخي الصغير، مرة مرتين، الى الطاحونة بغية طحنها.

كان أخي الصغير، سليم، يدرس في الصف الثالث الابتدائي، متقدم في دراسته، فكان يصعب جداً جعله يطاوعني. وكل ما يأتي به الوالدان من أطايب ينتحل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأفضل لنفسه. وما ان يرسم له شيئاً ما حتى يمضى جائلا يتباهى: لسوف أكون رساماً! في جيبه هنالك دائما طباشير أو فحم، ولقد لوث كل الصخور المحاذية للطريق. فهو الذى رسم في أحد الأيام على الصخرة الناتئة كلبنا آلابار تبعنا، ومنذ ذلك الحين وكلبنا ينظر الي لائماً بصمت أبداً. بل ان سليم لم يترك فرصة لم يحاول التعرض لي فيها برسومه.

وعلى العموم فأن سليم صبي غير سيىء، غير أنه لم يكن عندي سبب لمحبته. شحوبه وهزاله كانا يستثيران الشفقة لدى الكبار، حتى أن أمي كانت تطعمه خفية عني الزبدة، وغالباً ما كان يخرج من المطبخ متلمظاً فعله فعل قطة تائهة. ورغم ذلك فقد كانت رقبته نحيفة حتى ليعجب المرء كيف كان رأسه مستقراً عليها. ان رأسه نفسه طويل فهو قرعة بالتمام والكمال، وكان عمي يقول: ان مسست أنفه، طلعت روحه. وهذا القول صحيح، اذ ما أن تدفع به جانباً حتى تجده قد تداعى على نفسه.

مرة مضيت صحبة سليم للاحتطاب في الجبل. ولم يكن المحتطب بعيداً جداً، فاذا مشيت وصلته بعد ساعة. ولقد تشبث في اذيالنا آلابار وكان مايزال جرواً صغيراً وله من العمر شهر، شهران، أو أكثر قليلا، لا أحد على العموم كان يعلم مقدار عمره بالضبط. فقد كنا قد التقطناه من حفرة في باحة الكلخوز، وكان قذراً الى درجة أن جارتنا العمة جلسوم تصورته جرو ابن آوى. واضطربت والدتي، وقالت معنفة:

— في أي قبر عثرت عليه؟ أنه ابن آوى أبا عن جد...

— انه سليم من عثر عليه، ولست أنا. كل ما فعلته أنني هبطت الى الحفرة وانتشلته من هنالك.

على العموم أفهمتها أن سليم أيضاً مشترك في هذه العملية، فمن يعلم كيف يمكن أن تتطور الأمور، فاذا انتظرنا عقاب هان النصيب مادام ينزل في اثنين. ولربما لم يكن هنالك أي عقاب. لأن سليم يسامح في المعتاد، فهو ضعيف البنية، ويدرس بصورة ممتازة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تلن أمي فمضت في تعنيفها:

– ما الذي ابتدعته يا حفار قبور تعس! لسوف يأتي بنو آوى في الليل من أجله فتخنق لنا الدجاج جميعاً.

كان الحيوان المسكين يرتعش. وينظر بارتباك الى كل واحد منا.

اسعفنا الحظ فاقترب جدنا. ضيق عينيه ناظراً الى حصيلتنا. وقال باكبار:

– انه جرو. جرو اعتيادي تماماً.

فصحت وسليم في صوت واحد:

– اورا! جرو!

ثم رحنا نتجادل فيما بعد حول عائدية الجرو. ولما كان من غير الممكن تقسيمه الى حصتين فقد اتفقنا ان يكون ملكية مشتركة. ولقد عثرنا على لغة التفاهم سريعاً، اذ لم يكن هنا لك طريق آخر للاتفاق سوى التفاهم.

وعندما غسل الجرو، ونظف بالصابون، اتضح انه مبقع. ولذلك أطلقنا عليه هذه التسمية: آلابار، أي: الأبقع. كان المسكين جائعاً، لكننا رحنا نخمن بدل اطعامه: أي صنف من الكلاب هو، ومن أين جاء الى ذلك المكان. ثم استدركنا أمرنا أخيرا فجئنا له بالخبز والحليب، وأقمنا له مهجعاً وفرشناه في الداخل بالقش.

وهكذا أصبح آلابار، منذ ذلك اليوم، ظلنا الذي يتبعنا حيثما سرنا. وكنا ونحن نصعد الجبل نراه يزحف في أثرنا على السفح. وعندما كنا نهتبل الفرصة للراحة كان يجلس الى جانبنا، وما أن نبدأ الحركة حتى يثب على قائمتيه الخلفيتين تابعاً ايانا. كنا باختصار لاننفصل عن بعض أبداً.

مر شهر، فاذا آلابار عاد يميز بين الاقربين والغرباء. فكان ينبح مرة مرتين بالتأكيد حالما يرى شخصاً مجهولا، فاذا دخل باحة الدار انخرط في النباح حتى نأتي لاستقبال الضيف، ونطمئنه. وبعد مرور فترة أخرى أصبح يميز الدواب بعضها عن بعض. وكان قطيعنا المكون من بقرة واحدة وثلاث عنزات يؤوب مع المساء لتأخذ كل منها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زاويتها المعتادة من الباحة، بعد ان دخلتها بأنفسها، ولكن ما ان تخرق واحدة منها النظام السائد المعتاد او تتطاول على متسلق العنب حتى يقوم آلابار بالواجب المطلوب: اما اذا لاسامح الله دخلت عنزة غريبة الباحة فانه لايهدأ حتى يطردها خارج بوابة السياج.

وعلى العموم فقد كان آلابار يخشى العنزات، فيما كان نباحه لايشي بوعيد قدر وشايته بالرجاء، كيما تخرج العنزة الغريبة حسب من الباحة. أما اذا حدث أن سافر جارنا الى مكان ما فأبقى عندنا عنزته، فان آلابار المسكين ما كان يجد لنفسه مكاناً في تلك الليلة، فقد كان يتهيأ له أن العنزة الماكرة انما دخلت الينا بالحيلة، فكان يبتدع له بدعة بالتأكيد في هدأة الليل أو الفجر، حيث يكون الجميع غاطين في نومهم... ولقد كانت أمي قد أعجبت به حتى الحين وراحت تعيد النظر في معاملتها له.

لم تكن الكهرباء موجودة عندنا في القرية ذلك الحين، فلم تكن لدى أهالي القرية أية فكرة عن الثلاجات، بل أننا لم نكن قد سمعنا شيئاً عنها وما تقوله السير والأخبار أن الموسرين كانوا يمتلكون اقبية تملؤ في الشتاء بالثلج وتغطى بالتربة، ورغم أن الثلج كان يذوب صيفاً، وليس كله، فأن القبو كان يقوم عندهم مقام الثلاجة... يبدو انني شططت في سردي الى جانب. عم جرى الحديث؟ آها، بلى تذكرت: لم تكن الكهرباء موجودة في القرية، ولا الثلاجات ولم تكن هنالك محلات لبيع اللحم. فكان المعتاد اذ يجرى ذبح عنزة أو بقرة أن يباع النصف ويقدد النصف الثاني. وكانت أمي تعلق كل ليلة ما عندنا من لحم مملح، وان لم يكن قد جف بعد، الى عصا تثبتها في الهواء الطلق.

وفي احدى المرات سقطت قطعة اللحم المملح لسبب ما، فظل آلابار يحرسها حتى الفجر ذائداً عنها القطط. فما أن استيقظت أمي حتى جرى نحوها لملاقاتها، متقافزاً بينها وبين قطعة اللحم، هازاً ذيله، هاراً، محاولا أن يشرح لها ان قطعة اللحم قد سقطت، ولولاه لكانت كلها من نصيب القطط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبدى آلابار عن ذكاء، وأنا عن حماقة ما بعدها حماقة: فقد أعطيته.

لقد كان تصرفي نبيلا من ناحية، اذ أنني سلمت الجرو الى راعي الكلخوز. واما من ناحية أخرى... باختصار، مازالت هذه الحكاية تعذبني حتى اليوم. ولهذا لم أر أن أربي كلباً بعد ذلك، واذا تحدث أحد ما عن الكلاب فأنني أتذكر في الحال آلابار، فأكون مستعداً آنذاك أن أطمر نفسي في الأرض خجلا.

كنت قد قلت اننا، سليم وأنا، توجهنا الى الجبل حاملين البلطة والحبال، للاحتطاب. فيما آلابار يتبعنا. وكنا قد اعددنا حزمتين من الحطب، واستعددنا للعودة. عندما خرج قطيع الكلخوز من وراء تضريس جانبي، واذا بكلبين كبيرين كأنهما دببين يجريان نحونا نابحين بوعيد، فصعدنا مذعورين شجرة دلب، بينما ظل آلابار يتقافز تحت الشجرة مرعوباً. ورحنا نصيح هاتفين بالرعاة طالبين النجدة، ومر كل شيء بسلام لحسن الحظ. وكان الكلبان قد طفقا يشمشمان بخطمين كبيرين للغاية جرونا، ولما لم يجدا فيه، كما بدا، شيئاً يثير الريبة راحا يلعبان معه. وكنا نرى من فوق أن المسكين بحال جعله يجفو كل لعب. فقد حاول الجري مرتهباً بعيداً عنهما بيد ان الكلبين قطعا عليه الطريق بوثبتين حسب.

طرد الراعي الذي اقترب منا الكلبين، فنزلنا نحن من الشجرة. بينما قال الراعي الشاب، الذي كان يمسك بعصا في يد، فيما الاخرى مفقودة في الحرب كما يبدو:

— يبدو أن أحدما كان يصلي من أجلكما، فمن حسن حظكما أنكما وجدتما هذه الشجرة بالقرب. ما كان الكلبان ليعضاكما ولكنهما كانا أرعباكما حتى الموت.

فهتف سليم ماسحاً دموعه التي لم تكن قد جفت بعد:

— بلى، كانا مزقانا تمزيقاً:

— الكلاب لاتعض الصبيان، وحتى الذئاب لاتمس الاطفال. ولكن ان مسستها أنت أو جريت وراء القطيع فانها بالطبع...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهنا انتبه الراعي الى جرونا، فصاح متعجباً:

– واه! واي واي!...

كان آلابار قد أحس سوءاً فجرى مبتعداً بينما طلب الراعي:

– ادعه! أريد أن أرى، يبدو أنه من سلالة طيبة.

امسكت بالجرو، ولكنه ظل يكشر عن انيابه حتى وهو بين يدي، نابحاً بعنف أما الاكتع لم يلفت النظر الى هذا وأمسكه بيد واحدة ورفعه أمامه، غير أن آلابار أفلح رغم ذلك بالافلات منه، وجرى نابحاً بكل قوته الى سليم الواقف على مبعدة باحثاً عن ملاذ عنده. قال الراعي بلهجة آمرة:

– أعطنا الجرو ليربو مع كلبينا.

– ولماذا، أنه على مايرام معنا أيضاً.

– لسوف يتلف الجرو. على الكلب ان يعيش بين الكلاب فهو يفسد اذا عاش بين الناس...

ثم أخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين روبلا*، دون ان انتبه الى ذلك، ومد يده بها الي فجأة قائلا:

خذ هذه مقابله...

فنبرت في عجل:

– كلا، كلا. لا أريد..

فيما أظلمت الدنيا أمام عيني وأنا أرى هذا المبلغ الكبير. فنظرت مبهوتاً الى سليم الذي كان يقف فاغراً فاه من الدهشة.

– خذها... لسوف تعثر لك على جرو آخر. وهل الكلاب في القرية قليلة... أما هذا الجرو فاعطه الى الكلخوز وسيحافظ عليه. هيا فانت من الطلائع بالطبع!

– لسوف آتي لك بكلب آخر...

خلت كلماتي من قوة الاقناع، ولم استطع تحويل نظرتي عن الورقة الجديدة المخشخشة، خاشيا ان يبدل الراعي رأيه فيخفيها في جيبه.

– اذن خذ هذا أيضاً لأخيك الصغير.

---

* ماقيمته الآن خمسة روبلات – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان قد أخرج هذه المرة ورقة حمراء من فئة الثلاثين روبلا، حشرها مع الورقة الأولى في جيبي، فلم أعد أحاول الآن حتى الاحتجاج. ولما كلمني بعد ذلك بلهجة آمرة، لم أجد في ذلك مايسبب الزعل. وكان الراعي قد قال:

– أمسك ريثما أربطه.

وأتم ذلك بيد واحدة بمهارة، ثم جره وراءه دون ان يلقي لنا بالا بعد. حرن آلابار، وهر طالباً النجدة منا، بينما تحجرت أنا برمتي راغباً أن أطرش في تلك الدقيقة فلا أعد أسمع بعد عويله الاسيان. فيما الكلب لم يقطع الرجاء بعد في رحمتنا مواصلا النباح منادياً، دون أن يصدق خيانتنا له. بدا كل ذلك دون نهاية... ومرت الأعوام، غير أن ذلك العويل ما يزال يدوي في أذني حتى الآن.

وفي الحقيقة كنت قد نسيت آنذاك أمر آلابار سريعاً، فقد صرفتني عنه النقود، اذ بدت تلك الصفقة رابحة لانظير لها، وهل هي مزحة استلام ثمانين روبلا بالتمام والكمال! وبالطبع فأن قيمة تلك انذاك ليست هي نفسها الآن، ورغم ذلك فأن أحداً منا لم يكن قد أمسك بيده مثل ذلك المبلغ. بل أن النقود في قرى تلك الأعوام على العموم كانت قليلة التداول، وفي المخازن نادرا ما كان يعثر فيها على شيء يباع.

اقتسمنا، سليم وأنا، النقود بسرعة، له الورقة الحمراء، ولي الخضراء. وفي الحال كنا قد قررنا ما سنحصل عليه بها. بالنسبة لي كنت قد عزمت على شراء صنارة لصيد السمك، ولربما حتى شبكة. أما سليم فقد عرف في الحال مايريده: أقلام ملونة. وطيلة الطريق الى البيت ماتحدثنا بالطبع سوى عن هذا الأمر.

في نهاية الطريق كان حماسنا قد هفت الى حدما، فيما تسربت كآبة زاحفة ثقيلة الى نفسينا وراحت تطرد منهما فرحتنا العابرة، غير اننا لم نجرؤ على مفاتحة بعضنا بعضاً بهذا الأمر. ورغم ذلك لم يحتمل سليم أكثر، فقال:

– ما ان نصل البيت ويعلم والدنا أنك بعت الآبار حتى تنال جزاءك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– ولماذا؟ لقد أعطيناه الى الكلخوز في كل الأحوال. والراعي كان قد قال: انتما من الطلائع، وعليكما أن تفهما... تصور أن ينقذ آلابار يوماً ما خروفاً من براثن ذئب، لسوف يشيع الحديث عنه اذن في كل مكان: «من أين هذا الكلب، ومن صاحبه؟» هكذا سيتحدثون، واذا بهم يعودون الى ذكرنا، واذا برئيس الكلخوز يأتي الى المدرسة ليقدم لنا أمام الجميع هدية.

هكذا كنت أحاول ادخال الاطمئنان الى قلبي. واعقب سليم:

– وهل قلت للراعي ان الكلب ليس ملكك وحدك.

– ولم؟ أنه يعرف هذا من دون قول، فقد أعطى النقود لكلينا.

ولم يكف سليم، فأضاف:

– لم حشر النقود في جيبك وحدك اذن؟

– لانني كنت قريباً منه حسب. بل انه قال: وهذا لأخيك الصغير.

كان سليم يحاول بشتى الطرق اظهار اننا أدينا دورين مختلفين في أجراء هذه الصفقة، وفي كل مرة كان يصور نفسه كأنما لا دخل له على الاطلاق فيها. فأسهل أمر عليه أن يذهب في الحال ويقص كل شيء على والدينا. وعلى العموم فقد اتفقنا أن نخفي الأمر. واذا سألوا عن آلابار قلنا أن الراعي أخذه، ولكن لا كلمة واحدة عن النقود.

لم ينتبهوا الى غياب آلابار في الباحة الا في اليوم التالي، وكان أول من أطلق اشارة الانذار جدتنا، ثم تناولت أمنا بعد ذلك أمرنا. فأجبنا كما اتفقنا. دمدمت أمي بشيء ما، أما والدي فلم يعنه ذلك من قريب أوبعيد، فمثل هذا الحدث بالنسبة اليه دون أهمية، ولايستأهل منه انتباه.

تداعت مخاوفنا. هؤلاء الكبار لايمكن فهمهم، أحياناً يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل أمر تافه. واحيانا أخرى تمرر تحت أنوفهم الكبائر. ولعلنا تخلصنا من المأزق بسهولة، لأن رئيس الكلخوز كان وراء ظهرنا، فذلك الجرو انما أخذ لاحتياجات الكلخوز. والكلخوز في ذلك الحين لايمزح معه، دع عنك رئيسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرت الأيام. ونسي الجميع أمر آلابار. وما كان لاحد أن يستطيع معرفة حقيقة ما جرى عند الجبل في واقع الحال، تحت شجرة الدلب. لولا خرق سليم اتفاقنا.

فها هو يوم أرسلوني فيه الى المطحنة صحبة نصف كيس من الذرة. وكان على سليم الذهاب لجلب العشب. والدي قد أصدر أمره هذا ومضى الى عمله. فأعانتني والدتي باسراج الحمار ووضع الكيس عليه، ثم اعتليت الحمل وذهبت في طريقي، فتشبث سليم بي طالباً أخذه معي الى المطحنة. فلوحت بيدي أمامه دون اهتمام به:

– دعني!

ما الذى كان علي أن أفعله مادام والداي قد أمراه بالمكوث في البيت. أنني لا استطيع الرضوخ لاهوائه. ولكن سليم أمسك بالحمار من ذيله، محاولا ايقافه. «دعنى» قلت له، ولكنه بدا وكأنه لايسمع. وكان في متناول يدي عود يابس، فما أن مسسته به حتى راح يعول، ثم رفع عن الأرض حجراً وقذف به رأسي. فسال دمي نهراً، حتى خضب وجهي كله. فاقتادوني الى البيت في الحال، فاضجعوني، وراحوا يحرقون نسالة صوف قديمة لتوضع على الجرح. هرب سليم الى مكان ما، ولم يرنا وجهه حتى المساء.

وعندما عاد والدي وتبين كنه الأمر، مضى باحثاً عن أخي.

صاح والدي بصوت عال من فوق سقيفة الدواب:

– سليم! هوه.. سليم! سليم!

ظهر سليم بعد مرور فترة، مطأطأ الرأس، لا يرفع عينيه. فقلت أنا بشيء من الضغينة:

– لسوف تنال أنت الآن نصيبك!

وقف سليم مخذولا أمام والدي، الذي وقف صامتاً ينتظر تفسيره...

وهتف والدي به غاضباً:

– واذن، تكلم! لم ضربته؟

كنا نخاف والدنا في مثل هذه الدقائق، رغم أنه لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكن يضربنا، اذ ان هيئته الرهيبة وحدها كافية لالقاء الرعب في قلبينا.

وفجأة أجبر سليم نفسه على القول مبتلعا دموعه:

– لقد باع... باع... آلابار الى الراعي، وأخذ النقود!

ضاق نفسي: كنت أنتظر كل شيء الا الخيانة! بينما والدي لم يصدق أذنيه:

– ماذا؟

– أعطاه الراعي خمسين، ثم ثلاثين...

وقبل ان يفلح سليم في اثبات ما قاله عاجلته صفعة مدوية من والدي، قائلا:

– أهكذا اذن نويت التنصل من فعلتك!

جرى سليم باكياً من البيت. وجاء دوري. فرحت أدمدم متلبكاً دون وضوح:

– الراعي... للقطيع.. للكلخوز.. قال..

ولكن والدي لم يعد يستمع الي:

– اغرب عن وجهي يانجس! الأنذال وحدهم هم من يبيعون أصدقاءهم!

كان ينظر الي بطريقة شعرت معها لو انشقت الأرض تحت قدمي، لأقذف بنفسي في هوة كيما أتخلص من نظرته الماحقة. كان الأفضل لو ضربني. وكانت عيناه مفعمتين بالألم والاحتقار، مما لم أصادف مثيلا له في حياتي من بعد أبداً. حتى أنني أشعر بالقشعريرة حتى الآن عندما أتذكر ذلك.

كان من الضروري معاناة كل ذلك كي يفهم المرء أن الشناعة مهما لونت وزوقت، ومهما اختلقت لها أفخم التبريرات، تظل أبداً ورغم كل شيء: شناعة، لاغير.

١٩٧٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سربون. ولد عام ١٩٤٠ في قرية آمانداري في عائلة كلخوزي. أنهي عام ١٩٦٣ كلية اللغة والأدب بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين. ينشر منذ عام ١٩٦٥. صدرت له أول مجموعة «لم يقل كل شيء» عام١٩٦٩. بينما استلفتت أعماله «الجرس الأول» (عن حياة النساء التاجيكيات أعوام الحرب الوطنية العظمى)، «الحجر الدرع»، «الغجري» (عن حياة القرية)، «كان يا ما كان» (عن اقامة السلطة السوفييتية في وادي زرافشان)، «معطف» (عن مصير طفل فقد والده في الحرب)، والعديد غير ذلك، انتباه وتعاطف القراء فأصبحت ظاهرة متميزة في النثر التاجيكي في السبعينات.

صائد الطيور

آن الأوان المنتظر، فغادرت الافراخ أعشاشها، مرفرفة بأجنحتها طائرة، تحت أبصار الوالدين.

خرج الى الجبل يصطاد الطيور، وفي البيت جمعها، كل ثلاثة أربعة في قفص واحد. كان ذلك صيد طيور حقيقياً، رغم أنه لم يتبع الا الحجل. فقد كان يحب هذه الطيور، يحب ريشها المبرقش الأنيق، ويحب غناءها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت باحة بيته في مثل هذا الوقت تتحول الى ما يشبه سوقاً للطيور. فقد كان ينضد الأقفاص بحذاء الحيطان، مملوءة بأسراه من ذوات المناقير الحمراء، ويسير راضياً، منشغلا بتفحصهم، يصطاد لهم جنادب العشب من سفوح التلال. فكانت الحجلات تفتح مناقيرها عريضا ما أن ينزل لها بيده الجنادب من أعلى، فيما تنتزع كل واحدة منها طريدة لها، بينما المحظوظات التي أصابتها لقمة كبيرة، ترفع رأسها وتزوغ خشية اقتسام ما عندها مع غيرها. هكذا كانت الطيور تنمو من يوم الى آخر في المشاجرات، والمناقرات المستمرة، حتى تصبح كبيرة، فيضيق بها المكان. فكان يفرز الاكثر قوة وعدوانية في أقفاص خاصة، اما الضعيفات منها فكان يمنحها لمعارفه وأقاربه.

اعجب صائد الطيور بواحد قوي، له رجلان مستقيمتان قصيرتان كما عند نسر، ومنقار صلب. فيما بدنه المتلىء المتماسك ذكره بجلمود النهر المصقول. كان يتعارك حتى النفس الأخير، وعندما كان يتعب، يفتح منقاره عريضاً وينتصب متنفساً بصعوبة حتى يدخله صاحبه في القفص. اضافة الى ذلك فان هذا الغندور (هكذا أسماه صائد الطيور بحب وبشيء من السخرية) كان يستطيع التغريد طيلة النهار. ولكن كيف كان يتصرف هنالك أثناء الصيد وهو يؤدي دوره فى اجتذاب الطيور؟

كان صائد الطيور ينصب أفخاخه قبل أسبوع من بدء عيد نوروز. يتهيأ لبدء طريقه وشيك المساء، فيضع على ظهره القفص بالحجلة، يحشر أطراف صايته في حزامه، ويتناول سكينه، بكرة الفخ وحزمة العيدان، ثم يتوجه جهة التلال.

منذ بكرة الصباح بيدأ بنصب الفخاخ، فكان ينظف في البداية مكاناً للقفص. ثم يدق الى جانبه خوازيق صغيرة ويعقد الى نهايتها الشبكة ثم يربط الشبكة كلها بحلقات، ويثبت كل أنشوطة منها بعود مغروز في الأرض. فيتكون فخ كبير بشكل حلقة، وكانت حلقة الشبكة الزرقاء توضع أعلى من العشب والحرش قليلا، بينما يموه صائد الطيور في مركز الفخ القفص مع الحجلة، ويختفي نفسه بعد ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الأحراش. وعندما كانت الحجلة المساعدة تسكت كان صائد الطيور يحرك شفتيه المتيبستين ويحاول اشاعة النشاط فيها: «هيا، غني، غني، ما الذي تكلفك هذا؟ لقد هيأت كل شيء، نادي على أصحابك، غني بمرح أكثر، غني بصوت أعلى».

وفي آلام الانتظار اللذيذة كان يخرج لسانه نحو السماء دون وعي ويطلق أصواتاً تشبه غناء أناث الحجل، وما أن يدير لسانه الى اليسار قليلا حتى يستطيع تقليد صوت ذكور الحجل، وهنا يستجيب له من القفص اسيره، فينخرط في الغناء بحماس.

يبدو انهما بكرا هذه المرة. صفر صائد الطيور لغندوره، فسكت هذا. وبعد مرور برهة تناهى من الشعب البعيد غناء حجل، فردت عليه أصوات من مكان ما في الاسفل، وعلى اليسار، حيث يشخب ماء النهر.

انبسط النور على هامات الجبل، فاتسعت معه زقزقة الطيور صابة كلها في مقطوعة اعراس واحدة. في ذلك الحين الأناث تهرع مهرولة على نداء الذكور مطلقة صيحاتها: «كفواخ! كفواخ!» بطريقة جعلت صداها تتردد بعيداً جداً. وكان صائد الطيور يفلح أحياناً بملاحظة أن حجلة كانت تنطلق نحو نداء غندوره متناسية كل شيء حولها فتسقط في طريقها في الشرك، وتأخذ في خفق أجنحتها مذعورة. فكان صائد الطيور يخرج من مخبئه، فيسعل كي لا يفزع الغندور، ثم يحرر اسيرته من الشرك، وينزلها الى عبه. ويعدل بعد ذلك الشرك، ويرجع الى مخبئه السابق.

ولكن ها قد حل أوان حضانة الأناث المبيض. فأخذ صائد الطيور معه الى الصيد حجلة ذكر. الأناث في هذه الفترة مستثارة بصورة فائقة، وعدوانية فهي تندفع الى مصدر الصوت وقد أحنيت رؤوسها واطئة، ونفخت حناجرها مرتعشة، فيما عيونها سكرى مضمخة بالدم. فلا يحتاج انذاك الا ان يفلح سريعاً باعادة نصب الشرك.

ورغم ذلك فان صائد الطيور يفضل الصيد رفقة الغندور، الذي يستطيع اغواء أكثر الطيور حذراً، فايقاعها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الشرك. وكان صاحبه يطعمه في الشتاء زبيباً أسود، وحمصاً مرطباً، ولب الجوز، ويسقيه ماء طازجاً. أما عندما يحل الربيع فقد كان صائد الطيور يبحث لغندوره في شعاب الجبل سيقان أزهار سامة، لكنها كانت المفضلة لسبب ما لدى طيور الحجل، وكذلك عناكب الرمل، ويجمع من سفوح التلال جذور زهرة الثلج وسن الأسد.

لقد سجل صائد الطيور صوت غندوره على شريط مسجل، وقد أعجبه بخاصة ذلك المقطع الذي يصيح الغندور فيه أشبه بغراب «كار!» مهدئاً بهذه الاشارة أترابه من الطيور. وعندما كان ضيوف يزورون صائد الطيور يشغل الجهاز المسجل خفية، فيمتلىء البيت كله بغناء الحجل.

وفي الموسم التالي لم يشغل صائد الطيور نفسه بالشراك فيما عود غندوره على صوت اطلاق النار من بندقية الصيد. كان يصيب دون خطأ تقريباً. وكان يرى أحياناً امام ذبانة بندقيته مخلوقات نادرة، ذات مهمازين.

وفي أحد الأيام علق صائد الطيور بغصن شجرة دلب، الغندور في قفصه، فيما اختفى هو وراء جذع الشجرة المجاورة، وكانت السماء قد صحت بعد ليلة ماطرة، ولكن قطرات الماء الكبيرة كانت ما تزال تتساقط من الاغصان، أمال الغندور رأسه الى جانب مرهفاً السمع برهة، ثم طرق بمنقاره على حاضنة الطعام الخالية، وأصدر صوتاً واهناً. وفي الحال، حلقت اليه، وحطت على الصخرة، حجلة كبيرة. سدد الصياد بندقيته غير أن المسافة كانت بعيدة الى حدما.

تواثب الغندور، شارقاً، متململا في القفص هنا وهنالك. فيما صدحت الأغصان والأشجار، والصباح نفسه في أذن الصياد. واقتربت الحجلة الآن أكثر من ذي قبل، الا أن حرش العليق الجبلي أخفاها وراءه.

Telegram:@qbooks2018

وفجأة دوت الاطلاقة. فجفلت الحجلة، وطارت محلقة. فنظر الصياد الى بندقيته غير فاهم، ثم رأى في القفص الغندور يتقلب مخضباً في دمه. هرع الى الشجرة التي كان القفص معلقاً بها، فاذا به يسمع أحدهم يشق له طريقاً عبر الأحراش وراءه. رفع بندقيته ببطء وسددها الى رأس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخص المجهول. الا أن يديه ارتجتا، ووثبت السبطانة الى أعلى، فيما دوى الاطلاق عنيفاً. فتوقف الشخص المجهول في مكانه كالمصعوق، أطلق صرخة.

بينما قال الصياد غاضبا، وهو يخرج من وراء الشجرة:

– ليأخذك الشيطان، من أين نزلت على رأسي؟

فتململ الرجل الذي أصاب الغندور في مكانه مرتبكاً:

– ولكنني لم أر القفص؟

– وهل أنت أعمى؟

فراح مطلق النار يختلق الاعذار:

– أعواد القفص غير مرئية عن بعد أبداً. لسوف أعطيك حجلا آخر لا أسوأ منه.

– الى الشيطان بحجلك! مثل هذا الحجل لا يمكن العثور عليه...

تناول الصياد القفص، حل العقدة التي تشد القعر، وأخرج الغندور. كان الطير قد برد: حمله صاحبه على راحة يده، وراح يمسد الغندور الميت متفكرا، ثم رمى به الى قدمي الرجل الغريب.

– خذ طريدتك.

– كلا، كلا، وما الداعي؟ لن آخذه. لن آخذه قسماً بالله.

ولكن الصياد قذف القفص الى الأحراش، وتوجه ببطء ناحية القرية. كانت المرة الأولى التي عاد فيها الى بيته خالي الوفاض. دخل البيت، ثم فتح جهاز التسجيل. فصدح غندوره من جديد، بكل قوة، كانت له، اما صاحبه فقد كان جامداً والدموع تنهمر ببطء على خديه.

ظل الصياد متسلباً سبعة أيام. ثم أخذ جهاز التسجيل وتوجه الى الجبل. سوى المكان تحت شجرة الدلب، ووضع الجهاز كما ينبغي، وضغط على الزر، فصدح حبيبه بأغنيته غير المتناهية، فيما هيمن أثناء توقفات النغم الآلي سكون وحشي.

١٩٧٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معروف باباجان. ولد عام ١٩٤٥ في لينين آباد في عائلة موظف. أنهى عام ١٩٦٧ كلية اللغة والأدب بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين. عمل محرراً في الاذاعة والتلفزيون، وشغيلا في الأدب بجريدة «تاجيكستان السوفييتية». بدأ النشر عام ١٩٦٦، فنشر أكثر من مئة أقصوصة ومقالة عن أبطال الحرب الوطنية العظمى وعن مآثر العمل التي يقوم بها الشعب التاجيكي أيام السلم.

شال للأم

كان كل شيء على مايرام، أي: «هوكي»* كما كان الأصحاب في المرأب يقولون. الطريق على مايرام، وكذا السيارة: هوكي! ولقد سمع قدرات كيف كان المحرك مطواعاً، كيف لا وقوته ١٥٠ حصاناً، عين المطلوب تماماً، حديدة تفهم، والبنزين تعبه بكل سرور، ذلك هو فطورها!

---

* هي «اوكي» الأمريكية، ممزوجة كما يبدو بـ «هوكي» اللعبة الرياضية المعروفة – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والربيع، كان ربيعاً، وكان هو يفضل من الأوقات الربيع. وكان يبدو أن هذا الموسم قد ثبت مواطئه تماما، وما يحدث انك تنتظره شتاء كاملا، فاذا الملعون يجعل يفرز دموعاً زرقاء دافئة، واذا البرد هابط مرة أخرى، فالطين، فالثلج من جديد، عصيدة: عصيدة لاتعوض!

واما الغيوم فكأنما أخرجت في التو من الغسالة، بيضاء صنعها مُسحوق الغسيل والماء، واما السماء زرقاء، لازوردية. وها على الجانبين صفصاف وعشب يلمع فكأنه جديد. وها أشجار اللوز مزهرة على التلال. لم تورق الاشجار بعد، بيد أن اللوز قد أفلح وقد نفد صبره فأزهر. والهواء عليل، مبراد، فائح برائحة الثلج. لم يشغل قدرات صباحاً السيارة مباشرة. فقد كان المحرك قد جمد أثناء الليل وفي الشعب رقد الثلج هنا وهناك، ولكن هذا الأمر لم يكن خطراً، فها هي الشمس تشرق كما ينبغي!

لقد فكر قدرات بكل هذا بمزيد من الجهد، وفي قلبه ابرة لا يمكن انتزاعها بعد – وقد فهم ذلك – كانت تخزة في كل مرة ما أن يتذكر قدرات أمه. وبمعنى آخر كان قدرات يتذكر أمه باستمرار (كان يجبر نفسه على التفكير بكل شيء) بل أنه حتى عندما كان يفلح في الهاء نفسه عن ذلك الأمر لم يكن وخز الابرة في قلبه يفارقه.

أمس شعرت أمه بنفسها ليست على مايرام. «سفاسف! ليس أكثر من نزلة، وهل هذا الأمر صعب عندما يزهر اللوز!» ولكن آه لوكان ذلك مجرد نزلة، فأمه لم تكن تحبذ الحديث كثيرا عن أوصابها! ولكن حتى لو كان ذلك مجرد نزلة فعلا فهو ليس بالأمر الهين لمن فى عمرها! عليها اذن الاضطجاع في السرير، والاستشفاء، ليوم أو يومين على الأقل. ولقد وعدت العمة بهرة بأن تعتنى بأعمالها بدلا عنها في المزرعة لتربية المواشي. ولكن هل أستطيع اقناعها؟ ليس هنالك غير جواب واحد: «اهتمامك بي يا بني خير علاج لي... والتوعك يزول في العمل سريعاً...»

وها قدرات يعذل نفسه: لم تستطع الذود عما هو قمين بك. الاهتمام بالأم قليل، وعلى العموم تنقصك الحمية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دوت من وراء المنعطف، في الخلف، على غير انتظار اشارة الاسعاف، فكأنما ضربته. فتنحى الى جانب، مرت به سيارة الاسعاف مسرعاً، دون التوقف عن اطلاق المنبه.

لقد قرر قدرات:

«لسوف أعود من الرحلة فأنقل أمي الى المستشفى، لا ينبغي المزح في مثل عمرها مع الصحة».

احس قدرات بالتخفف، فالمرح. وكانت الطريق تنحدر من تل لتصعد آخر. أحياناً كان يستشعر نفسه تتقلب كما لو كان في ارجوحة. وراح قدرات يفكر من جديد بالطريق، بالجبال، باللوز. الجبال هنا لاتشبه بحال جبال البامير، ورغم ذلك لا تستطيع تجاوزها جميعاً طيراناً. ها هو ثمة جرف في الأمام: ١٢٤٥ متراً فوق سطح البحر.

أوقفت قدرات في القرية، بالقرب من المضيق عجوز: معطف خفيف ممسوح حائل اللون، منديل أبيض ذو عذبات، والوجه تحت المنديل بني، ومتجعد... وخفق قلب قدرات، وهو يفتح باب السيارة:

– مرحباً جدتاه!

– لتعش يا بني مائة عام! – أجابت العجوز بذلك، فذكرت بردها التقليدي هذا قدرات أكثر بأمه، وأضافت – أأنت ماض الى جليستان؟

خرج قدرات من السيارة وأعان العجوز في رفع حمل ثقيل: «فديتك قرباناً يا بني!» شكرته العجوز دون كلفة ثانية. فيما زرر قدرات سترته: الريح، كما لو ان الثلج على وشك الهبوط. تفقد دون عجلة سيارته – «الورشة المتنقلة» وقرع بجزمته كالمعتاد على الاطارات، فكان الصوت كالحاً. فكأنها تدمدم بكسل، ممتعضة، مستثارة. على مايرام أيضاً، لقد تشبعت، ولن تطلب المزيد سريعاً.

جرى من القرية شبان وفتيات نحو السيارة، ملوحين بأيديهم، صائحين بشيء ما لم يسمع بسبب ضجيج محرك السيارة. كانوا يرتدون جميعاً دراريع برتقالية، وفي جزمات، فيما الدراريع تسطع فوق العشب الأخضر على حافة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق وقد بدت جديدة بدورها. وقد عدهم قدرات: «ثمانية أشخاص، طلبة متدربون من جليستان، لاغير».

الفتيان والفتيات قاصدون جليستان فعلا. والسائقون يأخذون من هنا الى جليستان ثلاثة روبلات من كل فرد، أضرب ثلاثة في ثمانية، النتيجة: أربعة وعشرون! انتهى قدرات من تلك العملية الحسابية بمرح، وقال بصوت مسموع:

– هوكي!

لم يفهم الفتيان والفتيات:

– ماذا قلتم؟

– لقد قلت: هيا الى حاضنة السيارة!

راح قدرات يقود السيارة الآن بحذر. الى اليسار صخرة جهماء، والى اليمين: هوة، تكاد حافتها تلامس الاطارات. الطريق معروفة لديه بالطبع، على مايرام تقريباً ولقد عملوا فيها تعريضاً في الأعوام الأخيرة، فهي أشبه بجادة، تفضل سق عليها بالسرعة التي تشاء، أقم سباقاً للسيارات. ورغم ذلك عليك الامساك باذنيك جيداً في المنعطفات، تقدير الموقف مطلوب، الحسابات مطلوبة، والا طرت الى الهاوية في شربة ماء!

ها هو الربيع يكسو المضيق أيضاً. الثلج لما يزل كثيراً في المضيق، ولكن أزاهير الثلج قد صبغته بلون أصفر بقعة بقعة. الثلج مسامي، جليدي، ولكن لاينبغي النظر طويلا اليه، فهو ساطع، ولسوف يعشي البصر.

تذكر قدرات كيف كان يحمل باقات أزهار الثلج صحبة الصبيان في طفولته الى الطريق. كان الوقت مايزال صعباً أنذاك، الحرب انتهت في التو، بل والسيارات لم تكن كسيارات اليوم: تصادفك أحياناً. ولكنهم كانوا يشترون الأزهار، ويوفرون لشراء شوكلاتة.

«لسوف أشترى لأمي شالا» – فكر قدرات. وكان قد تخير لأمه شالاً في جليستان منذ أمد بعيد، قليل الكلفة، ولكنه دافىء. غير أنه لم ينجز عملية الشراء أبداً، فمرة النقود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تكفي، ومرة يصرفها صحبة الأصحاب والأصدقاء. ليس الا مرة واحدة لا غير أفرح أمه بهدية، وذلك حين استلم راتبه الأول. وما أكثر النقود التي مرت في يد سائق منذ ذلك الحين! ولقد بدا أحياناً لقدرات أنه لن يستطيع أبداً تأدية واجبه أمام أمه. ويسمي: ابن مهتم، نبيه! وأعاد قدرات اجراء العملية الحسابية: «أربعة وعشرون زائد ثلاثة روبلات، ما ستدفعه العجوز، زائد الفكة المخصصة للغداء وبقية المصاريف...»

تحسن مزاج قدرات، بل أن الاكتئاب تخلى عنه. فيما القنابر الرمادية، التي لم تطر بعد الى الشمال، كانت تنطلق من على أسفلت الطريق الدافىء، صائحة بانفعال. وكان الطلبة يضحكون ويغنون في حاضنة السيارة، ويضربون براحات ايديهم على المقعد الخشبي كما لو كان طبلا. ليس الا العجوز كانت صامتة، تنظر الى أمام عبر الزجاج. كان وجهها مكآبا، بل مفجوع. ولم يكن هذا مفهوماً بالنسبة لقدرات. مما جعله يقترب منها، عند المنعطفات الحادة، وينحني محاولا النظر عبر الزجاج بعيني العجوز، ولكنه ما كان يرى سوى الثلج، وأزهار الثلج...

ولم يستطع قدرات صبراً بعد، فسأل العجوز:

– الجدة ماضية لزيارة قريب؟

التفتت العجوز اليه ببطء:

– لزيارة ابني.

– شغلة بديعة!

كاد قدرات يطلق كلمته: هوكي. ولكنه أمسك زمام نفسه في اللحظة الأخيرة.

– ابني قعيد السجن في جليستان.

لم يضغط قدرات بقدمه على كابح السرعة، بمواجهة سيارة قادمة نحوه، بينما انتقل من السرعة الرابعة الى الثالثة لتخفيف انطلاق السيارة، فزيق جهاز توصيل الحركة. فهتف: «ثرثار!» ثم سحب ذراع تبديل السرعة متبلبلا، وضغط على الدواسة.

تنهدت العجوز:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– انه سجين منذ نصف عام. حكموا على ولدي محمدجان بثلاثة أعوام.

فدمدم قدرات بصورة مبهمة:

– لابد أنه ارتكب ذنباً كبيراً، والا ما حكموا عليه بهذا الحكم.

هزت العجوز رأسها:

– لم يكن مذنباً....

وأضافت:

– ولدي كان يعمل سائقاً أيضاً.

اعتقدت العجوز انها توضح كل شيء بهذه الاضافة. ثم استأنفت:

– شرب مع زملاء له أثناء الطريق، تخاصموا، فانهال الزملاء على محمدجان بالضرب. وصدف ان كانت هنالك سكين بالقرب من ولدي، ما كان يرغب الا تخويفهم بها.

قدرات يشعر بنفسه متضايقاً كالسابق، فيقول:

– واذن فقد ارتكب ذنباً رغم كل شيء.

فكررت العجوز بعناد:

– لم يكن مذنباً. محمدجان طيب، لكنه حامي الطبع، فوار. والذنب كله ذنب الفودكا!

– وهل حكم على ابنك من قبل؟

– حكماً اسمياً بسبب الفودكا حسب.

وفكر قدرات فجأة: «وأنا الذي لا أستطيع شراء شال لأمي». كانت السيارة تنحدر عن المضيق، فيما أصبح الثلج أقل، ولكنه تهيأ لقدرات أن الجو داخل السيارة بارد، حتى انه رفع زجاج النافذة الجانبية. وعادت الى الجانبين من جديد أشجار الصفصاف واللوز، وزحفت على مبعدة بين التلال تراكتورات تسوى الأرض استعداداً لزراعة القطن، فقد بدأت الأرض تجف قليلا، وها ذاك الغبار يتصاعد وراء التراكتورات.

أما العجوز فقد ظلت تتحدث عن محمدجان، فيما شعرت بمرارة من أن بامكان قدرات التفكير بصورة سيئة عنه. وكان محمدجان سادساً من ستة أولاد. وجميع قبله ماتوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لسبب ما. ولقد ولد محمدجان قبل الحرب بثلاثه أشهر. وكان والده قد غادر الى الجبهة ولم يعد منها.

وفكر قدرات: «أنا أيضاً أمي حسب ربتني مع أختي» وكان قدرات قد ولد بعد الحرب في الحقيقة، وأبوه قد عاد من الجبهة، يحمل النياشين والاوسمة، فيما أضاع صحته تماماً. ولكن قدرات لا يذكر والده تقريباً، لأنه سرعان مامات بعد عودته. وقالت العجوز:

– عندما ينمو الأولاد يكون ذلك ثقيلا على اليد، وعندما يكبرون يكون ذلك ثقيلا على القلب. أنهى محمدجان المدرسة فلم يرغب مواصلة الدراسة بعد، ولم يعثر له على عمل، بينما فكرت أنا: «ليأخذ له نصيباً من الراحة، العمر طويل، والعمل كثير» لم يبق محمدجان دون عمل فترة طويلة ولكن العمل الذي عثر عليه فيما لم يعجبه، فابدله بآخر، فلم يعجبه هذا أيضاً. فظل طليقاً حتى تعلم السياقة، وهنا تزوج. وأذن فكرت: «آن أوان حضانتي لحفيدى» وهم الآن ثلاثة عندي، والرابع على وشك الميلاد، كنتي تعمل في مدرسة... ثلاثة أعوام، التلفظ بها سهل!

سجن جليستان في مدخل المدينة. وبوابته الحديد مصبوغة بلون ربيعي أخضر مفاجىء.

توقف قدرات عند بوابة السجن. أخرجت العجوز من حقيبتها اليدوية أربع بيضات مسلوقة، رمانة، فطيرتين، وقدمتها الى قدرات...

– لعلك جعت... الفطائر خبزتها بنفسي، لذيذة، صنعتها بالقرع.

رفض قدرات تناولها.

– مثل هذه الفطائر لا يستطيع ابنك شراءها مقابل أي مبلغ.

فهمت العجوز هذه الكلمات بطريقتها الخاصة، أخرجت من جيبها على عجل منديل معقود في صرة وفيها بضعة روبلات ورقية.

– لسوف تكفيني للعودة، بل وسيبقى منها ما يكفي لشراء هدايا للأحفاد. فأقول لهم: والدكم أرسلها اليكم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تناول قدرات النقود. وأعان العجوز في ايصال حقيبة ثقيلة حتى البوابة، وفي الطريق دس فيها كل ماتجمع عنده من نقود، بطريقة لم تلحظ فيها العجوز ما فعل.

وفكر قدرات مكتئباً أثناء عودته الى السيارة:

«وان ضاعت يا أمي البيعة أعملك هدية ضيعة».

خرج الطلبة من السيارة أيضاً. ولقد رآهم قدرات وراء نقاطع الطريق، فلم يلقوا بالا له.

وكان الربيع في المدينة شديد التألق. فالاوراق لم تعد تلمع، بل احتقنت بالخضرة. وكان الجو دافئاً. والساحات تبرقشها ملابس الأطفال أحواضا ضاجة ساطعة.

وحاول قدرات اشاعة التفاؤل في نفسه، مفكراً في دخيلته: «لعل أمي تستطيع الآن التخلي عن الشال فهو الربيع، وها هي الشمس مشرقة بسخاء، هوكي!»

١٩٧٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستار تورسون. ولد عام ١٩٤٦ في قرية بايسورخي في عائلة كلخوزي. أنهى عام ١٩٧٠ كلية اللغات الشرقية بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين. يعمل محرراً بجريدة «صدى الشرق». بدأ الكتابة وهو طالب. نشر أول قصة له «في الطريق» عام ١٩٦٧. مؤلف ثمانية كتب أقاصيص وقصص مكرسة لحياة الشبيبة القروية.

المفترق

...قام ببضعة خطوات، ثم توقف دون ارادة: صالة المطعم الكبيرة مملوءة، وشاب طويل القامة يحمل غيتاراً يهتز متلوياً على رحبة العرض – نصف الدائرة، في جوف الصالة، فيما تلامع شعره الأسود المتموج في نور الثريا الساطع، وتطايرت أصابعه بحماس فوق أوتار غيتاره الصادح، غامزاً لزميله الواقف الى جانبه، عازف الساكسوفون، وهو ينفخ خديه الكبيرين مرحاً.

رأى جمشيد كل هذا دفعة واحدة: الدخان الأزرق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكثيف فوق الموائد، الثريات المرتعشة، كتفي عازف الغيتار المهتزين، أزواج الراقصين المتعانقة، وكذا ظهر عازف البيانو الاحدب في زاوية رحبة العرض، الذي بدا غريباً متوحداً في هذا المكان، لا يمت اليه بصلة من قريب أو بعيد، وقد غرق شخصه، الموغل في العمر، في لجة أفكاره، مستنبطا موسيقاه، سادراً في ما يعزف ويبدع.

وأعاد جمشيد الى الواقع صوت المدبرة المستوفز العصبي:

– لا تقف في الممر أيها الفتى! كم مرة علي أن أكرر: لا توجد مقاعد خالية!

كانت المدبرة امرأة تجاوزت سن الشباب، مرتدية القبعة الخرقاء الخضراء.

انتهت المقطوعة الموسيقية. فجلس عازف الغيتار طويل القامة على كرسي، واضعا غيتاره بعناية على فخذيه، وتفرق أزواج الراقصين، الذين كانوا متشابكين من قبل، في أرجاء الصالة حشداً مرحاً صخاباً، بينما أحدودب عازف البيانو على مقعده الدائري الصغير أكثر من السابق أمام آلته، ودفع بأصابعه الرقيقة شعره الكستنائي الكثيف الى الوراء.

التفت جمشيد الى المخرج، ولكن نظرته وقعت في هذه اللحظة على المائدة المجاورة للنافذة، ليس بعيداً عن الفرقة الموسيقية، فكان الى جانبيها ثمة كرسيان خاليان. فقال الى المرأة التي كانت ماتزال واقفة الى جانبه:

– ها هنالك كرسيان خاليان.

لوحت المرأة بيدها مغضبة، وابتعدت عنه، وهي تدمدم بشيء ما لنفسها.

تجاوز جمشيد الأزواج المرحين العائدين من الرقص بحذر، واقترب من المائدة، ثم توقف متهيباً: كان ثمة حولها رجل يرتدي بدلة فاخرة ذات لون قهوائي فاتح يجالس امرأة قبالته، وقد انحنى بشدة على طبقه وراح يلتهم طعامه بشراهة، مستعيناً بسكين في يده. كانت ياقة قميصه البيضاء مفتوحة، فيما زحفت عقدة رباطه الى جانب، والمرأة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنظر سادرة نحو النافذة وأمامها قنينة ليمونادة وكأس خالية. ووردتان حمراوان يطلان على المائدة من زهرية فرفور بأشراق وحبور.

لامس جمشيد بيده مسند الكرسي، سائلا الرجل:

– المعذرة، هل المكان خال؟

رفع الرجل رأسه محركاً فكيه، نظر الى جمشيد، ثم قال وهو يبتلع لقمته على عجل، وقد شع وجهه العريض الحليق:

– اووو..! مرحباً ايها العزيز جمشيد جان! كيف الصحة، كيف الأحوال؟

ارتبك جمشيد. لم يكن يتوقع هذا اللقاء، فغامت عيناه. كلا، ليكن أى شيء، الا هذا! تسارعت دقات قلبه حتى أحس جمشيد أنه على وشك فقدان الوعي. هذا ما كان ينقصه! ضغط نواجذه على بعض، وسيطر على نفسه. تبادل التحية باحترام مع الرجل، ولكنه لم يستطع توجيه نظرة الى المرأة رغم كل جهد بذله. فيما تلبك الرجل:

– تفضل بالجلوس، تفضل. دعني ألقي نظرة عليك. ما أبدع اننا ألتقينا ببعض. سيكون عندي ما أقصه على ابيك عند عودتي!.

جلس جمشيد وقد باغته هذا اللقاء المفاجيء المزعج مع جليل، اذ لم يكن يرغب أن يذنبه هذا بحقود، مفكراً أنه سيجلس دقائق معه، ثم يمضي لحاله.

– المعذرة، لم أتبينكما ...

فابتسم جليل كاشفاً عن أسنانه الذهبية:

– لابأس. أنا نفسي لم أنتبه أيضاً الى دخولك. يبدو أن القدر نفسه قادنا للالتقاء حول هذه المائدة مادام قلبانا مفعمين بالنزاهة والنبالة.

نادى جليل على النادلة، فهمس لها بشيء ما في أذنها، ثم التفت من جديد الى جمشيد.

– واذن، كيف الأحوال، الزوجة، الأطفال؟ حدثني.

– شكراً لك. كل شيء على مايرام. الأفضل أن تحدثني عن نفسك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– نحن نسلي أنفسنا كما ترى، وكما يقال «التسلية تسلية، والمعصية تسلية!» عندنا سيارة، متواضعة في الحقيقة، ولكنها تجعل الطريق الى هنا غير طويلة.

سكت قليلا، قلب شفتيه، نظر الى المرأة، ثم استأنف:

– ولكن، يبدو أن متعتنا هذه المرة باءت بالفشل...

– أ حقاً؟

سأل جمشيد ذلك محاولا ألا ينم عليه القلق. فقلب جليل شفتيه ثانية:

– شاهناز متوعكة قليلا. يبدو لي أن الجو هنا لا يناسبها، – ثم أضاف بعد قليل كمن يتدارك نفسه: – ولكنكما تعرفان بعضكما بعضاً، فقد درستما في مدرسة ابتدائية واحدة كما أظن؟

...بلي، يا جليل، لقد درسنا في ابتدائية واحدة، بل وفي صف واحد. وأنت تعلم هذا جيداً، فلم النفاق؟ أم أنك تعتقد أنني لم أتعرف عليك تلك الليلة؟ انك لعلى خطأ! انني أتذكر كل شيء: الشارع المهجور المظلم، المصباح المتوحد البعيد، ياقة معطفك المرفوعة الى أعلى، قبعتك التي موهت حتى حاجبيك تحت رفرفها، وذقنك المخفي وراء الشال...

وأجاب جمشيد:

– بلي، لقد درسنا في مدرسة واحدة.

– والآن تعمل في الجريدة؟

– في الجريدة.

– راتب الصحفيين جيد، أليس كذلك؟

– يكفي للعيش.

– هذا بديع... وصلتنا اشاعة تفيد أن والد زوجتك انسان ذو جاه، تستطيع أن تمضي بعيداً اذن بمثل هذه الركيزة، ولن يكون لك مجال للشكوى من صعوبة الحصول على رغادة العيش. انه هو اذن من ساعدك في الحصول على مثل هذه الوظيفة الجيدة؟

جفل جمشيد، ولكنه حافظ على صمته. ولأول مرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن فقط، عزم امره ووجه نظرة الى المرأة صحبة جليل، فيما سحبت شاهناز نظرتها من النافذة وأدارت وجهها ببطء غير أنها لم تنظر الى جمشيد.

كان حاجباها معقودين أعلى قصبة أنفها، وارتعشت شفتاها قليلا، هل اغتمت لزوجها يا ترى؟ ولم يخفض جمشيد نظرته عن وجهها، وأما عيناها الفستقيتان فقد هجرهما الى الأبد، كما يبدو، ذلك البريق الذى كان يلوح فيهما ما دام كان يذكرهما، وحل محله شيء ما جديد، لم يستطع جمشيد أبداً تسميته أو تحديده: فقد كان مزيجا غريبا من اللامبالاة وخلو البال و... الاكتئاب الاسيف... وفكر جمشيد: «ولكن جمالها ظل كالسابق، سوى انها أصبحت أكثر امتلاء. أتراها تخمن أنني غالباً ما كنت أتذكرها؟ أتراها تذكر؟»

قبل ثمانية أعوام، كانا قد أنهيا في التو الدراسة في المدرسة، أهدته شاهناز لعيد ميلاده مجلداً أخضر «النعرة» وابتسامة ذات معنى على شفتيها:

– يعجبني في العالم كله شخصان، أحدهما بطل هذا الكتاب...

فسألها جمشيد وقد جمد فؤاده:

– والثاني؟

– الثاني؟ – وأشاحت شاهناز نظرتها بدهاء – الثاني لم أتعرف عليه بعد.

– لا أصدقك!

– ولم؟ – رفعت شاهناز عينيها المدهشتين الى جمشيد، فاحمر رغماً عنه: فقد كان الفرح يشع منهما، – أنت تعتقد... انك... تعلم من هو الثاني؟

– كلا، لا أعلم!

كان فؤاده قد جمد تماماً...

– الثاني هو جيما*...

...رباه، ما أبعد كل هذا! بيد أنني مازلت أحتفظ

---

* بطلة كتاب «النعرة» – **المترجم.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى الآن بهديتك يا شاهناز، فهي الذكرى الوحيدة من حب الصبا وأحلام المستحيل...

أخرج جليل علبة سيكارة من جيبه، وسأل:

– تدخن؟

– كلا، شكراً

– أحسنت.

...عندما كنا ندرس في العاشر لم يكن أحد يشك في حبنا لبعض. كنا نجلس الى رحلة واحدة. ونادراً ما كنا نخرج تقريباً اثناء الفسح من الصف. فقد بدا لنا أن الافتراق دقيقة واحدة عن بعض انما هو تعاسة! كنا نحضر واجباتنا المدرسية معاً، وأحياناً، في أوقات الفراغ، في الأماسي ذهبنا الى السينما بل أننا لم نفطن الى أن أبناء صفنا راحوا يطلقون علينا تسمية «ليلى والمجنون»... المدرسة، المدرسة، آه يا لأحاييها السعيدة! بعدها انخرطت شاهناز طالبة خارجية في المعهد التربوي، أما أنا فقد كتب علي العمل في السكك الحديد: العائلة كبيرة، وكل كوبيك يعدل وزنه ذهباً.. أردت أن أعمل عامين لاعين والدي خلالهما على جمع شيء من المال ولأستطيع بعدهما الدراسة في معهد. كنت أحلم أن أكون صحافياً...

– أحسنت، – كرر جليل، – التبغ ملعون، أعلم أنه سم، ولكن ها أنا أدخن منذ اثني عشر عاماً، تركت مرات، ولكن دون طائل، – وأخرج جليل سيكارة بمهارة من العلبة، وراح يدخن – كم طفلا عندك؟

– واحد. ابنة.

– اها...

...كنت تعملين ذلك الحين في روضة الأطفال، فكنت أهرع كل مساء بعد العمل الى البيت المألوف حيث تلك الروضة، فأنتظر حتى تتجرح عيناي، ناظرا خلل باب السياج المبرقش، المعروف لدي حتى أتفه الخدوش عليه. لم يقدر لي أبداً انتظارك فترة طويلة. ما أن أغمض عيني حتى أراك في الحال بادية لي عبر باب السياج، تسرعين الى لقياي وكأن الانتظار أعيى فيك طيلة النهار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنت واثقاً في كل هذا. وكنت تقولين: «لقد رأيتك من النافذة!» وتبتسمين برقة. وأنا أعاهد نفسي كل يوم أن أفاتحك مساء بأمر زواجنا، وأنت تديرين دفة الحديث كل مساء الى موضوع آخر... أتذكرين؟ مر يوم ومر آخر، وانتهب الزمن الشهور، و... كان يوم قلت فيه: «بلى» كان الجو بارداً، وكان الثلج يهمي، ولكني لم أحس تحتي بقدمي، لأني كنت طائراً الى البيت، كما لو بجناحين! أنت تذكرين أننا قررنا ان يكون العرس صيفاً، حال انتهائك من تقديم الامتحانات...

وأنت تذكرين كلماتك الأخرى: «لا داعي» لازعاجي بعد، فالناس أخذوا يتحدثون عنا بكل شيء.» اواه، ودهشتي أنا، وقد اعماني فرح موافقتك على الاقتران بي، وقولي: «ليقولوا ما شاؤا، فقريباً نصبح زوجين!» وأنت تذكرين كيف عضضت شفتك، وانتزعت يدك مني، فجريك عني؟ لقد سقطت السماء على رأسي ذلك اليوم: ليس سوى عن طريق الكتب كنت أعرف كيف يتوجع القلب بسبب الحب، وكيف تفعمه المعاناة الممضة، وأما أنت فقد تنكرت لي وما عدت ترغبين الالتفات الي و الى حبي. والتقيتك بضعة مرات كنت تسيرين فيها صحبة هذا... جليل.. كان قد أنهى لتوه المعهد وعين مديراً لمخزن رئيسي.

أتذكرين؟

وقال جليل نافثاً الدخان من زاوية فمه:

– عندنا ثلاثة أطفال، كلهم أولاد. الأكبر أنهى عامه الخامس قبل فترة قريبة.

جلبت النادلة ثلاث فراخ مشوية، زجاجة كونياك، ثلاث قطع شوكولاته، جبناً، عصير ليمونادة في دورق، وضعتها جميعاً على المائدة.

نبذ جليل عقب سيكارته في المنفضة، وراح يتدبر بحيوية أمر المآكل والمشروبات: صب الكونياك في قدحين، قطع الشوكلاته بأصابعه القصيرة، وهال الفتات على الصحن بدقة...

– لن تشربي يا شاهناز كحولا، أليس كذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودون أن ينظر جليل الى زوجته أو ينتظر رداً منها التفت الى جمشيد، مستأنفا الكلام:

– كم مضى من الأعوام ونحن نعرف بعضنا بعضاً، ولكنها المرة الأولى نلتقي فيها حول مائدة واحدة. ينبغي الاعتزاز بالأصدقاء القدامى يا جمشيدجان. واذن، هيا لنشرب نخب لقاءاتنا القادمة.

نظر جمشيد بطرفي عينيه الى شاهناز، كان وجهها ساكناً جامداً، تواصل النظر كما من قبل نحو النافذة متفكرة، غير أن أصابعها كانت تكرمش منديلا تحت المائدة بسرعة، وبحقد مفاجيء.

– و لم لا، اذا توجب شرب هذا النخب، هيا لنشربه! وافقه جمشيد، وقد هدأ فجأة، فيما أحست شاهناز في الحال بهدوئه هذا. نظرت بسرعة الى جمشيد، ففكر: «واشتبكت النظرات أخيراً!» وكان ذلك ماحدث حقاً...

وقرب جليل قدحه من جمشيد منتظراً أن يرفع هذا قدحه أيضاً، قائلا:

– واذن، هيا. الكلام لك الآن يا عزيزي!

فابتسم جمشيد نافراً نفساً من أنفه:

– أي كلام؟

– م م م م... ولكنك صحافي...

...بعض الوقت، وترددت اشاعة تفيد أن شاهناز أصبحت خطيبة جليل. ومرت الليالي لا يغمض لي فيها جفن، ما ان أغمض عيني حتى يسبح أمامهما وجهك، وتهمس شفتاك بشيء ما، وأنا لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجري؟ فكنت أنهض من الفراش وأجوب الشوارع حتى الفجر دون غاية او قصد، والأفكار تأخذني الى كل حدب وصوب، من غير أن أستطيع تحديد ذنبي تجاهك، أو أفهم لم حطمت بيديك سعادتنا؟

فقدت السيطرة على نفسي في أحد الأيام. حملتني قدماي الى بوابة سياج روضة الأطفال التي كنت تعملين فيها، وكأن قوة غير منظورة تقودني اليك. لم أنتظرك طويلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك اليوم، مرت عشر دقائق واذا بك تظهرين عند العتبة، وتنظرين ببرود ناحيتي: تحية مقتضبة ومررت تواصلين دربك عجلى، لحقت بك وسألتك:

– هل هذا صحيح يا شاهناز؟

دون أن تتوقفي رميت لي كلماتك عبر كتفك:

– وما هو هذا الصحيح؟

– ما يقوله الناس.

– بلى، صحيح،

– ولكنك تعرفين أي انسان هو!

– أنت تعتقد انه انسان سيىء؟

– ليقل الآخرون رأيهم فيه. أما أنا...

– ماذا... أنت؟ انه على كل حال ليس انساناً اذا أمسك بيد فتاة صاح أمام الجميع أنه امتلكها...

– ماذا تعنين بكلماتك هذه يا شاهناز؟!

– ألا تعلم؟

Telegram:@qbooks2018

– لو علمت ما سألت!

– اوه، كفى! يؤسفني أنني لم أعرف من قبل أي انسان حسود وبلا ذمة أنت!

بلى، هكذا تكلمت. وجمدت في مكاني وقد صعقني الافتراء، دون أن أعلم حتى اللحظة الراهنة من هو هذا الانسان الرذيل الذى سمعت منه ذلك الكذب، ولكن الجرح الذي سببه لي مازال ينزف حتى الآن، ولم نلتق بعد ذلك المساء، يا شاهناز. وأما الآونة فنحن لا نستطيع حتى مجرد الكلام لبعض. فلم تشيحين بوجهك عني يا شاهناز، وبماذا تفكرين؟

لامس جليل كتف جمشيد بهدوء، وضحك:

– ما الذي يجعلك غارقاً في الفكر هكذا يا عزيزي؟ أتبحث في روحك عن كلمات طيبة؟

خيل لجمشيد أن جليل يضفي على ضحكته وكلماته معنى ما، ساخراً، منتصراً، خاصاً. فأجاب جمشيد:

– لم يتح لي التمتع بتهنئتكم بيوم زواجكما، فقد كنت مريضاً رغم أن ذلك قد يبدو مضحكاً، فقد مرت أعوام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طويلة على ذلك. الا أنني أود أن أشرب اليوم هذا القدح نخب سعادتكما وصحتكما.

– شكراً أيها العزيز جمشيد، أتمنى لك السعادة بدوري.

وشربا.

عزفت الجوقة الموسيقية مقطوعة راقصة، فيما عزف ضحك الراقصين ودربكة عقب أحذيتهم الممزوجة بالموسيقى مقطوعة أخرى، بدت لجمشيد مفعمة لا بالأصوات فحسب، بل وبأمزجة الموجودين في الصالة أيضاً. كانت المقطوعة راقصة، مرحة منسابة، بل ويائسة، قانطة في نفس الوقت، وحتى شاكية...

– لنشرب نخباً آخر يا جمشيدجان!

– شكراً. لا أستطيع الشرب أكثر.

– اووو.. وماذا في هذا القدح غير خمسين غراماً...

– ينتظرني عمل...

– خذ، خذ، لن يهرب العمل منك، – وضع جليل القدح أمام جمشيد، والتفت الى شاهناز، – طعامك برد.

رفعت شاهناز رأسها صامتة شاحبة ونظرت الى زوجها، فيما بدت وكأنها لم تسمع ما قيل لها. فكرر زوجها بصبر ودماثة:

– طعامك برد. اذا لم تكن عندك شهية عليك اجبار نفسك على الأكل.

نظرت شاهناز دون شعور بالمشاركة الى زوجها، حركت الشوكة أمامها بضعة مرات، ثم طأطأت رأسها.

شخط جليل عود الثقاب على علبة الكبريت عدة مرات بعصبية، أرث سيكارته، ثم راح يدخن بنهم...

...واذ افترقت عنك ياشاهناز مضيت الى مطعم السكك الحديد، فشربت الفودكا لأول مرة في حياتي، وقد بدا لي آنذاك أن على الرجل الحقيقي أن يسلك هكذا بالذات: ان يغرق همومه في الشراب. خرجت الى الشارع: روحي ممزقة، رأسي دائخ، ساقاي رخوان، ولم أستطع الوصول الى شارعنا الا بأشق الأنفس. فما كدت أمر عبر الساقية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى استولت العتمة تماماً على عينيّ، وأسمع أحداً يقفز الى الطريق وصيحة: «قف!» يطلقها صوت أجش غريب. فتوقفت، واتكأت بكتفي على شجرة، واذا بذلك الشخص يقترب مني ويشد بتلابيبي قائلا: «اسمع أنت أيها الجرو الثمل، أحذر ان تقتلك الهموم!»

تصاعدت موجة عارمة من الغضب في داخلي، الا أنني بقيت صابراً وأردت أن أعرف من هذا الشخص رغم كل شيء ولم أستطع ذلك: فقد كانت ياقة المعطف، والقبعة، والشال تخفي وجهه تماماً، فهتفت: «وأنت، من تكون أنت؟ وماذا تبغي؟»

– لا شأن لك بي، ولكن ضع في علمك ان جرؤت على التحدث مرة أخرى مع شاهناز قطعت رأسك وأطعمت به الكلاب. واذا تحرك فمك دفنتك في الرمال أيها الوغد!

– أنني أفعل ما يحلو لي...

– ما «يحلو لك» تقول؟...

– بلى!

– تذكر اذن أيها الجرو، ان شرف الصديق بالنسبة لي أعز شيء في الدنيا! فاذا تحدثت مع شاهناز من غير جليل قطعت رأسك!

ضربتني المهانة في رأسي، اندفعت من الشجرة، وهتفت بالرجل المجهول، مختنقا بضراوتي:

– اذهب وقل لجليلك هذا: ان كان رجلا ليأت بنفسه لمقابلتي!

واما ما كان بعد ذلك فيحضرني كما لو كان حلماً.

وصاح الرجل المجهول: «آخ، تريد مقابلة جليل؟! اذن خذ هذا!» لم أفلح بالابتعاد عن الرجل فكادت ضربته القوية تطيح بي أرضاً. وما كدت أشعر بالدم ينفر من أنفي وشفتي حتى جمحت الى الأمام موجهاً قبضتي الى الوجه المختفي وراء الشال والقبعة، ولكني لم أفلح سوى في انتزاع الشال. ثم شعرت بالصحو لحظة، ربما بسبب الضربة، ربما بسبب الغضب، وكذلك تعرفت خلال لحظة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الى وجه خصمي. أميط الشال عن وجهه، وازيحت القبعة الى جانب، فانكشفت هوية الشخص أمامي.

نسيت ألمي، شفتي الداميتين، وأنفي النازف، وضحكت ملء فمي هاتفاً:

– أوخ يا لك من رجل سافل!

انحنى مخفياً وجهه بيده، ثم وجه لي لكمة بكل ما عنده من قوة، فتجنبتها، فلم تصبني سوى في ركبتي اليسرى، ولكن بقوة كادت تسقطني أرضاً مرة أخرى. امتزج الغضب بالألم بالشعور بالمهانة ليتحول كل ذلك في الى تصميم عنيف، فجمعت قبضتي ناوياً أن لا أصد الهجوم التالي علي حسب، بل وان أهرس خصمي تحتي هرساً...

وكان اول شيء سمعته بعد ذلك طبطبة قدمي الرجل هارباً أمامي. وكنت أفكر أحياناً: ما الذي دفعه للهرب؟ أيكون قد خشي الافتضاح فذيوع أمره بين الجميع؟ فنحن كنا جارين، عشنا قريباً من بعض طويلا، أكان بامكاني أن لا أتعرف عليه؟ أم أنه كان راغباً أن لا تتلف علاقتنا تماماً؟ كائنا ما كانت عليه العلاقة آنذاك؟ وعلى العموم فقد كان سلوكه ذلك لا أول ولا آخر رذالاته...

ودهش جليل:

– ماذا قلت؟

نظر جمشيد وشاهناز اليه. فيما هز جمشيد منكبيه دون أن ينتبه الى أنه أخذ يتحدث بصوت عال نفسه:

– لا شيء.

– تهيألي أنك قلت «كان» أو «حان»...

فمط جمشيد ابتسامته:

– آ آ آ.. قلت أن طعامك برد.

– يبدو انك لاتشعر بنفسك على مايرام يا عزيزي. هل هنالك مايزعجك؟

– كلا. كل شيء على مايرام. سوى أن الضجر أخذ ينتابني في الأيام الأخيرة، لأنني وحدي باق في البيت.

دبت الحيوية في جليل:

– ماذا، تخاصمت مع زوجتك؟ ومنذ فترة طويلة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فابتسم جمشيد:

– لا، أبداً. بل جاءت الوالدة فاصطحبت زوجتي وابنتي معها لبضعة أيام، أحد أقربائنا يقيم عرساً.

– هكذا اذن، وأنا الذي فكرت...

...بعد يومين التقيت بك ياجليل، وكنت عائداً آنذاك من عملي الى البيت، وكانت ركبتي ماتزال تؤلمني بعد، فكنت أعرج في مشيتي. وكنت أنت واقفاً عند باب بيتكم تقزقز الفستق، في روب أخضر راق حريري، وقبعة بديعة على رأسك، فيما سألت شاعراً بذنب: «مالك تعرج يا جمشيد؟ «فابتسمت أنا وأجبت ناظراً في عينيك: «أحد الأوغاد قطع علي الطريق ليلا. للأسف لم أستطع التعرف عليه...»

– يا للسافل! ينبغي التقدم بشكوى الى الميليشيا من أين لنا كل هؤلاء الوحوش!

وظل جليل يرجم أشرار الغيب طويلا أمامي، مديراً عينيه من جانب الى جانب. أما أنا فقد مكثت واقفاً أنظر اليه، كاتماً في نفسي بصعوبة رغبة عارمة في أن أوجه ضربة ساحقة ماحقة لهذا الشيطان الماكر الكاذب...

وفي أحد الأيام، بعد مرور خمسة أعوام على هذه الحوادث، فهمت أنه كان ينبغي علي أن أصرخ ملء صوتي في الشارع كله فاضحاً الوغد، وأن أكيل له من الضرب الصاع صاعين، فقد كان ذلك أفضل أمر توجب القيام به آنذاك: وليس الاكتفاء بالمعاناة بصمت واحساس بالمهانة... العراك... ذلك هو المطلوب، غير أني لا أستطيعه الآن، فأنا جالس صحبته الى مائدة واحدة.

– سمعت أنك سافرت الى أبيك شتاء، للأسف لم يتح لنا الالتقاء هنالك.

– قضيت وقتاً قليلا هنالك، يومين لا أكثر، وعدت.

– ولكننا لن نفترق بعد الآن طويلا. بيتنا بيتك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفضل في أي وقت تشاء، أيها العزيز جمشيدجان! فالانسان مثل اللؤلؤة الغالية، وأنا لا أبخل بروحي للصديق العزيز.

أخرج جليل منديلا من جيبه وتمخط بصوت عال. جفلت شاهناز، ورفعت عينيها الجميلتين نحوه، ثم طأطأت رأسها ثانية. فيما فكر جمشيد فجأة وقد أدهشته فكرته المباغتة: «عدم مشاركتها ليس غير شكل لمشاركتها في أعمال زوجها. شراكة دون مشاركة...».

– ابتسم لي الحظ قبل فترة قريبة مجدداً، فاستحققت عملا جيداً. فاستطيع الآن مساعدة الأصدقاء دائماً.

وسكت جليل برهة منتظراً توجيه السؤال اليه، ثم اعقب:

– ينبغي معرفة أي الأرباب يمد يد العون، لتتعبد اليه.

– أعمالك تتكلل بالنجاح دائماً.

– نيتي صافية، النية هي الأهم!

سكت الرجلان.

كان الطعام قد برد منذ فترة طويلة، والقدحان المترعان بالكونياك ينتصبان بيتم عند حافة المائدة، جليل يدخن سيكارة، وشاهناز صامتة. فيما اكفهر جمشيد أكثر فأكثر، ومرح الجمهور يمر حواليه دون أن يمسه، فأسف على قدومه الى هنا، ودخوله بين شعاب هذا الحديث غير الضروري لأحد، مفكراً أن لقاءهم يذكر بمدفن أكثر مما يذكر بشيء آخر...

– انني ماض بعد سماحكم لي...

– ماذا دهاك، أجلس بعد قليلا. لا أحد يخرج من الروستورانت في وقت هكذا مبكر!

– عندي أشغال.

– حسناً، لنشرب قدحاً ونخلي سبيلك بعدها!

– شكراً، ولكنني لا أستطيع الشرب بعد.

– كن رجلا يا عزيزي. خمسون غراماً لا تؤذي أحداً!

– كلا، كلا، الشغل هو الشغل. لم أكن ناويا الجلوس طويلا، انما تناول العشاء حسب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آسفاً، لسوف يهدر الكونياك الجيد عبثاً.

نظر جمشيد الى شاهناز. لم تكن قد تلفظت طيلة هذه الأمسية الثقيلة كلمة واحدة. وبدا لجمشيد في بعض اللحظات انها تبكي، و ان اكتئاباً مراً تختزنه عيناها السوداوان في أعماقهما. فذكرته بالحمامة المهيضة الجناح المنطرحة تحت قدمي الصياد. ثم تغيرت تعابير وجهها بعد ذلك، فاذا بها امرأة غريبة باردة متدبرة تجلس الى جانبه، تغيرت في الحال الى فتاة مرتبكة... فمن أنت في واقع الحال يا شاهناز؟ من؟ «وما دعواك أنت بهذا - أجاب جمشيد نفسه. -لقد مضى الماضي، وما فات مات، الى المائدة تجلس زوجة غريبة، ليست فتاة الأحلام... فما الذي يجعل جروحك الغابرة تفز؟ أنهض وامض. ألا ترى أن المرأة تعاني من مشاكلها، فهل تريد التلذذ بمعاناة الآخرين؟ ولكن ما ادراك انها تعاني حقاً، ولعلها مريضة فعلا...»

- لن أحاول اقناعك بالعدول عن الذهاب، فأنا أفهم معنى الشغل العاجل! يصيبني منه شيء أيضاً أحياناً... في الأماسي، - خفض جليل صوته هامساً، غامزاً بعينه كمن يفهم. - لسوف أنقل تحاياك الى والدك في الحال، ولكننا سوف ننتظر زيارتك الى بيتنا: بصحبة زوجتك، لنجلس، لنتسامر - رفع جليل يده، وما أن التقت عيناه بنظرة النادلة الجالسة الى طاولة قرب العمود المنقوش، حتى لوح بها لها.

اقتربت النادلة من جليل حاملة قلماً ودفتر حساباتها الصغير:

- تفضلوا...

- الحساب رجاء، سوف نخرج...

فاعترض جمشيد:

- ولكن الوقت لايزال مبكراً وتستطيعون الجلوس بعد.

نظر جليل الى ساعته.

- هذا صحيح! بيد أنه بدا لي أن الوقت قد تأخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضغطت النادلة شفتيها وهي تضع ورقة الحساب على المائدة:

– ثلاثة وعشرون روبلا وسبعة وثمانون كوبيكاً.

– لقد غيرنا رأينا أيتها العزيزة. لسوف يخرج هو وحده. اما نحن فسنجلس بعد، سنرقص، ثم تجرين الحساب عاماً بعد ذلك.

عزمت النادلة على الابتعاد عن المائدة، ولكن جمشيد طلب تلبثها، وأخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلا، فأودعها الى يدها، قائلا وهو ينهض عن الطاولة، ناظراً الى جليل ثم الى شاهناز:

– انهما ضيفاي. ولسوف أدفع أنا. واذن، أتمنى لكما الصحة والعافية!

– لقد زعلتنا أيها العزيز جمشيدجان! لا يحسن هذا. ألا أستطيع أن أدفع أنا؟

فكرر جمشيد لازمة جليل المفضلة في الحديث بأناقة:

– أووو... لا تزعل أيها العزيز جليل. المرة القادمة ستكون عليك.

– هذا أمر آخر. انه فعل رجال.

مدت النادلة يدها ببقية الحساب.

– الباقي.

– انه لك...

وكرر جمشيد وهو يلقي نظرة على شاهناز:

– الى اللقاء!

ونهض جليل عن كرسيه.

– آمل يا عزيزي جمشيد ألا يفترق قلبانا بعد دقيقة واحدة رغم المسافة البعيدة بيننا! فنحن جاران من قبل! والجار أقرب لجاره من أخيه. يقولون أنه سوف يسأل في العالم الآخر يوم الحساب العظيم عن حسنات وسيئات الانسان من جاره... واذن، ليكتب لنا الله أن نلتقي ثانية.

– بالطبع.

نظر جمشيد مرة أخرى الى جليل في البدء ثم الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شاهناز، وتناول من المائدة القدح المترع بالكونياك، وشرب ما فيها بلذة مفاجئة ناظراً الى الأعماق السحيقة لعيني المرأة، فيما انفجرت شرارة في تلك الأعماق لكنها خبت في الحال... وكان بالامكان أن يكون ذلك محض انعكاس للقدح الزجاجي الذي كان جمشيد يحمله، وقد ارتد النور عنه، النور...

- الوداع.

هتف جليل منبهراً بشيء ما من وراءه ولكن جمشيد لم يلتقط ما قاله. وتغير شيء ما غير محسوس فجأة على باحة العزف الصغيرة في زاوية صالة المطعم الكبيرة، فقد كف الشاب طويل القامة، عازف الغيتار، عن التلوي فجأة، بينما خطا نافخ الساكسوفون الى جانب، واستوى ضارب البيانو العجوز على مقعده وقد حلقت أصابعه الرشيقة الرقيقة عاليا. فيما عبثت هبة غير مرئية من الريح بغرة شعره الكستنائي، و...

استولت برودة على وجه جمشيد...

في الصالة المفعمة بضجة وجلبة تسود موسيقى الرقصة البولونية الخالدة.

التفت جمشيد.

ولكنه لم ير لا جليل ولا شاهناز. كان العمود المنقوش يخفي مائدتهما عنه. وكان رجل عجوز سكران يحتضن العمود بكلتا يديه، وقد أحنى رأسه على كتفه، باكياً عنده فيما دموعه انهمرت حتى ذقنه الأجعد، وتساقطت على الأرضية الى أسفل...

...ومرت بضعة أيام.

كان جمشيد عائداً الى بيته من عمله، فيما أناخ على المدينة غسق بنفسجي باهت، وهمى المطر، دافئاً ناعماً، غاسلا منذ الصباح كل قاذورات الشتاء، وأوراق العام الماضي، معيداً الى البيوت والأسيجة وأغصان الأحراش المحمرة والبراعم المنتفخة وبواكير الأعشاب، لونها ورائحتها الأصيلة. كانت الأرض تضوع برائحة الربيع، وكذا المدينة تتضوع وتتغير.

توقف جمشيد عند مفترق الطرق منتظراً انقطاع سيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيارات، واذا به يرى خلل شبكة المطر النازلة «فولغا» سوداء توقفت عند المفترق. كان جليل يجلس وراء المقود يدخن سيكارة، والى جانبه وجه شاهناز باد للعيان. كان كلاهما ينظران الى الأمام باغتراب ودون مبالاة. وماسحتا المطر الناعمتان تزيحان قطراته المتساقطه على الزجاجة، وفي نفس الوقت تزيحان للحظة وجهي الجالسين داخل السيارة، وبدا انه ستمر لحظة أخرى بعد، حركة أخرى خفيفة بعد من الماسحتين الناعمتين ويغيب تماماً هذان الوجهان، دون ان ينتبه صاحباهما لذلك، ليواصلا السير أناساً دون وجه...

توهج الضوء الأخضر فوق المفترق فاسحاً الطريق للسيارات، فانحنى جمشيد... بينما لامسه عند مرفقه في هذه اللحظة عجوز ما يبدو انه يعمل في كلخوز، كما يدل مظهره، قال له:

– بني، أتوجد شايخانة قريباً من هنا؟

– توجد أبتاه، توجد.

واذ راح جمشيد يشرح للعجوز كيف يصل الى الشايخانة، مرت السيارة دون أن يلحظ في أي اتجاه انعطفت «فولغا» جليل.

وكان مطر... وكان مساء..

١٩٨٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد الرؤوف رابيف. ولد عام ١٩٥١ في قرية مهنة آباد. أنهى عام ١٩٧٥ كلية اللغة والأدب بجامعة تاجيكستان المسماة باسم لينين. ومنذ ذلك الحين يعمل في الصحافة. مراسل اذاعة الجمهورية، وكذلك الجريدة الحزبية للجمهورية (« تاجيكستان السوفييتية »). قطع تاجيكستان كصحافي طولا وعرضاً حاملا دفتر ملاحظاته. أبطال قصصه أناس من الواقع، بناة حياة تاجيكستان السوفييتية اليوم.

يولدوز

ضاع أخي. بحثت عنه في كل مكان: عند ساحل النهر، بين الدغل الكثيف، في الوهاد المظلمة الرطيبة، في شعاب الارض، وعلى منحدرات الجبل: مختصر الكلام، نقبت عنه المنطقة بأكملها، فلم أقع له على أثر. ولم يكن أحد منا، أمي أو أنا، بعالم عم يفكر الآخر. فيما راحت أمي تنظر الى الطريق أياماً بأكملها آملة، مرهفة سمعها لكل دبيب وضوضاء، فازة في الليالي كلما سقطت تفاحة على الأرض، فلا تستطيع الغفو طويلا من خشخشة الأغصان في حديقتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل أني رحت أبحث عن أخي حتى في منامي، فكنت أعثر عليه في أغرب الاماكن، فأقوده الى البيت متعجلا ادخال السكينة الى قلب أمي. بيد أني ما أن كنت أثب الى وعيي، حتى كنت قانطاً أتأكد من غيابه كالسابق.

مر أسبوعان كاملان ونحن لا نعلم شيئاً عن مصيره؟ غير أن موزع البريد حمل الينا في ظهيرة أحد الأيام رسالة، خشيت الأم امساكها بيدها.

فضضت المظروف، ونظرت الى الأسطر المنحرفة ذات الحروف الناعمة المائلة الى جانب، وطفقت أقرأ:

«والدتي – كتب أخي – لعل روحك تمزقت وأنت تفكرين طيلة الوقت أني ذهب ابنك المجنون. أسارع فأطمئنك: اني بخير وعافية، أقيم حالياً في طشقند، فهي بعيدة جداً عن بقاعنا الجبلية، وكانت هذه المدينة تدعى حيناما: شاش وفيها هنا نهير يسمى نهير زال. احتفره، على ما يبدو، زال – والد جدنا البعيد رستم. ضرب المدينة قبل بضعة أسابيع زلزال أرضي، فأصابها دمار شديد. فلو علمت بذلك ماكنت تتركيني أمضي اليها. ولذلك اخفيت عنكم نيتي على السفر الى هنا، فأرجو المعذرة. بصحبتي يعمل العديد من أبناء تاجيكستان، وغيرهم آخرون من مختلف الجمهوريات. الحاجة ماسة هنا الى الأيدي العاملة، وأنا أعمل حالياً متدرباً، وليس في هذا ما يسيء، فالجميع يبدأ هكذا. ولسوف أصبح بالتأكيد يوماً ما أسطى ماهراً.

لا تقلقي علي. اسهري على نفسك، وانقلي تحياتي الحارة الى فارس الفرسان.

ولدك الهارب اكرام».

بـ«فارس الفرسان» كان أخي يقصدني أنا. تناولت الوالدة الرسالة مني متمتمة «آه يالحماقته، لم يستطع القاسي البوح بنيته». ومسحت دموعها بطرف المنديل، وقبلت الرسالة. كانت أمي تكرر دائماً: «المهم أن يكون على قيد الحياة» فلما علمت بأن شيئاً لم يحدث لاكرام اطمأنت قليلا: غير أن الآونة أصبحت لها مشاغل أخرى. اذ راحت تقف ساعات بالقرب من مكبرات الصوت تتسقط منها أخبار طشقند، فاذا لاحت لسمعها أنباء عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هزات جديدة، كانت تجفل وتختض لكأنها نفسها واقعة تحت تأثير ضربات الزلازل الأرضية.

وأعلن أخيراً في الراديو أن الزلازل قد انتهت في طشقند.

كنت واثقاً من أن أخي سوف يعود الينا بين شهر وآخر. الا أن نصف عام قد مر دون أن يلح له أثر. وكان الشوق قد برح بي اليه، ولم تكن أمي تستطيع العثور لنفسها مكاناً بسبب من ذلك: وكلما مرت الأيام كلما كانت الرغبة لرؤيته تزداد عنفواناً، وتطلعاً لمحياه. وفي الليالي كنت أحلم كيف سألقاه، وكنت أضع المواعيد لعودته، ولكن ذلك كله كان محض خيالات وتصورات بينما لم يكن أخي يحدد حتى في رسائله موعداً لأوبته المنتظرة.

ولكن ها باب السياج يفتح مساء أحد الأيام، ليدخل الى الباحة شاب، توجه الينا بالسؤال:

– أتسمحون لهارب بالعودة؟

وقفت أمي وسط الباحة ممسكة المطفحة بين يديها، بينما لم نصدق أعيننا أنه قد عاد أخيراً حقاً، الا أن ذلك الشاب كان هو نفسه أخي لا غيره، رغم أنه كان من الصعب التعرف على اكرام القديم في شخص هذا الشاب العريض المنكبين: لقد طالت قامته أكثر من شبر، واتسع صدره، ولوحت الشمس والريح وجهه.

ارتميت عليه، بينما احتضنته أمي منخرطة في البكاء، دون أن نقل شيئاً، ماكثين ثلاثتنا وقوفاً هكذا، محتضنين اياه. فيما سمعت قلوبنا تنبض بوجيب عال شاعرة سعادة غامرة.

لم يطفأ النور في بيتنا ذلك المساء حتى ساعة متأخرة من الليل، بينما أشبعنا أخي أسئلة عن الحياة في طشقند، متذكرين بين حين وحين شقاوات طفولتنا، غارقين في الضحك. وكما هو الحال في عهد طفولتنا تمددت معه في فراش واحد، دون أن يغمض لنا جفن حتى بعد ذلك طويلا، وكانت سماء الليل تلوح عبر الستارة الوردية الرقيقة مرصعة بنثار الكواكب الماسية، التي بدت محمرة متلاصفة قريبة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكأنما بالامكان تناول حفنات كاملة منها حال النهوض ومد اليد اليها.

كنت أنظر الى السماء فلم أسمع أخي وهو يناديني. بينما كرر المرة الثانية:

– رستم! أتحب النجوم؟

أجبت هامساً:

– بالطبع.

– وهل تعلم ما اسم النجمة بالأوزبكية؟

– لا.

– انه هكذا: يولدوز.

لفظ أخي هذه الكلمة بنبرة غامضة فبدت لي وكأن الغرفة امتلأت بأضواء هادئة، فكأن نور النجمة (يولدوز) أطل علينا عبر النافذة.

ظللت أنظر الى السماء فترة طويلة بعد، كانت مكللة بالجلال، وأما النجوم الساطعات فقد نظمت فجأة كلمة «يولدوز» فأضاءت ببريق باهر على مبعدة نصف متر ما عن النافذة، وإذا بي أفهم أنني غاف، أضحك في حبور في الحلم.

مضينا، أنا و أخي، في اليوم التالي الى الجبال. فقد كان أخي قد قال أنه اشتاق كثيراً في طشقند الى جبالنا، والى هوائها العليل، وينابيعها العذبة.

وكانت سفوح الجبال طافحة بأزاهير الخزامى التي تألقت أبسطة حمراء على مخمل المروج الخضراء. اندفعنا نجمع ما في المستطاع منها، فيما أخي يضم الأكثر جمالا في باقات منفردة، ثم تمدد على العشب، فانطرحت الى جانبه، وقال بهدوء متطلعاً بأنظاره الى السماء:

– انها تحب الخزامى كثيراً...

– من؟

لم يرد أخي بشيء. تناول باقة من الأزاهير، فاختار منها الأكبر، وراح ينظر الى جوفها الأسود – الأصفر، أما أنا فقد تذكرت لسبب ما كلمة «يولدوز» وفكرت انها تعني بالنسبة لاخي شيئا ما غالياً، أكثر من نجمة حسب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدنا الى البيت متعبين، ثم أوينا سوية مرة أخرى الى الفراش. وفي الصباح قال أخي بعد الافطار:

– انني راحل يا أماه هذا اليوم.

جمدت الابتسامة على وجه أمي. فحاول اكرام طمأنتها:

– لسوف أعود مرة أخرى. أما الآن فاجازتي ثلاثة أيام، ولا أستطيع التخلف. وأنت نفسك لا تحنثين بوعدك أبداً.

لم تعترض أمي بشيء. وكانت لا تخلف فعلا بوعدها. بيد أنه تهيأ لي أن ليس العمل وحده ما استدعى أخي للرحيل عائداً.

وسافر أخي، وامتدت أيام الانتظار مرة أخرى طويلة.

ومرة أخرى لم ينذرنا عند عودته ثانية: وصل الينا آن كان خطر الفيضان يهدد الوادى. وكانت صخرة هائلة قد سقطت في النهر فسدت المجرى، والمياه تتجمع بسرعة، فاذا لم تجد لنفسها مجرى جديداً حطمت السد وتدفقت الى اسفل مدمرة كل ما تجده في طريقها.

لم يمد أخي يده حتى الى الأكل. شرب قدح شاي، ثم أعلن أنه راحل. فاستولى الشحوب على وجه أمي.

– ما معنى هذه الطلعات؟ أنت لم تأت الينا طالباً علبة كبريت. عليك أن تحسب لقلبي حسابه! انه يدمى في غيابك... كان الأفضل لو لم تأت الينا على الاطلاق. أنني لم أفلح بعد في التطلع الى وجهك، وأما أنت فقد انتهيت من القرار الى الفرار.

ابتسم أخي شاعراً بالذنب.

– لن أبتعد كثيراً ولن أغيب طويلا. جئت بسبب الانهيار. يجب معالجة الأمر بأسرع وقت.

كان أخي قد حصل في طشقند على اختصاص سائق تراكتور. وفي مكان حادث الانهيار سلم له بلدوزر. ورغم أن مكان عمله لم يكن يبعد عن بيتنا كثيراً الا أنه كان نادرا ما يأتي الى البيت، واذا ما جاء ففي وقت متأخر، فيذهب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الى الفراش مباشرة. وفي الصباح الباكر يخرج مجددا الى عمله. وعندما راحت المياه تغمر قمم التلال عند سفح الجبل كف عن المجيء الى البيت بتاتاً، فالآونة كان هنالك بحر كامل يشخب خلف الصخرة الساقطة، وبامكان المياه التدفق في كل لحظة الى أسفل، ولو حصل هذا فلا يبقى أمامها في الوادي أحد أو شيء. كانوا يعملون في مكان الانهيار ليلا ونهاراً، ويطعمون العاملين في موقع عملهم مباشرة. وكانت أمي تعد كل يوم الأطباق التي يفضلها أكرام فأحملها بنفسي اليه، ولم يكن من السهل العثور عليه بين مئات السيارات والتراكتورات وطائرات الشحن العمودية، والناس الغادين والرائحين، فكنت أتقلب بين المدرجات باحثاً عن بلدوزره، حتى أكاد أسقط أحياناً بين دواليبها، فكان السائقون يشتمون، بل ويتهددونني بـ«اقتلاع أذني» ففهمت أن أعصاب العاملين في مكان الانهيار متوترة الى أقصى حد، ومن المحتمل أن يحدث ما لا تحمد عقباه في أية لحظة.

كنت أعثر على أخي رغم كل شيء، وكان يبدو لي متعباً جداً، غائر العينين، محمرهما بسبب ليالي السهد الطويلة، تحيط بهما هالات زرقاء، وكان قليل الكلام، يطلب كعهده أبداً ألا نقلق أنفسنا بسببه، ولكنه كان يأتي على ما أجلبه له تماماً بتلذذ كبير... كنت أنظر الى ملابسه المغبرة، ويديه القويتين المخشوشنتين، ووجهه الشاحب، فكانت مشاعر من الفخر تتناهض في صدري وتمتزج بحبي الطفولي تجاهه، مفكراً بانبهار بقوته ودأبه العنيد على العمل.

وفي أحد الأيام أخرج أخي من جيب الصدر رسالة، طلب مني انزالها في صندوق البريد، وبينما كنت أنظر الى المظروف جذبت انتباهي كلمة «يولدوز» قبل غيرها من الكلمات، فأصبح مفهوماً لدي في الحال لم كان صوت اكرام غامضاً رقيقاً الى ذلك الحد في تلك الليلة آن كنا ننظر الى السماء ونتكلم عن النجوم. واذن، أزهار الخزامى التي جمعها أخي آنذاك انما كانت لهذه الانسانة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضغطت الرسالة الى قلبي أقرب، فيما كانت رائحة زيت المكائن تضوع منها، رائحة تلك الحياة الكادحة الصعبة، التي كان أخي يحياها بعيداً عن يولدوزه.

وفي اليوم الثامن بدأ تهجير الناس عن الأماكن المنخفضة. فشغل أهالي قريتنا مكاناً على سفح عال، في تخشيبة كبيرة، كان رعاة الكلخوز يبيتون فيها عادة في الصيف. كنا قد جلبنا معنا الضروري حسب. وفي الليل بقينا لا نستطيع النوم فترة طويلة، وكان ذلك يصعب دائماً في الأماكن الجديدة، الا أن أمراً آخر كان يقلقنا أكثر. فقد كان ثمة جدار هائل من المياه ماثلا أمام أعين الجميع على وشك الانهيار الى أسفل، وكان من الصعب أن نتصور لأنفسنا أننا لم نعد قادرين على الدخول الى بيوتنا بعد.

وكانت مصائر أولئك العاملين بالقرب من الانهيار تقلقنا أيضاً جميعاً، ومن بينهم أخي بالطبع.

أيقظني، وسط الليل، قرع شديد على الباب، فيما خيل الي في البدء أن ذلك القرع انما هو وجيب قلبي. ولكن القرع تكرر ثانية، فاقتربت أمي من الباب، فيما سمعت أصوات رجال في الخارج. كانوا يتحدثون بهدوء، ببطء، وبشيء من الذعر الى حدما. ثم هيمن سكون مرهق بعد ذلك. وفجأة سمعت عويلا يشق النفس تطلقه أمي.

رأيت في مستطيل الباب هيكلها القاتم، فيما تلاصقت النجوم فوق رأسها في الليل، وخرت احداها راسمة في السماء قوساً كبيراً.

بكيت بدوري، لفح الدمع الخدين، فكأن القلب تهشم الى شظايا في الصدر، وراحت تسيل نافرة من العينين قطرات قطرات.

فحدثونا عن هذه الليلة الرهيبة بالتفاصيل في اليوم التالي.

كان أخي يعمل في أكثر الأماكن خطورة، ويصل ببلدوزره حتى حافة الجرف، كاسحاً الصخور والأتربة، ولم يكن قد تبقى الا القليل ليكون خزان المياه جاهزاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم ير احد كيف ازاحت المياه التربة المحصورة تحت موقع العمل التي وقفت عليها بلدوزر أخي. وهل كان بالامكان رؤية ذلك؟ حدث كل ذلك خلال لحظات معدودة: انهارت كتلة كبيرة من الأرض، والبلدوزر وأخي معها في المياه. لقد تم كل ذلك بسرعة لم تدع مجالا لأحد كي يفهم كيف جرى ذلك. لقد انهار ماكان يجب حفره، ببساطة. وغار في المياه، لينجم عن ذلك قناة سالت فيها المياه الى أسفل، حيث مجراها الطبيعي، فزال خطر الفيضان عن الوادي تقريباً. ثم قاموا فيما بعد باحتفار قناة أخرى فأخذ جدار المياه يمضي في التناقص.

أنقذت البيوت والمزروعات والحدائق والناس، ولكن أخي فقد، وكنت أجري كل يوم من البيت قاصداً الترعة، فأجلس على صخرة، وأرقب ساعات مستوى المياه وهو يأخذ في النقصان، دون أن أستطيع تصديق أن اكرام ماعاد موجوداً بين الأحياء، منتظراً بفارغ الصبر وفي أمل غائم أن تشخب المياه، فيظهر أخي ثانية، سليماً مرحاً كالسابق. من كان بحاجة لحياته؟ لقد كان شاباً يحلم بالكثير، وبحاجة لأن يكتب العديد من الرسائل الى تلك الفتاة ذات الاسم السحري يولدوز، ولان يقتطف لها المزيد من أزاهير الخزامى الحمراء الدامية.

كنت أنظر الى المياه بصمت فأرى وجهه الصبوح المبتسم، ولكن موجة تشب فتعكر ذلك الوجه، فيختفي، بينما يتردد صوته في أذني: «هل رأيت، لقد فتحنا طريقاً للمياه». وكان صوته متفكراً رقيقاً، كما كان في تلك الليلة عندما تلفظ بكلمة «نجمة» بالأوزبكية.

ثم كنت أتذكر والدتي فأنهض عن الصخرة على عجل وأنتوي الجري الى البيت كي لا أدعها تقلق بسببي، غير أني أجلس من جديد في الحال، فقد كانت والدتي تجلس على مبعدة خطوات مني تنظر بعينيها المفجوعتين الساكنتين الى المياه لا تريم عنها. ولعل والدتي ما كانت لتصدق، شانها شاني، بأن اكرام قد مات، انما كانت تنتظر عودته حال تنحسر المياه تماما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعود الى البيت سوية، قاطعين الطريق بصمت، مطأطئي رأسينا الى الأرض.

لم يعد النهر الى مجراه الا بعد مرور شهر كامل، تدفقت مياهه بين الصخور ممراحة مسقسقة وكأن شيئاً لم يحدث أبداً.

غير أننا لم نعثر حتى آنذاك على أثر لا للبلدوزر ولا لجثة اكرام. اتضح انهما مطموران تحت تل عال من الغرين والأطيان جاءت بهما المياه ثمة.

عقد اجتماع تأبيني عند هذا التل، وتحدث العمال عن أخي حديثهم عن بطل من الأبطال. وأقيم شاهد مرمري على السفح نقش عليه: «عاش اكرام ٢٣ عاماً، ضحى بحياته منقذاً حيوات الكثيرين».

بقيت الندوب القرمزية الى الأبد على الصخور المتعالية الشاقولية التي وصلت اليها المياه، فكان يصعب عند النظر اليها تصديق ان مستوى المياه كان عالياً هكذا، فكان الناس يتحدثون بمزيد متعاظم من الاحترام عن بطولة وشجاعة أخي اكرام.

رحت الآن أزور هذا التل غالباً، واذا بي أرى في أحد الأيام باقة من ازاهير الخزامى البرية منطرحة الى جانب الشاهد المرمري. فتذكرت النجوم الساطعة التي أطلت علينا من النافذة تلك الليلة، وكيف جمع أخي من سفوح الجبال باقات الخزامى الأحمر لفتاة لها اسم يولدوز.

أين أنت الآن يايولدوز؟ أين أنت أيتها الحسناء المجهولة؟ بامكاني أن أحدثك الكثير عن قلب أخي الخافق المفعم بالحياة: وكيف تلفظ باسمك وهو ينظر الى النجوم، وعن عينيه وهما تنظران اليها، أين أنت أيتها الفتاة التي كان يفكر فيها وهو في أحلك الأوقات، وأنني لواثق من أنه تلفظ باسمك وهو يلقى حتفه. أتذكرينه أيتها الفتاة؟ وهل تفكرين به؟ وتنتظرين عودته اليك؟ أم أنك أحببت آخر، وأصبحت زوجة سعيدة وأماً...

لا شيء يمكنه ايقاف جريان الزمن، أنه يجري كالمياه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن ليست هنالك ايما صخرة بامكانها الوقوف في مجراه...

عندما أزهر الخزامى ربيعاً صعدت الى سفوح زيبون وجمعت باقة هائلة منه كي أضعها عند الشاهد المرمري، ولكني وجدت باقة أخرى غيرها هنالك، لاتشبه لأزاهير جبالنا من حمرة. كانت تلك الأزاهير وردية ذات بقع صفر، وبتلاتها أسمك قليلا.

لقد كانت أزاهير بواد بعيدة.

تلفت منتظراً رؤية حاملها الى هنا، الا أنني لم أر أحداً بالقرب، فتذكرت طشقند، مدينة السهول، حيث تحيى الفتاة التي أحبها أخي، فهمست شفتي:

يولدوز! يولدوز! لسوف أعثر عليك بالتأكيد يوماً ما...

مرت أعوام عديدة، ولكن أزاهير الخزامى الوردية كانت تظهر كل عام عند الشاهد المرمري. وكنت سعيداً بذلك، فقد عرفت أن ذكرى تلك الأزاهير القانية التي جلبها أخي من جبالنا لن تذوي أبداً في قلب الفتاة يولدوز، كما لن تنطفىء أبداً فوق رأسي النجوم، التي نظرنا اليها صحبة أخي، في تلك الليلة الباقية في الذاكرة أبداً.

Telegram:@qbooks2018

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محتويات

جلال اكرامي. سن الرشد ٣
ساتيم اولوغ زاده. موت حافظ ٣٥
خوجا صادق. الحرفة الواحدة والأربعون ٤٤
فاتح نيازي. عرس ٥٣
بولتا آرتيقوف. دموع الصخر ٦٥
فضل الدين محمديف. نزال ٧٢
رسول هادي زاده. الريح الهابة من شواطىء موليان . . ٩٨
بولاد توليس. الخزامى ١٢٢
جمعة آديناييف. قصة صورة ١٣٣
عبد السلام عطاباييف. ملامح الأب ١٤٤
تيمور ذو الفقاروف. الخوجا نصرالدين يحلم بالسفرجل (مقتطف من كتاب) ١٥٣
محي الدين خوجايف. هنهونة آكسانا ١٦٥
بهرام فيروز. طعم الحقيقة المر ١٧٩
سربون. صائد الطيور ١٩٠
معروف باباجان. شال للأم ١٩٥
ستار ترسون. المفترق ٢٠٣
عبد الرؤوف رابيف. يولدوز ٢٢١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الى القراء

ان دار رادوغا – فرع طشقند – تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته وأعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: شارع نوائي، ٣٠
طشقند – الاتحاد السوفييتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدهشة طراوة البرية في مناطق بامير ومهيب جمال الجبال الأبدية والشعاب وعظيم بياض الثلج البراق على قمة بامير، وجامح سيل انهاره المندفعة.

انه تاجكستان: وطن كتاب هذه المجموعة الرائع، الفريد بجماله والغني بتاريخه وتراثه.

هذه المجموعة ستعرف القراء على التغييرات الجذرية في حياة الشعب التاجيكي خلال اعوام السلطة السوفييتية وعلى واقع الجمهورية الحالي. وتتضمن هذه المجموعة الاقاصيص لكتاب من اجيال مختلفة: القدماء الذين كتبوا بنجاح ليس فقط الكثير من القصص القصيرة وانما النثر الروائي كذلك وحتى لكتاب الشباب الناشئين الذين صدرت مؤلفاتهم في الأعوام الأخيرة.

تضم المجموعة بشكل رئيسي القصص القصيرة التاجيكية الصادرة في العقدين الأخيرين.

دار رادوغا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner